عنوان الكتاب : النَّبْضُ صِفْرٌ

المؤلف : عبدالرحمن جاويش

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : عبدالرحمن حافظ

رقم الإيداع : 3769 / 2017

ردمك : 978-977-6549-33-3

الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

Dar.toya دار تويا للنشر و التوزيع

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014

٣٩ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

النَّبْضُ صِفْرٌ

(أنا الموءودُ فوقَ الأرضِ، وأنا مَنْ يَحْيا تحتَها)

عبدالرحمن جاويش

دار نويا للنشر والتوزيع

إهداء..

- إلى أخي الأكبر والوحيد.. بك أكتفي عن الجميع، دُمتَ لي.
- إلى كل مـن عـاش حياتـه دون أن يغـترَّ بهـا.. ولـكلِّ مَـن مـات راضيًـا عـمَّا فعـل.
- إلى يحيـى الطحـاوي.. الـذي أصرَّ عـلى أن يحـكي نصيبَـه مـن الروايـة بنفسـهِ؛ فشـاركني الحَـكْيَ، وتشـاطرنا الوَجَع.

الخَاتِمَة

كـم أكـره القيـادةَ وقـت الغـروب.. خاصـةً حـين يكـون الطريـقُ وعـرًا مُتربًـا كمعظـم الطـرق التـي تـؤدي إلى المقابـر، وحـين تجلـس إلى جـواري أنثـى لا تكـفُّ عـن النحيـب. لم يتـوانَ هاتفـي المحمـول عـن إصـدار ذلـك الصـوت المزعـج.. فتحـتُ "تابلـوه" السـيارة بحثًـا عنـه لأخرسـه فلـم أجـد إلا كتابًـا يحمـلُ اسـمي مُدرجًـا فوقـه بخـطٍّ أكـبر عنـوان: "العـودة من المـوتِ إلى المـوتِ"، أعـدتُ النظـر إلى الطريـقِ فلـم يمـلأ عينـيَّ إلا الغبـارُ الـذي نثرتـه عجلاتُ السـيارة، أخـبرتُ تلـك النوَّاحـة بجانبـي أن تبحـث عـن الهاتـف فـوق الأريكـة الخلفيـة للسـيارة.. تلتفـتُ لتأتينـي بقطعـةٍ مـن الرخـام خفيفـة الـوزن محفـورٍ عليهـا اسـمي مسـبوقًا بوصـف "المغفـور لـه"، ومخطوطًـا فوقـه آيـة: ﴿يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ الْمُطْمَئِنَّـةُ ارْجِعِـي إِلَى رَبِّـكِ رَاضِيَـةً مَرْضِيَّـةً فَادْخُـلِي فِي عِبَـادِي وَادْخُـلِي جَنَّتِـي﴾.

أدركـتُ أننــي قـد اقتربـتُ مــن وجهتـك، تأخــذني عينــاك للنظـر في المـرآة المثبتـة داخـل السـيارة لأطالـع ذلـك الكائـن الــذي صرتــه؛ لا أعــرف مــا هــو ولكننــي أدركُ جيــدًا أنــه لا ينتمـي إلى أيٍّ مـن عالمـيْ الأحيـاء ولا الأمـوات.. كـم تغـيَّر شـكلي بعـد الحادثـة، وكـم تغـيَّرت طباعـي وميـولي ورغبـاتي ونظـرتي للأشــياء..

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود؟!

مــن الجيـد أننــي لم أدهســه، حسـبي مـا تحمِلـه رقبتــي مـن دمٍ قـد سـال أثنـاء رحلتـي في العـودة إلى الحيـاة.. أوقفـت سـيارتي لأوقـف معهـا عاصفـة الغبـار التـي كانـت تُبـارك رحلتي، ترجَّلـت منهـا بخطـى غـير ثابتـةٍ مُسـتمدًا قـوتي مـن ضعفهـا.. تــردَّدَت قليـلًا قبـل أن تلحـقَ بي.

حاولـتُ تـلاوةَ بعـض الآيـات القرآنيـة، ولكننـي لم أتذكـر منها إلا تلـك المحفـورة عـلى قطعـة الرخـام، فلـم أفعـل.. أفزعنـي نبـاحُ الكلـب الناجـي مـن عجـلات سـيارتي وكأنـه يسـبني عـلى تهـوُّري في القيـادة، اختلـط صوتـه برائحـةِ الغبـار المنثـور ومـع منظـر شــواهد القبــور الصامتــة مــن حــولي ليصنعــوا مزيجًــا مُزعجًـا نجـح في التشـويش عـلى حـواسي وعكـر صفـاء أفـكاري. وجــدتُ هاتفــي أخــيرًا في أرضيــة الســيارة أثنــاء نــزولي منهــا.. فحصتــه سريعًــا لأجــدَ رســائل التعــازي تنهــال عــليَّ، وجــدتُ عــددًا مــن المكالمـات الفائتــة التــي يتمنــى لي أصحابُهـا الصبر

والسلوان وما إلى ذلك من عبارات نعي الجرائد التي لا معنى لها، والتي كانوا يقولونها لأقاربي منذ فترة كرثاءٍ حزينٍ على وفاتي.. لا وقت للردِّ عليهم.

أحاول فتحَ بوابة الحوش الذي يضمُّ مقابر جميع أفراد عائلتي.. مُمسكًا بيدي مفتاحًا صغيرًا وباليد الأخرى ذلك القفل الصدئ الذي لم يتغير منذ أمدٍ بعيدٍ، تستقرُّ فوق رأسي لافتةٌ ضخمةٌ مهيبةٌ كُتب عليها بخطٍّ رُقعة أسود اللون: "مدافن عائلة الطحاوي".

الكما هو واضحٌ فهذا اسم عائلتي إذا كنتَ ممن يهتمون بالأصول، أما إذا كنت ممن يهتمون بالأسماء الأولى فيُمكنك مُناداتي يحيى؛ أنا الموْءودُ فوق الأرض وأنا من يحيا تحتها.

أعرفُ أن حديثي مُبهم مُشتت بلا رأس ولا جسد، كنتُ أرغب أن تطول تلك اللحظات لألتقط أنفاسي وأخبرك بالتفصيل كيف حدث ما حدث، ولكن القفل استجاب الآن لمفتاحي، وحانت لحظةُ الحساب..

١

وصول متأخر

الأربعاء 1 فبراير 2006

استيقظ شكري الطحاوي على صوت جرس الباب الذي أنَّ من شدة الطرقات المزعجة المُنهالة عليه، لحوحةٌ هي مثل أبواقٍ في كتيبة جيشٍ تبتر نوم المُجَندين.. صاح بكلماتٍ غير مفهومةٍ ليُخبر الواقف- خلف الباب- أن ينتظر.. مشى حافي القدميْن- بغير اتزانٍ- حين فتح البابَ لم تظهر عليه الدهشةُ حين رأى شابًّا يرتدي زيًّا عسكريًّا وآخربملابس مدنية، لا بد أنه ضابط، لم يعبأ بهما ووجَّه حديثَه لسيدةٍ تقفُ خلفهما مُرتديةً عباءةً سوداء اللون:

- جايبة لي الحكومة يا زينب لحدِّ البيت.. هيَّ دي آخرة العِشرة؟!

قاطـع الضابـط عتابـه قائـلًا بلهجـةٍ رسـميةٍ إن زوجتـه قـد حصلـت عـلى حُكـم ضـده بالمكـوث في شـقة الزوجيـة السـابقة؛ بحُكـم كونِهـا مُطلقـةً وحاضنـةً لأطفالـه. لم يـرد شـكري فأمـره الضابـط أن يُخـلي الشـقة مـن متعلقاتـه الشـخصية.. نظـر إليـه شـكري مُسـتنكرًا، وقـال بلهجـةٍ لم تخـلُ مـن طاعـةٍ:

- إحنـا تحـت أمـر القانـون.. بـس لا مؤاخـذة السـت دي مالهـاش في البيـت شِـبْر.

زفـر الضابـط بحنـقٍ وقـال وهـو يجـزُّ قليـلًا عـلى أسـنانه أنـه مُقَـدِّرٌ للموقـف، ويحـترم أن شـكري مُـدَرِّسٌ فاضـلٌ ومُـربٍّ للأجيـال.. ولكـن يجـب عليـه أن يسـمح لـه بتأديـة عملـه وتطبيـق القانـون، ثـم أمـره بجمـع ملابسـه وإخـلاء المنـزل.. أجـاب شـكري بـأن وجـوده قانـوني؛ حتـى وإن حصلـت زينـب عـلى الكثـير مـن الأحـكام ضـده!

أطلقـت زينـب سـبَّة صارخـةً دون أن تهتـم بإشـارة العسـكري لهـا بالصمـت، اختلـط صياحُهـا مـع صـوتٍ أنثـوي صـادرٍ مـن داخـل الشـقة يسـأل شـكري بلهجـةٍ ناعسـةٍ عمَّـن يقـفُ معـه عـلى البـاب. ردَّ عليهـا شـكري مُطمئنًـا لعـدم وجـود مشـكلةٍ، قاطعـه الضابـط غاضبًـا:

- أنـت كـمان جايـب نسـوان الشـقة؟!.. لِـمّ زبالتـك دي وامـشي بـدل مـا أقـلّ أدبي عليـك!

نهاه شكري بلهجةٍ خبيثةٍ عن الخوضِ في سيرة زوجته الجديدة، أخبره أن قسيمة الزواج موجودةٌ بدرج مكتبه بالداخل في حالة أراد التأكد من كلامه. حاول الضابط أن يرفعَ صوته على بكاء زينب المختلط بعبارات ندبِ الحظ، ووجَّه حديثه إلى شكري مؤكدًا أنَّه لا شأن له بزواجه من عدمه، وأن ما يعنيه هو تنفيذ الحُكم بقوة القانون، ردَّ شكري بنفس الهدوء:

- جنابك مش مدِّيني فرصة أتكلم.. أنا معاك في كل اللي أنت بتقوله، بس إزاي هاسلِّم طليقتي شقة مش بتاعتي أصلًا؟

لم يُعطِه شكري فرصةً للرد، وأردف كأنه تدرَّب كثيرًا على هذا الموقف.. أخبره أن الشقة تم تأجيرُها قبل الطلاق لزوجته الجديدة بعقدٍ مدَّته عشر سنين، وأكمل قائلًا:

- الجماعة الجديدة بقى كتَّر خيرها كانت سيبانا نقعد في أملاكها.. يعني قانونيًّا ماعنديش حاجة أدِّيها لطليقتي.. وعقد الإيجار جوَّه برضه في نفس الدُّرج اللي فيه القسيمة.

لم تحتمل زينب ما سمعت ولطمتْ على وجهِها، حاول العسكري الذي تعاطف معها السيطرة عليها بوجهٍ مُنكسٍ وشعورٍ قاتلٍ بالقهر.. طلب الضابط من شكري بلهجةٍ

عمليـةٍ المسـتندات التـي تُثبـت كلامـه، وحـين تأكـد مـن صحـة ادعائـه وجَّـه حديثـه للزوجـة السـابقة:

ـ للأسـف يـا مـدام زينـب جـوزك لعبهـا صـح، وطبعًـا مـش محتـاج أقولـك إن بعـد عـشر سـنين الأطفـال هايكونـوا خرجـوا مـن حضانتـك.

لم تسـمعه مـن شـدة بكائهـا، فاسـتدرك الضابـطُ أن تنفيـذ الحُكْـم قـد تأخَّـر أوانُـه ولم يعـد لـه فائـدة، نظـر إلى شـكري وقـال لـه مُبتسـمًا:

ـ ابقـى سـلّم لي عـلى ناجـي الطحـاوي.. مـش هـو المحامـي بتاعـك؟!

ردَّ شكري باستغرابٍ، قائلًا:

ـ وابـن عمـي كـمان يـا باشـا.. بـس عرفـت إزاي مـع إنِّي مـش موكله رسـمي؟!

ـ شغله باين.. متنساش تقول له ياخد باله من نفسه.

***

نظـر أمجـد بضجـرٍ لسـاعة يـده، نـزل بنظـره قليـلًا حتـى وصـل إلى الدبلـة الفضيـة في إصبعـه البنـصر، والمحفـور عليهـا بالإنجليزيـة اسـم "إيفلـين" الجالسـة إلى جـواره يبـدو عليهـا الإعيـاء. كانـت بيضـاء البـشرة، صهبـاء ذات شـفتيْن ممتلئتـيْن

ورديتـيْ اللـون، نُـثِر النمـشُ عـلى وجهها ورقبتهـا.. حـاول أمجـد التخفيـف عنها فوجَّـه بـصره مبـاشرةً صـوب عينيْهـا الزرقاويْـن شـديدتيْ النقـاء، وقـال بصـوتٍ خفيـضٍ:

- ماعرفش جُبران الزفت ده اتأخر ليه!

أومـأت برأسِــها دون اكـتراثٍ، فاقــترح أن يذهبـا للســوق الحُــرَّة حتــى يصــل جــبران، أشــاحت بيدهــا طالبــةً منــه ألا يتحــدث كأن هــذه زيارتهــا الأولى لمــصر. تعجَّــب مــن تغــيُّر طبعهـا مـن بعـد زيارتهـم الأخـيرة لأهلهـا في ألمانيـا، ردَّت بضيـقٍ:

- أنت عارف إني كنت عايزة نفضل معاهم في ألمانيا.

سألها مُعاتبًا:

- عايـزة تعيـشي مـع أهلـك ولّا عايـزة تعيـشي في أي مـكان بـرّه مـصر.. يعنـي مثـلًا لـو رجعنـا إنجلـترا واشـتغلنا هناك.. هايبقـى ده موقفـك؟!

ردَّت بعصبية:

- انس إنك مصري وقول لي ميزة واحدة لقعدتنا في هنا!

أجـاب بهـدوءٍ أنـه إذا أقـام في ألمانيـا أو إنجلـترا سـيصبح مجـرد طبيـبٍ نفسـيٍّ مثلـه مثـل آلاف غـيره؛ أمـا في مـصر فثقافـة الطـب نفـسي مُسـتحدثة عليهـم، وقـد ازداد الوعـي بأهميتــه مؤخــرًا، وبالتــالي ســترتفع قيمتــه العلميــة في هــذا المجـال.

عقَّبت إيفلين بلهجةٍ ساخرةٍ أنه يُريد الإقامة في مصر ليُعاير أبناء بلده ببقائه فيها، ويدَّعي عليهم أنه يستحق تقديرًا أعلى إذا كان يعيش في بلدٍ ثانٍ، ردَّ بلهجةٍ أقل حدَّة:

- مش عيب إني أروح المكان اللي تبان قيمتي فيه، بعدين إنتي عارفه أكتر مني إن الفلوس اللي بأعملها في مصر أكتر من أي مكان تاني.

لم ترد إيفلين كعادتها في عدم إكمال النقاش، وسرحت في منظر قاعة الانتظار الخاوية بمطار القاهرة الدولي.. أغراها عقلها ببعض ذكريات الطفولة؛ تذكرت مكوثها في مدينة كولونيا الألمانية برفقة والديْها واثنيْن من الإخوة، كانت أكبر الأبناء وعلى الرغم من كونها الابنة الوحيدة.. لكنها استمدَّت قوة الشخصية من والدتها كما استمدَّت ذلك الشَّعر الناعم أحمر اللون وتلك البشرة المشرقة كشمس الربيع، ونالت من أبيها كل ما هو طفولي في شخصيتها: عنادها الشديد، ورغبتها الدائمة في أن تظفر بفخر من حولها؛ الأمر الذي حفَّزها دراسيًّا وجعلها تُصمم على السفر في بعثةٍ متوجهةٍ إلى إنجلترا لدراسة الصيدلة.

وقتئذٍ كان أمجد ذلك الفتى القاهري متفوقًا في كل شيء: بدءًا من الرياضة، مرورًا بتكوين العَلاقات الاجتماعية والعاطفية، وحتى التفوق الدراسي الذي أهَّله ليدرس الطب النفسي في جامعة بيرمنجهام- حيث قابل إيفلين- بعد

أن أرسـل لهـم ورقـةً بحثيـةً نالـت إعجابهـم.. لم يكـن ممـن ينبهـرون ببنـات الغـرب.. ولكـن إيفلـين كانـت حالـةً خاصـةً.

قـرَّر أن يُثـير إعجابها عـلى طريقتـه الخاصـة؛ حفـظ قصيـدة للشـاعر الألمـاني "جوتـه" وتعمَّـد أن ينطـق معظـم كلماتهـا بطريقـةٍ خاطئـةٍ، ألقـى عليهـا كلـماتِ الشِّـعر مثـل أسـهم خائبـةٍ مرتعشـةٍ، ضحكـت فـأدرك نجـاح خطتـه، نجـح تمامًـا في حجـز تذكـرة لدخـول قلبهـا. تكلـما كثـيرًا وتشـاركا الكثـير مـن الاهتمامـات، لم تخـلُ عطلاتهـما الأسـبوعية مـن التجـوُّل والسـفر عـبر أنحـاء المملكـة؛ كثـيرًا مـا جلسـا في سـاحة قـصر باكِنجهـام يتحدثـان عـن موطنيْهـما في محاولـةٍ لإذابـة الفـروق الثقافيـة والحضاريـة بينهـما.. علَّمتـه الألمانيـة، وجعلهـا تشـاهد القنـوات المصريـة عـلى التلفزيـون حتـى تتقـنَ اللهجـة.. وعـلى الرغـم مـن اختـلافِ الخلفيـة التـي نشـأ عليهـا كلاهـما، فقـد ارتاحـا أكـثر حـين وجـدا نقطـة لقـاء فكـري متمثلـةً في الثقافـة البريطانيـة التـي تأقلـما عليهـا بسـهولةٍ.

قبَّلهـا لأول مـرةٍ أثنـاء جلوسـهما عـلى ضفـاف نهـر التايمـز، أشـعلت هـذه القُبلـة داخلهـا ذكـرى بعيـدةً كانـت تظـن أنهـا مُحِيـت إلى الأبـد: ذكـرى فيليـب.. جارهـا وزميلهـا في كليـة الصيدلـة بمدينـة دوسـلدورف التـي لا تبعـدُ كثـيرًا عـن مسـكنها بكولونيـا، ظنَّـت لفـترةٍ طويلـةٍ أنهـما قـد خُلقـا لأجـل بعـض، لامـس شـفتيْها لأول مـرةٍ عـلى سـطح مركـبٍ صغـيرٍ طافـت بهـما

نهـر الرايـن.. وبـين قُبلـة الرايـن وقُبلـة التايمـز اسـتعرت جـروحٌ والتأمـت أخـرى.

قاطـع فيـضَ ذكرياتهـا وصـولُ جُـبران التومرجـي والسـائق الخـاص بأمجـد.. كان صديـق طفولتـه، لكنـه لم يُكمـل تعليمـه عكـس أمجـد الـذي أثبـت نجاحـه داخـل الدراسـة وخارجهـا حتـى عـاد إلى مـصر واضعًـا اسـم "أمجـد عـمَّار" وسـط أشـهر الأسـماء في عـالم الطـب النفـسي. أشـار أمجـد لجُـبران كي يحمـلَ الحقائـب وسـأله بغضـبٍ عـن سـبب تأخـيره دون أن ينظـر لـه، ردَّ جـبران بابتسـامةٍ مفتعلـةٍ خائفـةٍ أنـه قـد نـسي ميعـاد وصـول الطائـرة، ردَّ أمجـد بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- كـده هرجـع البيـت متأخـر وأصحـى مـن النـوم متأخـر وأروح العيـادة متأخـر.. مخصـوم منـك تمـن جلسـة.

قال جُبران بلهجة توسل:

- بس يا أمجد...

أنهى أمجد الحديث بحزمٍ:

- دكتور أمجد، وكلمة كمان هخصم منك جلستين!

حمـل جـبران الحقائـب.. سـأله أمجـد- دون أن يتخـلى عـن لهجتـه الجـادة- عمـن سـأل عليـه أثنـاء السـفر.. لـيردَّ الأخـيرُ بلهجـةٍ رسـميةٍ أن بعـض المـرضى الذيـن حجـزوا مواعيد الكشـف اتصلـوا للتأكيـد عـلى حجزهـم. قـال أمجـد باهتـمامٍ:

- اتصـلْ بيحيـى الطحـاوي وقـول لـه إن معـاد جلسـته هيتأجـل لبكـرة.

أومـأ جـبران برأسـهِ مُطيعًـا، اقـترب أمجـد مـن أذنـه وهمـس قائلًا:

- قولِّي.. اشتريت له الكفن زي ما قلت لك؟!

***

أتميَّـزني وسـط زحـام البـشر السـائرين حـولي؟.. طبيعـي ألا تعرفنـي، فمـن أنـا لتفعـل؟!

لم أعـرف كـم مـن الوقـت اسـتمرَّ تجـوُّلي الهائـم في شـوارع القاهـرة، ولا كـم مـن المواضيـع التـي تطـرَّق إليهـا عقـلي؛ سرحـتُ في إلحـاح زوجتـي بـأن أعمـل وألا أكتفـي بالاعتـماد عـلى إيـراد الأرض التـي ورثتهـا عـن أبي والموجـودة بقريتـي الأم (طحا-الطريـق)، تذكَّـرت إلحـاح ناجـي المسـتمرَّ بـأن أعمـل معـه في مكتـب المحامـاة الخـاص بـه، هِمـتُ في ذكريـات والـديَّ الراحلَـيْن وعمـي عطـوة الطامـع في كل مـا ليـس لـه.

طلبـت مـن خيـالي مسـاعدتي لأجـد أي ذكـرى تُلهينـي عـن مأسـاتي الحاليـة التـي تحرمنـي النـوم، حتـى وإن أراده جسـدي وألـحَّ في طلبـه.

لم أعتـد الخـروج مـن منـزلي في الآونـة الأخـيرة، ولكـن ميعاديْـن جعلاني أضطـر للنـزول: الميعـاد الأول كان مـع لطفـي أبـو الخـير مديـر دار "بصيـص" واحـدة مـن كـبرى دور النـشر والتوزيـع في مـصر، عرضـت عليـه منـذ فـترةٍ مجموعـةً مـن القصـص القصـيرة علّهـا تُلاقـي قبولـه ويتـم نشرُهـا.. ولكـن الـردَّ أتـاني صادمًـا ظالمًـا؛ أخـبرني أن مـا أكتبـه عـادي يُمكـن لمئـاتٍ غـيري أن يكتبـوا مثلـه، ولـن يلاقـي قبـول النـاس. كنـتُ أدرك في قـرارتي أننـي لسـتُ بالكاتـب المتميـز صاحـب البصمـة الأدبيـة، ولكـن اسـتفزَّني أن نفـس الـدار تنـشر أعـمالًا أخـرى أقـل مـما أكتـب لأغـراضٍ تجاريـةٍ. أنهيـتُ المقابلـة غاضبًـا بعـد أن طرحتُ عـلى مديـر الـدار سـؤالًا لم أقـف مُنتظـرًا إجابتـه: أنحـن مـن نصنـع ذائقـة القـارئ أم أن الجمهـور مـن يُمـلي علينـا ذوقـه؟!

أمـا عـن الميعـاد الثـاني فقـد تـم تأجيلُـه؛ كان لـدى صديـق عمـري والطبيـب المـشرف عـلى علاجـي: أمجـد عـمَّار. لم أُنكـر يومًـا أمـام نفـسي شـعور الغـيرة المسـتحوذ عـليَّ تجاهـه؛ فقـد حقـق كل أحلامـي التـي طالمـا طالتنـي سـهامُ الشـغف بهـا: التحـق بكليـة الطـب وسـافر إلى المملكـة البريطانيـة وتـزوَّج مـن حبيبتـه الألمانيـة.. في حـين لم أغـادر مـصر، تزوجـت مـن مـيّ زميلتـي السـابقة في عمـلي بالتدريـس، وإلى الآن هـو مـشروع زواج مـن أفشـل مـا يكـون.

لم أعـرف متـى بلغـتُ كوبـري قـصر النيـل. اسـتندتُ إلى سـور الكوبـري مُتأمـلًا واحـدًا مـن تماثيـل أسـود قـصر النيـل الـذي طالمـا حسـدته عـلى شـموخه الـذي لا يتزعـزع.. عـلى الرغـم مـما يـراه مـن مهـازل يوميـةٍ تحـدث تحـت ناظريْـه، بعد أن شـهد عـلى حـدوث "هوجـة" تبعهـا احتـلالٌ، وثـورةٌ مدنيـةٌ تبعهـا اسـتقلالٌ، وأخـرى عسـكرية تبعهـا عـدوان.. طالعـتُ سـطح النيـل محـاولًا أن أرى وجهـي الكهـل عـلى صفحـة مياهـه ولكـن الظـلام منعنـي، تخيَّلـت ملامحـي كـما أراهـا مؤخـرًا في مـرآتي؛ أرى عينـيْ بنيتـيْ اللـون، منهكتـيْن مـن قلـة النـوم، تُحيطهـما هـالاتٌ وتجاعيـد قليلـة تـشي ببلوغـي الأربعـين منـذ أمـدٍ قريـبٍ، وذاك أنـفٌ كبـيرٌ ورثتـه عـن والـدي كـما ورثـت عنـه البـشرة الخمريـة وتساقُط جزءٍ كبيرٍ مـن الشَّـعر الأمامـي، طالعـت عـلى امتـداد النيـل ظـلي الـذي يعكـسُ طـول قامتـي وجسـدي العريـض بعـض الـشيء. لمحـت بطـرف عينـي صراعًـا شـفهيًّا يـدورُ عـلى مـتن إحـدى المراكـب النيليـة المخصصـة لإقامـة النـزه والحفـلات؛ فتـاة ترتـدي ملابـس ضيقـة وتضـع المسـاحيق الرخيصـة تتشـاجرُ مـع مـن يبـدو أنـه صاحـب المركـب.. لم أسـمع الكثير مـما قيـل، لكننـي خمَّنـتُ أنهـا واحـدةٌ ممـن يحضرهـن صاحـب المركـب لترقـص أثنـاء النزهـة النيليـة بغـرض جلـب الزبائـن، يبـدو أن الشـجار عـلى الأجـر أو عـلى طلبـه لمـا هـو أكـثر مـن مجـرد رقصـة.

لم أجـد مهربًـا مـن منـزلي سـوى زيـارة شـكري ابـن عمـي للسـهر معـه؛ اعتـاد شـكري أن يسـهر فـوق سـطح شـقته مـع مجموعــة مــن أصدقائــه كل يــوم أربعــاء.. لا يفعلــون شــيئًا سـوى السُّـكر والغيـاب عـن الواقـع، الأمـر الـذي لا أنشـد سـواه.

- عينـك حمـرا أوي يـا يحيـى.. أنـت مـا بتنامـش ولا إيـه يـا بنـي؟!

افتتـح شـكري كلامـه معـي وهـو يتحـرك مـن أمـام البـاب المـؤدي إلى السـطح بعـد أن صافحنـي مُربتًـا عـلى ظهـري.. كان شـكري قصـيرًا نحيـلًا ذا رأسٍ ضخـمٍ وشـاربٍ رفيـعٍ يهتـم بـه أكـثر مـن أي شيء.. قـال لي ضاحـكًا:

- بطَّـل توطـي أوي كـده وأنـت بتحضـن يـا جـدع!.. طـول وعـرض عـلى الفـاضي صحيـح.

حييتُ الجالسين، ووجَّهت حديثي إلى شكري قائلًا:

- بطّـل قـرّ.. مـن سـاعة مـا قعـدت في البيـت وأنـا عـمَّال أتخـن.

قال شكري بلهجةٍ خبيثةٍ:

- حماتــك بتحبــك.. جيــت وإحنــا لســه بنجهِّــز القعــدة، وســايب إزازة "أولــد ســتاج" تحــت في التلاجــة بتتشــبر.

أبديــت قلقــي مــن أن تراهــا زوجتــه الجديــدة، فأجــاب ضاحـكًا أنـه خبَّأهـا جيـدًا، وأن زوجتـه مشـغولةٌ الآن باللعـب

مـع ابنهـا الصغـير محمـد.. اسـتنكرت عليـه تركـه زوجتـه لصالـح أرملـة، وهجـر أطفالـه لتربيـة طفـل ليـس مـن صلبـه، فأجـاب بصـوتٍ خفيـضٍ:

- القلب وما يريد.

عقَّب أحدُ الجالسين ضاحكًا:

- القلب برضه يا شكري؟!

انفجـرت الجلسـة كلهـا في نوبـةٍ مـن الضحـك.. سـألت شـكري بصـوتٍ خفيـضٍ إذا كان مُسـتمرًا في تعاطـى الهيرويـن، فأجـاب أن اليـوم سـيكون آخـر يـومٍ لـه مـع هـذا المسـحوق اللعـين، وأنـه قـد نـوى أمـام اللـه أن يتعـافى منـه، هـززت رأسي قائـلًا بحـسرةٍ:

- الزفـت ده دمَّـر حياتـك يـا شـكري.. ده لـولا سـتر ربنـا كنـت هتبـات إنهـاردة في الشـارع!

أجاب مُبتسمًا ببلاهةٍ بعد أن بدأ عقله في الغياب:

- البركة في أخوك ناجي هو اللي لحقني..

وأشـار إلى أحـد الجالسـين والـذي كان يرتـدي جلبابًـا أبيـض اللـون، وقـال:

- وفي الحـاج فتحـي صاحـب العـمارة الـلي شـهد عـلى عقـد الإيجـار الـلي كتبتـه لمـراتي الجديـدة بتاريـخ قديـم.

كانـت الجلسـة قليلـة العـدد في ذلـك اليـوم؛ فبجانـب شـكري والحـاج فتحـي كان يوجـد عبـد الرحيـم حـارس أحـد العقـارات المجـاورة، وخليـل الـذي عـاش طيلـة حياتـه يعمـل كومبـارس في السـينما يتفاخـرُ دومًـا بمشـهدٍ وحيـدٍ ظهـر فيـه صامتًـا بجـوار عـادل إمـام.. وفي كل جلسـة يتكلـم عـن قصـة الحـب التـي جمعتـه بيـسرا أثنـاء تصويـر الفيلـم وسـط ضحكات السـكارى السـاخرة منـه. أمـا الأخـير فـكان خالـد أحـد أصدقـاء شـكري والـذي كان يخـدمُ الجالسـين لأنـه لا يمتلـك المـال الـلازم لمـا يشربـه.. أثـار اشـمئزازي حـين رأيتـه أول مـرةٍ؛ بعظـم وجنتيْه البـارز عنـد جانبـيْ وجهه ذي السَّـمار الباهت والحبـوب الحمراء المتناثـرة، تُحيـط رأسَـه أذنـان كبيرتـان بارزتـان عنـه، وقليـلٌ مـن الشَّـعر المنثـور الـذي كان بمثابـة لحيـةٍ غـير مكتملـةٍ واصطـفَّ جـزءٌ منـه فـوق شـفتيْه كشـاربٍ رفيـعٍ.. ناولنـي زجاجـةً مـن البـيرة فشربـتُ نصفهـا عـلى مـرةٍ واحـدةٍ قائـلًا لشـكري:

- مش ناوي تنزل طحا بقى؟.. أبوك بيسأل عليك دايمًا.

استنكر شـكري تحيـزي المفاجـئ لأبيـه، ذكَّـرني بمـا أقولـه دائمًـا عـن جشـع عطـوة، وطمعـه في مـيراثي أنـا وناجـي، قلـت وأنـا أنهـي زجاجتـي وأشـير لخالـد كي يناولنـي أخـرى:

- أنـا مابطيقـش أبـوك.. بـسّ برضـه هـو أب وحقّـه يطّمـن عليـك.

قال شكري وهو ينفثُ دخان الحشيش:

ـ أنـا كـده مسـتريح.. أحسـن حاجـة عملتهـا سـتي فرحـة إنهـا سـابتك أنـت وناجـي تكملـوا تعليمكـوا وتعيشـوا هنـا في شـقة أبـوك الـلي في الحسـين..

قلـتُ لـه ناصحًـا إن عطـوة مهـما فعـل سـيظل أبـاه ويجـب عليـه أن يـودَّه، ردَّ مُسـتنكرًا أنـه في غنـى عـن الأب الـذي ميَّـز حسـن أخـاه الأكبرعنـه وجعلـه يُديـر كل أعمالـه التجاريـة، ودلَّل أخـاه الأصغـر حسـين الـذي يعـول عـلى أبيـه ولا يسـتطيع أن يتحملَ نفقـات أهـل بيتـه حتـى الآن!.. تدخَّـل خالـد في الحـوار بعـد أن قـام بلـفِّ الحشـيش للحـاج فتحـي وتركـه مـع خيالـه، وجَّـه حديثـه لشـكري قائـلًا بلهجتـه "السـكرانة" إن علـماء النفـس يُعرِّفـون مـا يُعانيـه باسـم "عُقـدة الأخ الأوسـط"؛ فـلا هـو كبـير الإخـوة وزعيمهـم كحسـن، ولا يتمتـع بنفـس الاهتـمام والتدليـل اللذيـن كانـا يحصـل عليهـما قبـل أن يُولـد حسـين.

تعجَّبـتُ مـن كلام خالـد غـير المتسـق مـع منظـره الـرثِّ وجلسـته القرفصـاء، سـألته وأنـا أسـحب زجاجـة الخمـر الثالثـة عـن السـبب الـذي أوصلـه إلى تلـك الحالـة.. تركنـا شـكري وأخـرج كيـس الهيرويـن مـن جيبـه، وضـع جـزءًا منـه عـلى المنضـدة أمامـه وبـدأ في تسـطيرها باسـتخدام بطاقتـه.. كـدت أن أنهـره ولكـن خالـد سرق انتباهـي حـين رد عـليَّ قائـلًا:

ـ أنـا مـش مدمـن زي شـكري ولا غـاوي كِيـف زيكـوا يـا أسـتاذ يحيـى.. ولـو جـت لي مليـون فرصـة أبطَّـل مـش

هابطَّل، أنا مشكلتي كلها إني شغلت بالي زيادة بالواقع ودوّرت كتير عشان أوصل للحقيقة.

بدأت أدخل في حالةٍ من السُّكر وأغفل عن أجزاء من الحديث، سألته قائلًا:

- ووصلت للحقيقة؟!

أجاب خالد وهو يُعيد توزيع زجاجات الخمر الممتلئة على الجالسين:

- لو ماكنتش وصلت لها مكانش زماني قاعد هنا بحاول أغيِّب دماغي.. أصل الحقيقة زي الشمس؛ على قدّ ما هي عظيمة وبتنوَّر لك الطريق، بس لو قرَّبت منها زيادة عن المسموح هاتتحرق.

نظرت بحزنٍ لشكري الذي أوشك على إنهاء كيس البودرة كاملًا، وقلتُ لخالد:

- بس الشمس ما بتحرقش مؤمن.

- والحقيقة ما بتحرقش مسطول، وأنا اخترت أكون التاني.

أشرت لخالد كي يناولني زجاجة أخرى، فعلَّق مُتعجبًا من عدم اقترابي للحشيش، ضحكت قائلًا:

- زمان قبل ما رجلك تاخد على السطح ده كنت بحب الحشيش أكتر، بس الفترة اللي فاتت مبقاش يحوَّق فيّا

غـير الميـة.. أصـل الحشـيش ده للروقـان والسـلطنة، وأنـا مـش عايـز أروق؛ أنـا عايـز أغيـب.

كاد خالـد أن يطـرح سـؤالًا آخـر ولكـن قاطعـه صـوت ارتطـام جسـد شـكري بـالأرض جـراء الجرعـة الزائـدة التـي أخذهـا.. حاولـت أن أنهـض لكـن جسـدي كان ثقيـلًا يرفـض الاسـتجابة لأوامـر عقـلي المشـتتة، قـام الحـاج فتحـي عـلى الفـور لإيقـاظ الطبيـب القاطـن في العـمارة ليُسـعف شـكري.. أثنـاء خروجـه مـن بـاب السـطح ارتطـم بزوجـة شـكري الجديـدة التـي صرخـت لاهثـةً ولطمـت وجنتَهـا في فـزعٍ:

- إلحقـوني.. محمـد ابنـي شرب مـن إزازة الخمـرة الـلي كانـت مسـتخبية في التلاجـة، الـواد وقـع مـن طولـه ومـا بيحطّـش منطق !

٢

النارُ تأكلُ بعضَها

شعورٌ غريبٌ أن تبدو ميتًا أمام الجميع، تُدقق في أصوات بكائهم علّك تُميز الصدق من الرياء.. كان الأمرُ مُمتعًا في البداية؛ فقد انخدعوا بمنظرِ جثماني الذي يُشبه الأموات. ولكن مع الوقت قلَّت المتعة حتى تحوَّلت خوفًا من ألا أعود مرةً أخرى إلى عالم الأحياء.. شعرتُ بانقباضٍ مُفزعٍ حين سمعتهم يتحدثون عني بضمير الغائب، يذكرونني كجزءٍ من ماضٍ بعيدٍ، لم أعلم متى أصبح لقبي «يحيى الله يرحمه»!

بدأ الناس يرفعون نعشي ذاكرين عبارات التوحيد.. حينها راودني هاجسٌ جعلني أتساءل: هل ما زلتُ حيًّا أم أنني أتوهم الحياة لأهوِّن على نفسي سكرات الموت؟!

الخميس 2 فبراير 2006

- إيه التهريج اللي بيحصل ده!.. يعني إيه موكلي يقعد في الحبس الاحتياطي يومين من غير ما يتعرض على النيابة؟

هكذا افتتح ناجي الطحاوي ظهوره داخل أروقة نيابة المركز التابعة له قرية (طحا-الطريق).. ممشوق الجسد وعلى قدرٍ من الوسامة التي اكتسبها من وجهه قمحي اللون، غزا الشِّيب جانبيْ رأسهِ مُبكرًا، بيدَ أن ذلك الشيب ما زاده إلا وقارًا. أخبره أحدُ العساكر أن موكله موجودٌ الآن داخل مكتب وكيل النيابة ليبدأ في التحقيق معه.. فاقتحم ناجي المكتب دون استئذانٍ رغم اعتراض العسكري الواقف على باب المكتب والذي أوقفه وكيل النيابة بإشارةٍ من يده ليترك ناجي ويخرج، ثم نهض على مهلٍ قائلًا:

- ناجي بيك الطحاوي.. نوَّرت مكتبي.

نهض على مهلٍ لمصافحة ناجي الذي لاحظ ارتداءه خاتم زواج في يُسراه، كما لاحظ أن شكله لم يتغير منذ أن كان زميله في الدراسة؛ فلا يزال بدينًا ذا قامة قصيرة أملس الوجه الذي يشعُّ احمرارًا كالأطفال، كما كان صوتُه رفيعًا وهالته أبعد ما تكون عن الهيبة التي تتطلبها مهنته.. نظر له ناجي من أعلى إلى أسفل وقال ضاحكًا:

- البهويـة دي طـول عمرهـا بتاعـة النيابـة.. خلِّينـي أسـتاذ ناجـي أحسـن.

ردَّ مُحدِّثُه بلهجةٍ خبيثةٍ:

- مـا أنـت كنـت قُريـب مـن النيابـة وكل الدفعـة كانـت متوقعـة إنـك تكـون أول واحـد يدخلهـا.. ثـم نظـر إلى المتهـم الواقـف أمـام مكتبـه، وقـال:

- ربنا يسامحه بقى اللي كان السبب في حرمانك منها.

نظـر ناجـي إلى الشـخص الثالـث الـذي كاد أن ينـسى وجوده، اقـترب منـه وربـت عـلى كتفـه قائلًا:

- ما تقلقش يا عمي.. كله هيبقى تمام والنيابة هتنصفنا.

قـال وكيـل النيابـة مُتهكـمًا إن النيابـة لـن تنصـفَ إلا الحـق.. لم يـرد ناجـي وأشـار لعمـه بالجلـوس عـلى المقعـد المقابـل لـه أمـام مكتـب وكيـل النيابـة دون انتظـار الإذن منـه. بـدا الغضـبُ عـلى الوكيـل وحـذَّره بلهجـةٍ حـادةٍ مـن القيـام بأفعالـه الملتويـة التـي تـردَّد صداهـا في جميـع دوائـر نيابـات القاهـرة، واصفًـا طريقـة عملـه بالشـغل "الشـمال". تجاهـل ناجـي وصفـه الأخـير ونظـر إلى اللافتـة الصغـيرة الموجـودة عـلى مكتبـه وحملهـا قائـلًا:

- نائـل بيـك عبـد الـودود وكيـل النائـب العـام.. لأ حلـوة اليافطـة، ابقـى فكـرني يـا عمـي نعمـل زيهـا.. أبلـكاش دي يـا نائـل؟!

زفر نائل حنقًا، وقال باقتضابٍ:

ـ أنا بقول نتكلم جدّ بدل شغل الأراجوزات ده!

اعتدل ناجي في جلسته وفتح أزرار بدلته وقال بلهجةٍ عمليةٍ إن موكله رجل شريف خدم بلده في أكثر من موقفٍ؛ كان عضوًا سابقًا في البرلمان بعد فوزه بالانتخابات المُقامة سنة ٢٠٠٠، وأنه والد النائب الحالي عن نفس الدائرة: حسن الطحاوي.. الذي لولا سفرُه خارج مصر لما قُبِض على أبيه بمثل تلك التهمة المُشينة. ردَّ نائل على ناجي وهو يُطالع بعض الأوراق أمامه أن محضر الشرطة يتهم عمه "المُبجل" بتسهيل الدعارة في أحد البيوت المملوكة له داخل قرية (طحا- الطريق).. ليردَّ ناجي مُبتسمًا:

ـ مسكتوه متلبس؟

ـ لأ.. بس كل اللي اتقبض عليهم أكدوا إن عمك كان معاهم وإنه هرب في آخر لحظة.

ـ مسكتوه متلبس؟

ـ البيت مكتوب باسمه يا أستاذ ناجي.. أكيد اللي كانوا جوّه ما دخلوش غصب عنه.. القضية لابساه لابساه يا ناجي!

قال ناجي بنفس الإصرار دون أن يُغير من لهجته الساخرة:

- مسكتوه متلبس؟

خبط نائل منضدة مكتبه بيمناه قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ إن البيت مملوك باسم عطوة الطحاوي، وإن جميع الشهود أقرُّوا بوجوده ساعة الحادثة. بدا القلق على عطوة ولكن ناجي ردَّ بهدوء:

- أنا بعتّ المحامي اللي بيتمرّن معايا يسأل اللي اتمسكوا في الشقة، وكلهم أكِّدوا إن الظابط جابهم من بيوتهم زيِّ ما جاب الحاج عطوة من بيته بالظبط، وضغط عليهم عشان يقولوا الأقوال المُثبتة عندك.. وأنا متأكد إن في محضر النيابة كل كلامهم هيتغيّر.

ضحك نائل قائلًا إن الموضوع ليس بالسهولة التي يتصوَّرها ناجي، وإن محضر الضبط والتلبس مكتوب بطريقة مُحكمة.. طلب منه ناجي أن يذكر عنوان موقع التلبس المذكور في المحضر، نظر نائل إلى أوراق المحضر وبدأ يقرأ منه:

- البيت مكوَّن من دورين ومتأسس على أرض مملوكة لعمك عطوة رفعت صادق عبد الحي الشهير بعطوة الطحاوي، جنب البيت من ناحية أراضي زراعية مملوكة لعائلة الطحاوي ومزروعة قمح حاليًا، ومن الناحية التانية مستوصف القرية، وباقي الكلام إنت عارفه بقى.. تعرف إن ده أدق وصف شوفته في محضر من

ساعة ما اتعيِّنت؟ واضح إن الناس في القسم بيحبُّوا عمك أوي.

نظر ناجي إلى عمه باستغرابٍ وسأله إن كان يملك بيتًا في الموقع المذكور، ليردَّ عطوة باستهجانٍ قائلًا:

- هو أنا مجنون؟.. هابني في حتة مهجورة زي دي!

صاح فيهما نائل بغضبٍ:

- إنتوا هتغنوا وتردوا على بعض..

ثم أشار إلى عطوة وصاح فيه آمرًا أن ينهض من مكانه، لم يفقد ناجي أعصابه واعتذر عما سبَّباه من ضجر لنائل، وأكمل حديثه قائلًا:

المستوصف ده على أرض الطحاوية اتبرعوا بيها للقرية، بناه أبويا- الله يرحمه- الباش مهندس أحمد الطحاوي.

أعاد نائل سؤاله عن مالك الأرض المُحدد موقعها، فأجابه ناجي بتلقائيةٍ أنها مملوكة لعمه عطوة، ولكنها خالية من البيوت عكس ادعاء محضر الشرطة، ولا يوجد بجانب المستوصف أي منشآت؛ فقط حظيرة للماشية. ضحك نائل قائلًا:

- زريبة مواشي؟!.. يعني إمبارح كانت مكان لمزاج عمك وإنهاردة بقت زريبة بقدرة قادر؟

قـال ناجـي بنفـس النـبرة الهادئـة إن المـكان عـلى هـذه الحالـة منـذ زمـن، عـرض عليـه أن يسـأل أهـل طحـا، فقـال عطـوة مؤَمِّنًـا عـلى حديـث ابـن أخيـه:

- وعـلى فكـرة يـا بيـه فيـه عسـاكر كتـير بـرّه بلدياتنـا ممكـن أناديهم وتسـألهم بنفسـك.

قـال نائـل وهـو يُحـاول أن يُـداري غضبـه ليفسـدَ عـلى ناجـي لـذة الانتصـار:

- لسَّـه شـاطر زي مـا أنـت، كنـت دايمًـا أول واحـد يطلـع مـن لجنـة الامتحان..

أكمـل حديثـه مُشـيرًا برأسـه نحـو عطـوة، دميـم الوجـه ذو الشـارب السـميك والقامـة المتوسـطة والبطـن المنتفـخ، أنـه لم يكـن يتصـوَّر أن يقـوده ذكاؤه للتحالـف مـع شـيطان كهـذا.. نظـر ناجـي إلى اللافتـة المكتـوب عليهـا اسـم "نائـل" مـرةً أخـرى ودعـا عـلى مـن كان السـبب في خروجـه. وطلـب مـن نائـل الإفـراج عـن عطـوة بضـمان محـل إقامتـه.

صمَّـم ناجـي عـلى أن يصطحـب عمـه في سـيارته الخاصـة، أشـار لسـائق السـيارة المرسـيدس الخاصـة بعطـوة كي يسـبقهما إلى طحـا، لم يفهـم ناجـي سـبب إصرار عمـه عـلى اقتنـاء السـيارات المرسـيدس ذات الطـراز العتيـق. خيَّـم الصمـتُ عـلى سـيارة ناجـي إلى أنْ كـسر عطـوة حاجـز الصمـت؛ فسـأله عـن

مـدى انتشـار خـبر القبـض عليـه بـين أهـل القريـة، طمأنـه ناجـي قائـلًا:

- بلدياتنـا العسـاكر قبضـوا كويـس، والرجالـة الـلي جـم هـدُّوا البيـت ونقلـوا البهايـم والجِـلَّة مـا يعرفـوش حاجـة.. بـس حسـابهم تقيـل أوي.

شـكر عطـوة فكـرة ناجـي الشـيطانية التـي تـم تنفيذُهـا بمنتهـى السرعـة والإتقـان، أخـرج عطـوة لفافـة طبـاق رخيصـة الثمـن، أبـدى ناجـي اشـمئزازه مـن رائحـة السـجائر الرديئـة، أخـرج هاتفـه ليُخـبر عطـوة أن هنـاك مشـكلةً مـع شـكري قائـلًا:

- أول مـا صحيـت لقيـت رسـالة مبعوتـالي مـن يحيـى بيقـول لي إن شـكري تعـب عشـان خـد جرعـة بـودرة زيـادة.. تحـب نـروح نطّمـن عليـه؟

نظـر عطـوة أمامـه دون أن يبـدو عليـه أدنى تأثـر، أخـبر ناجـي أن اليـوم الخميـس؛ الاجتـماع الأسـبوعي للعائلـة.. وإنْ تخلَّـف عـن ذلـك المجلـس قـد يشـكُّ أحدهـم في أمـره ويعـرف بأمـر قضيـة الآداب؛ الأمـر الـذي قـد يـؤدي لنزولـه مـن فـوق عـرش عموديـة طحـا.

ردَّ ناجي باستغرابٍ:

- بس باين من كلام يحيى إن حالة شكري...

قاطعه عطوة بحزمٍ دون أن ينظر نحوه:

- دوس بنزيــن يــا ناجــي اللــه يــرضى عليــك.. مــش عايــز أتأخــر.

حـاول ناجـي تغيـير دفـة الحديـث؛ فسـأل عـن موعـد رجوع حسـن مـن السـفر.. أجابـه عطـوة أن آخـر مكالمـة أجراهـا مـع ولـده أخـبره فيهـا بانتهـاء الصفقـة التـي كان يتفـق عليهـا في السـعودية، وأنـه سـيعود بعـد عطلـةٍ بحريـةٍ قصـيرةٍ سـيقضيها مـع أصدقائـه.. حـين أتى ذكـرُ السّعودية قـال ناجـي مُسـتدركًا:

- صحيح عملت إيه في موضوع الواد سيد؟!

سأله عطوة:

- سيد مين؟

أجاب ناجي بفزعٍ:

- ابـن فـاروق السـبَّاك.. اللـي جالـك مجلـس العيلـة الأسـبوع الــلي فــات عشــان ابنــه عايــز يرجــع مــن الســعودية والكفيــل معسِّــفه...

أشـار عطـوة بيـده لناجـي علامـة عـلى أنـه قـد تذكَّـر، قـال بلهجـةٍ لم تخـلُ مـن فخـرٍ طفـولي:

- اتصلـت لـه بممـدوح باشـا صاحبـي، ولمـا عـرف إنـه بلديـاتي خـلّى واحـد مـن رجالتـه يخلّـص لـه موضوعـه مـع الكفيـل، وحجـز لـه العـودة في العبَّـارة بتاعتـه.

سأل ناجي عن مدى أمان عودته في هذه العبَّارة، ليرد عطوة ضاحكًا:

- طبعًا.. دي عبّارة السلام ٩٨؛ بقى لها سنين في البحر وما حصلهاش حاجة.

***

أمسيتُ جالسًا بجوار فراش شكري، منتظرًا أن يسترد وعيه، حاولتُ استيعاب معظم أحداث البارحة؛ فحين خرَّ شكري مغشيًا عليه.. سقط في نفس الوقت محمد ابن زوجته الذي لم يتجاوز عمره الأعوام الخمسة، أفقت من سكرتي بصعوبةٍ وأمرتُ خالد أن يحمل معي جسد شكري، استوقفت سيارة أجرة نادمًا على خروجي من البيت مترجلًا دون سيارتي كعادتي مؤخرًا.

تم الأمرُ سريعًا؛ أمليتُ على السائق عنوانًا غير بعيدٍ لمصحة نفسية متخصصة في علاج الإدمان بالمقطم، ودَّعني خالد عند باب المصحة مُعتذرًا عن عدم الدخول، وترك لي رقم هاتفه..

عرفت لاحقًا من الدكتور نجيب السعدني مدير المصحة تفاصيل ما تم لإنقاذ حياة ابن عمي؛ فعلى الفور بدأ إسعافه، وكانت المصحة مُجهزة طبيًا لمثل هذه الحالات.. فأعطاه الطبيبُ جرعة Naloxone المضاد لسُمِّية الهيروين، وتم وضعُه تحت الملاحظة.. استحييتُ أن أدعو له الله

بنفَسٍ مفعمٍ بالكحول.. استمرَّ انتظاري لساعاتٍ تخللها نومٌ مضطربٌ وكوابيس شتى، حتى استيقظ ابن عمي ببصرٍ زائغٍ ونصف وعي، سأل عن محمد أول ما نطق، فأجبته بلهجةٍ مطمئنةٍ:

ـ ما تقلقش عليه ده قرد.. الدكتور جاركوا ده لسّه قافل معايا دلوقتي، قال لي إنه خلَّاه يشرب مية مالحة عشان يعمل له تفريغ معدة، وإداله شوية مُسكنات تُقلل وجع البطن من الترجيع، وعلَّق له محلول برد.

نظر شكري حوله، وهمس لي متضايقًا أن المكان يبدو فخمًا؛ فلن نقدر على تكاليفه.. أجبته مُطَمْئِنًا أن هذه الغرفة كانت محجوزةً ومُجهزةً خصيصًا له منذ فترةٍ؛ تمهيدًا لعلاجه بدايةً من الأسبوع القادم، وأن القائمين على المكان تعجَّبوا من قدومه مبكرًا بيومين، سألني عن مصدر المال الذي دفعته للمصحة، فأجبته بصدقٍ أن أخاه حسن قد تكفَّل بكافة مصاريف علاجه قبل أن يُسافر. تركتُ شكري يستريح؛ فلديه معركةٌ شرسةٌ ضد إدمانه لمسحوقٍ لعينٍ، توجَّهت إلى مكتب مدير المصحة كما طلب مني الأخير بعد أن أطمئن على ابن عمي، صافحته شاكرًا فأعرب عن امتنانه وأنه لم يقم إلا بعمله، ثم أضاف:

ـ بعدين ده أنت متوصي عليك من أمجد عمَّار.

أخبرته بحسرةٍ أن شكري لم يكن هكذا في الماضي.. ردَّ أن المدمن بشكلٍ عام يلجأ للمُخدر بحثًا عن احتياجٍ معينٍ لم يجده فيمن حوله.. سألته عن نسبة الأمل في شفائه وتعافيه تمامًا من هذا البلاء الأبيض.. أجاب بنبرةٍ هادئةٍ:

- إحنا لسّه مستنيين تحاليله عشان نقيِّم الحالة صح.. بس بخبرتي كده أظن إنه هايقدر يرجع لو انعزل عن كل اللي حواليه، ويُستحسن إنه لما يخرج يبدأ حياة جديدة تمامًا.

تطرَّق دكتور نجيب السعدني إلى أزمة علاج المدمنين في مصر، وأن معظم المراكز تتعامل مع العلاج بشكلٍ غير مختص كأنه وسيلةٌ لكسب المال، ثم قال مُستدركًا:

- أنت قولت له إيه عن محمد ابن مراته؟!

- قولت له اللي حضرتك فهِّمته ليَّا بالظبط.

اقترب مني وحذَّرني بلهجةٍ جادةٍ:

- طب كويس عشان متأثرش على خطة التعافي.. لو عرف إن الولد مات بسببه ممكن تحصل له انتكاسة.

***

تُعتبر عائلة الطحاوي المُسيطرة على قرية (طحا- الطريق) من حيث الأملاك والنفوذ وتصدُّر كافة المشاهد

الاجتماعيـة والسياسـية.. ينعقـد مجلسـهم يـوم الخميـس مـن كل أسـبوع بحضـور أبـرز شـخصيات العائلـة؛ بدايـةً مـن العمدة عطـوة الطحـاوي الـذي يسـتضيفُ المجلـس العائـلي في دوَّاره، مـرورًا بشـيخ البلـد الـذي لا ينـوب عنـه: ولـده الأصغـر حسـين الـذي لا يُخفـي رغبتـه في تـولي العمودية، خاصـةً بعـد أن حصل أخـوه حسـن عـلى مقعـد في البرلمـان المـصري، وبعـد أن أصبـح أوسـطهما شـكري منبـوذًا لا يـبرح القاهـرة.

قـد تحـدث بعـض المنازعـات بـين الطحاويـة الناجمـة عـن الأحقـاد والاختـلاف الـذي يُشـبه الهـرم الطبقـي أيـام الفراعنـة: يتربَّـع فـوق قمتـه عطـوة وتحته أبنـاؤه وأبنـاء إخوته، ويتوسـطه أبنـاء عمومتـه مثـل أسـتاذ فرحـات الطحـاوي.. نـادرًا مـا تخـرج أحاديـث المجلـس عـن دوَّار عطـوة إلا إذا سرَّب أخبارهـا أحـد الخفـر، والـذي سرعـان مـا يتلقـى جـزاء فعلتـه عـلى يـد شـيخ الخفـر وزعيمهـم: رجـب الطحـاوي، وهـو ينتمـي إلى سـفح الهرم الطحـاوي حيـث الطبقـة غـير الميسـورة مـن العائلـة. يتوسـط المقاعـد الشـيخ حافـظ عـزازي مُحتـلًا موقعًـا ملحوظًـا، وهـو الوحيـد- تقريبًـا- في ذلـك المجلـس الـذي لا ينتمـي إلى عائلـة الطحـاوي؛ يـأتي أحيانًـا لتـلاوة القـرآن بغـرض مباركـة الاجتـماع..

أمـا عـن الفـرد الآخـر الـذي لا ينتمـي إلى عائلـة الطحـاوي في هـذا المجلـس فهـو رزق المعتـوه؛ يتجـوَّل في القريـة متسـوِّلًا بمشـيته الغريبـة ولسـانه الثقيـل.. يعتمـد في كسـب رزقـه عـلى

الظهــور بجلســات الطحاويــة؛ ليخدمهــم ويُراعــي طلباتهــم، يقتــات أيضًــا عــلى مواســم زيــارة المقابــر التــي يقدِّســها أهــل القــرى عمومًــا.. يُطيــل بقــاءه هنــاك علَّــه يعــود بالقليــل مــن المعجنــات والفواكــه أو يظفــر بالقــدر اليســير مــن العمــلات النقديــة. انقضــت تــلاوة الشــيخ عــزازي التــي تلتهــا بعــض النقاشــات الفرعيــة.. طــرح أحــدُ الجالســين عــلى عطــوة ســؤالًا شــغل بــال الكثــير مــن أفــراد العائلــة: ســأله عــن الســبب الحقيقــي لاســتقالته مــن مجلــس الشــعب.. ضحــك عطــوة وقــال أثنــاء مداعبتــه لشــاربه الســميك أنــه لا يجــد الوقــت الــكافي لخدمــة أهــل طحــا، فكيــف ســيخدم أهــل الدائــرة جميعًــا. قوبِلَ بعبــارات المديــح والريــاء المزيفــة، فأتــمَّ حديثــه بأهميــة تســليم زمــام الأمــور للشــباب، ووجــوب تســليم الرايــة لمــن هــم أجــدر، ضرب مثــلًا عــلى هــذا بمــا يُخطــط لــه رئيــس الجمهوريــة لفعلــه: أن يهــب مقاليــد الحُكــم لابنــه الأصغــر. عقَّــب فرحــات الــذي قلَّــما يُــدلي برأيــه مُتســائلًا عــن موقــف الشــعب.. قــال ناجــي بلهجــةٍ حــاول أن يجعلهــا مُحايــدة دون أن يغضــب عطــوة:

- النــاس مهــما بانــت ســاكتة مســيرها تقــول لأ.. مــا يغركــش الجهــل والأميــة والعشــوائيات والقــرف الــلي بيتحطلنــا في الأكل والــشرب ده.

بــدأ فرحــات يهتــم بالنقــاش؛ فتكلَّــم مــن وجهــة نظــره كمعلــم عــن الجهــل الــذي انتــشر في البــلاد، تطــرَّق في حديثــه

عن أسبابه كالفقر والأمية.. وغيرها من العوامل التي تهدم بسببها الوعي الشعبي. عقَّب عطوة مبررًا أن السيدة الأولى تهتم بإقامة فصول لمحو الأمية، ليردَّ فرحات مصححًا أن محو الجهل أهم، عقَّب ناجي قائلًا:

- فيه حاجة أخطر على الشعب من كل اللي قولته ده يا أستاذ فرحات: المعارضة المقنعة.. الأحزاب والجرايد اللي بتمثل دور المعارضة؛ طول ما هي شغالة وسابكة دورها صح الشعب عمره ما هيفكر يعمل أي حراك سياسي، أصل أنت كمواطن غلبان شايل همّ بيتك وعيالك لمّا تشوف فلان بيزعق في وزير على التلفزيون.. ولا تقرا مقالة لعِلَّان بيعارض فيها النظام.. ولا تسمع عن ترتان اللي اعتقلوه بتهمة قلب النظام أكيد هتنام مرتاح وأنت متخيل إن فيه حد ممكن يحارب بدالك.

بدا الضيقُ على عطوة، قال لناجي إن السياسة أصلًا "فن التنازل"، وأصدر أمرًا بإنهاء الحديث في هذا الشأن تجنبًا لتسرُّبه الذي قد يُؤدي لمصائب قد تُطيح باسم العائلة المعروف انتماؤها للحزب الحاكم.

قاطع حديثهم صوت هاتف عطوة الذي قال بفخرٍ:

- دي مكالمة دولي من السعودية.. جهزوا طلباتكوا بسرعة عشان حسن يجيبها لكوا وهو جاي.

ردَّ على الهاتف مُبادرًا بالتحية قائلًا:

ـ وحشتنا يا سيادة النائب..

ولكــن سرعــان مــا تبدلــت ملامحــه، واختفــت البســمة المصطنعــة مــن وجهــه، وســقط مغشــيًّا عليــه.. التقــط ناجــي الهاتــف وأنهــى المكالمــة شــاكرًا مُحدثــه بكلــماتٍ معــدودةٍ.. التفــت إلى الطحاويــة قائــلًا:

ـ البقاء لله.. حسن مات غرقان.

٣

السابقون واللاحقون

الإثنين 6 فبراير 2006

أبلغني ناجي بفاجعة غرق حسن مساء أمس، بعد أن أخطره موظف الفندق آسفًا بالعثور على جثمانه ضمن ضحايا الرحلة البحرية التي نظمها الفندق، أخبره أيضًا أن حسن ترك لديهم رقم عطوة للاتصال به في حالات الطوارئ. خشيتُ أن أخبر شكري فأفسد رحلته الشاقة للتعافي من الإدمان. لم يتم إعلان الخبر لأهل "طحا" حتى أنهى ناجي إجراءات استلام الجثة التي وصلت القرية مُكَفنة، تعرَّف عليها عطوة برغم ما أخبرني به ناجي عن الانتفاخ الذي حلَّ بها جرَّاء ابتلاع كميات هائلة من المياه، وخروج العينين الفزعتين من محجريْهما، وبشرته التي صارت شديدة الزرقة.

وقفت مُنتظرًا وسط الكثير من أهل البلد. عرفتُ بعد ذلك أن بعضهم قد تخلَّف عن جنازة حسن؛ فقد ذهبوا لاستلام جثمان سيد ابن فاروق السبَّاك الذي مات أيضًا جرَّاء غرق العبَّارة في يومٍ مفزعٍ عصيبٍ لن ينساه أهل القرية.

لم تكد تظهر سيارة عطوة وخلفها سيارة الإسعاف الحاملة لجثمان حسن حتى ألجم الصمت أفواه الجميع؛ حالة من عدم التصديق اجتاحتني مصحوبةً برجفةٍ عنيفةٍ ضربت كياني، كان حسن أقرب أفراد أسرته لقلبي.

أوصلتُ زوجتي مي إلى بيت العائلة الكبير حيث يُقام عزاء السيدات، وحيث تقطن جدتي (فرحة).. كان ذلك البيت فيما سبق دوَّار جدي رفعت أثناء تقلُّده منصب العمدة، ولكن بعد استيلاء عطوة على المنصب ترك أمه وحيدة وشيَّد بيتًا مجاورًا لبيت العائلة؛ مسكنًا فخمًا يليق بثروته التي تضاعفت في وقتٍ قصيرٍ.. لم أستوعب أبدًا جدوى منصب العمدة في عصرنا الحالي. شرح لي ناجي قديمًا أن عطوة ينهب الأتاوى سِرًّا من جلسات الصُلْح التي يتقاضى قبل انعقادها أموالًا من الطرفين؛ فيحكم لصالح من يدفع أكثر. لم أميِّز وجوه الكثيرين من أفراد العائلة، ولا أطمح للتعارف عليهم.. فذهبت للوقوف بجوار أخي الذي همس في أذني سائلًا عن حال شكري وتأثير وفاة حسن

عليـه.. طمأنتـه مؤكـدًا شـكري لم يعـرف مـن الأسـاس.. نظـر في سـاعته قائـلًا إن موعـد أذان الظهـر قـد اقـترب.. بعـد دقائـق خـرج حسـن مـن منـزل فرحـات محمـولًا داخـل نعشـه الـذي لم يُغطـى؛ ليكشـف عـن كفـن أبيـض مُنتفـخ، تمزقـت طبلـة أذني وتحطمـت أعصـابي كليًّـا حـين سـمعت صـوت النسـاء الصـارخ بالولولـة. انفصلـت عـن العـالم كليًّـا وسرحـت في خواطـري.. لم أكـره شـيئًا في العـالم مثـل كرهـي لعويـل النسـاء؛ لا يفعلـن هـذا إلا بدافـع المجاملـة وتأديـة الواجـب.. ألا لعنـة اللـه عـلى بنـات حـواء!

لا أظـن أن دمعـةً أخـرى سـتفلتُ مـن عينـيَّ بعـد مـمات أبي وأمـي، لم أتوقـف عـن البـكاء بعـد الحادثـة التـي رحـلا فيهـا لفـترةٍ طويلـةٍ.. حتـى ذبلـت عينـاي وجفَّـت دمـوع قلبـي.. لم أكـن يومًـا عـلى عَلاقـةٍ جيـدةٍ بأفـراد عائلتـي الذيـن لم يتصـدوا لطغيـان عطـوة وتناسـوا مـا فعلـه أبي معهـم، لم أغفـر لأيٍّ منهـم خذلانـه معـي أنـا وناجـي سـوى جـدي رفعـت؛ فقـد اعتـزل الحيـاة قبـل وفـاة والـدي دون سـببٍ واضـحٍ.. بعـد أن كتـب أملاكـه لولديْـه وابنتـه الوحيـدة، وبعـد أن تـرك منصبـه كعُمـدة لعطـوة؛ بحُكـم كونـه أكـبر أبنائـه.

سرت بجـوار فرحـات دون أن نتبـادل الكثـير مـن الكلـمات.. لم أسـتطع أن أكـره هـذا الكهـل الأزهـري بوجهـه الأحمـر الممتلـئ وقامتـه القصـيرة التـي تجعلـه أقـرب للطفـل الكبـير..

لا أنكـر أيضًـا فضلـه عـليَّ في حفـظ أجـزاء مـن القـرآن، وفي تعليمـي اللغـة العربيـة بشـكلٍ سـليمٍ، الأمـر الـذي فعلـه مـع شـكري حتـى أورثـه مهنـة التدريـس. لمحـت غرابًـا فـوق إحـدى الأشـجار المُحيطـة بنـا، أخـبرت فرحـات أن هـذه أول مـرة أرى عشًّـا للغربـان في المدافـن فرفـع رأسـه أعـلى الشـجرة ليُخـبرني أنـه لا يـراه!.. تكلَّـم كثـيرًا عـن نظـره الـذي لم يعـد كـما كان، فلـم أعبـأ بحديثـه.

تحـرَّك حاملـو النعـش سريعًـا، عمـلًا بمعتقـد مـوروث عـن سرعـة النعـش التـي تتناسـب مـع كـون الميـت صالحًـا في دنيـاه؛ فتجدهــم يمتدحــون تعجُّلهــم في المســير متشــدقين بقولهــم: "النعـش كان طايـر".. أدركـتُ اقترابنـا مـن المقابـر حـين أصبـح حـذائي رمـادي اللـون مـن كـثرة الأتربـة، أشـار إليَّ فرحـات بـأن أجـدَّ السـير حتـى نشـهدَ الدفـن ففعلـت مـترددًا. دخلنـا حـوش العائلـة المكتـظ بصعوبـةٍ، شـعرت بانقبـاضٍ في قلبـي حاولـتُ إخفـاءه حتـى بلغنـا التربـة التـي سـيُدفن فيهـا حسـن.. وقـف الشـيخ حافـظ عـزازي فـوق صخـرةٍ عاليـةٍ في ركـن الحـوش، خطـب في المشـيعين بصـوتٍ عـالٍ ليُهـون عليهـم دقائـق الدفـن الطويلــة، تــضرَّع بالكثــير مــن الأدعيــة لــروح حســن حتــى يرددهـا النـاس خلفـه، تحـدث عـن أول أيـام القـبر ومـا يمكـن أن يشـفع للعبـد حينهـا، واحتسـب حسـن مـن الشـهداء لوفاتـه غريقًـا.. لم أتحمـل كلامـه ولا الموقـف برمتـه، كـدتُ أنسـحب لـولا يـد فرحـات المتشـبثة بسـاعدي.

شـمَّر سـلامة "الـتُرَبي" جلبابـه عـن سـاعديْه كاشـفًا عـن بعـض الوشـوم الخـضراء، والتـي تـشي بمـاضٍ غـير سَـوي.. فتـح المقـبرة ليـزداد إعيـائي، وطلـب مـن عطـوة النـزول معـه فتبعـه باكيًـا، تطلَّـب الأمـرُ مرافقـين لعطـوة حتـى لا تنهـارَ أعصابُـه تحــت الأرض.. وكأن الأرض انشــقت لتبتلــع حســين وناجــي فلـم يبـقَ مـن الأقربـين سـواي أنـا وفرحـات.. أشـار لي فرحـات بالنـزول معـه ليندهـشَ بـردة فعـلي حـين صحـتُ فيـه رافضًـا النـزول كالممسـوس، تجنَّـب فرحـات ثـورتي ونـزل مـع عطـوة. انتهـى الأمـرُ سريعًـا وسـط دعـوات عـزازي، وبـكاء صامـت مـن الأقربـين، ونـواح صـادر مـن حناجـر النسـوة الـلاتي تتبعـن الجنـازة، ونوبـة مـن الهذيـان غـير المفهـوم المصحوبـة ببـكاء شـديدٍ أصابـت رزق المعتـوه؛ فلـم يشـهد حسـن إلا رحيـمًا بشوشًـا، ولم يـرَ منـه إلا معاملـة كريمـة، عكـس أهـل القريـة- وخاصـةً أطفالهـا.

ألهيـتُ نفـسي عـما يحـدث حتـى انتهـى سـلامة اللحـاد مـن عملـه سريعًـا لينفـضَّ الجمـعُ وهـم يترحمـون عـلى فقيدهـم.. خـرج عطـوة مـن تحـت الأرض مُسـتندًا عـلى فرحـات الـذي اصطحبـه بعيـدًا، ناولنـي قِفـل الحـوش حتـى أعطيـه لسـلامة لإغـلاق بوابتـه بعـد أن ينتهـي مـن غلـق اللحـد عـلى جسـد حسـن.. أشـار سـلامة بعـد أن خـرج مـن اللحـد إلى رزق كي يُسـاعده في وضـع الأسـمنت عـلى حـوافِّ التربـة لإحـكام غلقهـا..

هــدأت لوعــةُ رزق قليــلًا، وقــال بلهجتــهِ التائهــةِ جملــةً لم يســمعها ســواي:

- مـا تخلصـش الأسـمنت كلـه يا عـم سـلامة.. تـرب الطحاوية هاتتفتـح كتير السـنة دي!

***

تعمَّـدت مـي تجاهُـل قريبـات زوجهـا الـلاتي صوَّبـن نحوهـا الكثـير مـن النظـرات والهمسـات، اعتـادت عـلى تصرفاتهـن المزعجـة وتعليقاتهـن التـي لا تنتهـي حـول ملابسـها وشَـعْرها المكشـوف؛ فقابلتهـن بوجـهٍ جامـدٍ ولسـانٍ لا ينطـقُ إلا بالغمغـمات. مـرَّ يحيـى سريعًـا ليطمـئن عليهـا وعـلى جدتـه فرحـة، ولينظـف ملابسـه اسـتعدادًا للعـزاء الـذي سـيُقام ليـلًا. لاحظـت فرحـة الضيـق المرتسـم عـلى ملامـح مـي فاقتربـت منهـا مُربتـةً عـلى كتفهـا دون أن تتحـدث، تعجبـت مـي حـين عرفتهـا فرحـة وتذكـرت اسـمها برغـم هرمهـا.. لمَحَـت نرجـس ابنـة عمـة يحيـى قادمـة نحـو فرحـة بوجـهٍ مُنهـكٍ مُتعـرقٍ وبعينـيْن حمراويْـن، وسـألتها بلهجـةٍ روتينيـةٍ:

- إنتي كويسة يا ستي؟

ربتـت فرحـة عـلى كتـف مـي مـرة أخـرى وقالـت لنرجـس دون أن تنظـر لهـا:

- طول ما ريحة يحيى جنبي أبقى كويسة.

نظـرت نرجـس لمـي باحتقـارٍ وقالـت لفرحـة بلهجـةٍ حاولـت أن تجعلهـا حنونـةً:

- الأغـراب لســه مــا وصلــوش.. تحبــي تريِّحــي فــوق لحــدّ العشــا؟

سألتها فرحة:

- إنتي مين؟

ردَّت نرجـس بضجـرٍ وبصـوتٍ حاولـت أن تجعلـه خفيضًـا أنهــا ابنــة بنتهــا، فــردَّت فرحــة بعــد أن مصمصــت شــفتيْها بحــزنٍ:

- اللــه يرحمهــا بقــى.. هــي العيلــة دي كــده؛ مكتــوب عــلى كبيرهــا يعيــش لحــدِّ مــا يشــوف خلفتــه في الــتراب.

- أمي جوه مع حريم العيلة بتجهِّز الأكل.

- أمال ده عزا مين؟

قالت نرجس وهي تُحاول أن تكتم دموعَها:

- حسن ابن عطوة ابنك.

- اللــه يرحمــه، قــولي للنســوان يشــهِّلوا.. الفقهــا زمانهــم جايــين مــن الــتُرَب، ودول لــو ماكلــوش ممكــن يفضحونــا.

قالت مي بفضولٍ مُوجهةً حديثها إلى فرحة:

- يعني إيه فقها يا تيتة؟

ردَّت نرجس باستهجانٍ:

- دول الشيوخ اللي بيقروا في الترب على روح الميت، بييجوا في المياتم ياكلوا بعد ما يقروا على الميت بعد الدفنة..

هزَّت مي رأسها بفهم، وقد تذكرت هؤلاء الأفراد الذين رأتهم حين اصطحبها يحيى في الذكرى السنوية لوالده.. اشمأزَّت من منظرهم وجلوسهم القرفصاء أمام شواهد القبور، وتسوُّلهم بآيات القرآن.. قالت نرجس مُحدثةً مي وهي تهم بالعودة إلى المطبخ:

- مش هتقومي تساعدينا في المطبخ يا أبلة مي؟

كادت مي أن تجيب بالرفض؛ فهي لا تؤمن بضرورة إعداد طعام الوضيمة، الذي عادةً ما يكون رديء الطعم غير مستطابٍ.. ولكن فرحة وبخَّت نرجس نيابةً عنها قائلةً بلهجةٍ قاسيةٍ:

- مرات يحيى مش زي باقي النسوان.

توجَّهت نرجس إلى المطبخ وهي تصيحُ ببعض العبارات غير المفهومة.. لم يبدُ على فرحة التأثر، ونظرت لمي قائلةً بوهنٍ:

- مين البت اللي بتزعق دي؟

***

طلب عطوة من أخي ناجي الإشراف بنفسه على إقامة صوان العزاء الذي كلَّفه الكثير من المال، فوقف الأخير وسط الخفر مُوجهًا، حرص على التعديل من وضع ملابسه بين الحين والآخر؛ كان يُجيد الاعتناء بمظهره على عكسي.. أشار ناجي إليَّ كي أنزل برأسي قليلًا، همس في أذني مُتسائلًا عمَّا منعني من إحضار بدلة رسمية معي في السيارة.. أجبته بضيقٍ أنني لا أحب التجمُّل خاصةً في المناسبات الحزينة.. شرح لي- وهو يُطالع جزمتي المتسخة وملابسي التي لم أنجح في ضبط هندامها- عدم وجود تعارضٍ بين الحزن على الفقيد وبين استغلال مناسبة العزاء لتكوين علاقات داخل صوانه؛ فالكثيرُ من الشخصيات المهمة ستأتي مجاملةً للعائلة.. عقَّبتُ باستنكارٍ أن هذه الشخصيات "المهمة" مجرد حفنةٍ من الجُناة؛ تكتَّموا على أزمة العبَّارة حتى لا يقلبوا الرأي العام أكثر على صديقهم ممدوح مالك العبَّارة الذي هرب خارج البلاد. برَّر ناجي صمتهم على أنه "أوامر عُليا"؛ فقد حُظِر نَشْر أي تفاصيل تخصُّ الحادثة.. باستثناء جريدة صغيرة؛ انفردت بذكر كيفية الغرق وعدد دقيق للضحايا.. بعد صمتٍ قصيرٍ سألت ناجي عما سيفعل عطوة ليأتي بحق سيد.. ردَّ ناجي وهو يهز كتفيْه حائرًا أن عطوة خسر الكثير بموت حسن حتى أصبح لا يملك من أمره شيئًا حتى يملك لغيره؛ فهو مجرد ترسٍ صغيرٍ في آلةٍ متوحشةٍ لا

تتوقـف عـن طحـن كل مـا هـو قيِّـمٍ لصالـح كل مـا لـه ثمـن. وأردف قائـلًا:

- عـلى فكـرة هـو كـمان جـت لـه نفـس ″الأوامـر العُليـا″ إنـه يبلـغ عـم فـاروق مـا يشـاركش في القضيـة الـلي رفعهـا أهـل الضحايـا، ومقدامـوش حاجـة غـير إنـه ينفـذ.. قواعـد اللعبـة بقـى.
- ملعـون دي لعبـة زبالـة تخلِّيـك تطلـب مـن أب يسـكت عـلى دَم ابنـه!
- مـا أنـا كنـت معـاك في اللعبـة النضيفـة يـا عـم يحيـى.. وأديـك شـوفت الـلي حصـل: مـا اتقبلتـش في النيابـة، وعمـك كان هيـاكل ورثنـا.. وفرحـة مكانتـش هاتقـدر تقـف لـه كتـير.. أنـا فديتـك بوسـاختي.
- فرحـة هـي الـلي صمِّمـت إنـك تدخـل حقـوق وإنـك تقـرَّب مـن عمـك برغـم إنـك الصغـير..
- عشـان مـش زيـك؛ باعـرف آخـد الـلي أنـا عايـزه مـن أي حـدّ حتـى لـو مـا بحبـوش.. يعنـي مثـلًا عَمَّـك برغـم عضويتـه في البرلمـان، بـس كان السـبب في إني مـا أتعينـش في النيابـة عشـان شـغله المشـبوه.. حـدّ غـيري كان قاطعـه، بـس أنـا عرفـت أسـتفيد منـه وأعمـل مـن وراه فلـوس عُمـري مـا كنـت هاعملهـا وأنـا في القضـاء.

عاتبته بلهجةٍ لم تخلُ من حسرةٍ:

- فرحة كانت فاكرة إنها بتربِّي موسى في بيت فرعون، ما تعرفش إنك مجرد بشر.. وإنها خلقت فرعون جديد.

ردَّ ناجي بانفعال:

- فرعون يحميك ويفضل في ضهرك أحسن من فرعون ياكلك صاحي.. إنت عارف كويس إنك من غيري كنت ضِعت من زمان، وبعد ما استقلت من المدرسة اتحايلت عليك تيجي تشتغل معايا في المكتب.. اعقل كده يا يحيى وفكَّر في مصلحتك زيّ باقي العيلة.

أشحتُ برأسي مُهمهمًا بعبارات السباب، سألته عن خططه لحملة حسين الانتخابية تمهيدًا لخلافة أخيه في البرلمان.. امتعض وجهه وهزَّ رأسَه نافيًا:

- مش هايكسب.. حسين ده ابن أمه وما حدّش بيحبه، حتى عمك عطوة عارف اللي فيها وغالبًا مش هاينزلّه..

ثم أردف بلهجةٍ عمليةٍ:

أنا لو عايز أكسب المرادي هالعب مع مؤمن المتوكل بتاع الإخوان.. المصالحة حصلت خلاص ونواب كتير منهم تحت القبة، ومؤمن ده كان هيكسب في جولة الإعادة.. لولا شعبية حسن بعيدًا عن الحزب وعن اسم الطحاوي.

تنحنـح الشـيخ عـزازي في مُكـبر الصـوت ليجرِّبـه تمهيـدًا لبدايـة التـلاوة.. وقـد لاحظـت ظهـور وفـود المُعزِّيـن، مازحنـي ناجـي مُطالبًـا أن أكـف عـن البُخـل وأعزمـه عـلى الغـداء في بيتي كي أرحـم جهـازه الهضمـي مـن "أكل العُـزَّاب".. كـدتُ أضحـك كعـادتي في أي عـزاء أذهـب إليـه، أخبرتـه أننـي أخـاف عـلى صحتـه مـن طعـام زوجتـي، نصحتـه بـأن يطلـب الأصنـاف التـي يشـتهيها مـن نرجـس.. قـال ناجـي بلهجـةٍ خبيثـةٍ حـين سـمع اسـمها:

- كل مـا أزور فرحـة البـت دي تسـألني عليـك.. شـكلها لسّـه بتحبـك زي زمـان.

لم أعلـق، وسـألته عـن أحـوال فرحـة التـي لم أجلـس معهـا منـذ فـترةٍ طويلـةٍ.. ردَّ آسـفًا أنهـا لم تعـد تتذكـره بسـبب مـرض "ألزهايمـر".. تعجَّبـت مـن قولـه، وأخبرتـه أنهـا تعرَّفـت عـليَّ حـين ذهبـتُ لأنظـف ملابـسي منـذ قليـلٍ! ردَّ ناجـي:

- فرحة لو نسيت نفسها مش هاتنساك.

توقفـتْ أمامنـا سـيارةٌ سـوداء عـلى قـدرٍ مـن الفخامـة، نـزل مـن مقعدِهـا الأمامـي جُـبران كي يفتـح البـاب لأمجـد الـذي صافـح ناجـي واحتضننـي حضنًـا طويـلًا هامسًـا في أذني بكلـمات العـزاء.. شـكرتُ لـه سـعيه.. قـال بجديـةٍ وهـو يربـت عـلى ظهـري:

- تعالى بكرة الساعة عشرة أكون خلصت كل الجلسات.

أعربتُ له عن يأسي من العلاج.. فأكمل جملته بلهجةٍ هادئةٍ وهو يُنهي العناق الذي طال:

- جِبت لك الكفن.

***

لم أفهم يومًا حُب أهل طحا لتلك المراسم الجنائزية التي تبدو حزينةً من الخارج فقط، فأين العزاء في أشخاصٍ ينتهزونه مناسبةً لتكوين الصداقات وقضاء المصالح؟!.. أين القدسية في صوت المُقرئ المُدوِّي عبر مُكبرات الصوت التي تكاد تصم الآذان؟.. أين الحزنُ في ذكرياتٍ مُزيفةٍ صنعَتها هالة الموت؛ فبعد الدفن مباشرةً يكتسب الموتى قدسيةً لم يكونوا أهلًا لها، وصفاتٍ حسنةً لم يتحلوا بها يومًا.. كما تكتسي الحكاياتُ عن أفعالهم الأخيرة بقشرةٍ حزينةٍ ملحميةٍ، والتي تنتهي دومًا بالعبارة الكاذبة: "يا حبيبي كان قلبه حاسس".

يمرُّ أول أيام العزاء مريرًا على الأقربين، وفي اليوم الثاني يُفكرون في إجابة السؤال عن مصائرهم بعد حالة الوفاة؛ ليزيح العقل القلب من طريقه بعد أن قلَّت وفودُ المُعزين، وفي اليوم الثالث يتناسون الميت ويتصارعون على كل ما ترك، بعد أن أزاح الطمع كل شعورٍ آخر بداخلهم.. ومع المرور التدريجي للزمن تتحوَّل وفاة الأقربين من حادثةٍ

إلى حــدثٍ، ومــن حــدثٍ إلى رقــمٍ، ومــن رقــمٍ إلى مجــرد حالــةٍ مُبهمــة مــن الإنــكار المُنــسي.

وعــدتُ فرحــة أن أبيــت معهــا في اليــوم التــالي.. أوصلــتُ مــي لمنزلنــا في القاهــرة.. بعــد أن اغتســلت أخــبرت مــي بأننــي ســأعود إلى طحــا.. لم تُبــدِ تعجبهــا مــن تصرفــاتي كــما اعتــادت مؤخــرًا، أخبرتهــا أننــي في حاجــةٍ للحديــث مــع جــدي رفعــت، أبــدت انزعاجهــا مــن رغبتــي في النــزول إلى المقابــر ليــلًا برغــم أزمتــي الأخــيرة.

كان جــدي يعيــشُ في المســجد المجــاور للتُّــرَب برفقــة إمــام المسـجد: الشـيخ صالـح مكفـوف البـصر، عمـل لفـترة "فقـي" ممــن يتســولون بآيــات القــرآن في المقابــر.. حتــى بنــى والــدي مســجدًا بجــوار المقابــر عــلى أرضٍ كانــت مملوكــةً لــه، وأحــضر الشــيخ صالــح ليكــون إمامًــا ومشرفًــا عــلى المســجد.. كان حافظًــا لكتــاب اللــه كامــلًا مُفــسَّرًا عكــس الكثــير مــن أقرانــه، ولهــذا الســبب أحبــه جــدي واســتطاب معــشره وانعــزل معــه في ملكوتــه، لا يفعــلان شــيئًا إلا الحديــث معًــا والصــلاة. لم يعــد إقبــال المصلــين عــلى هــذا المســجد كبــيرًا بعــد أن أعــاد عطــوة ترميــم جامــع القريــة الأقــرب لبيــوت أهلهــا في إطــار حملتــه الانتخابيــة.. والــذي ســمَّاه فيــما بعــد "جامــع حســن الطحــاوي". وجــدتُ رفعــت نائمًــا عــلى المصطبــة الملاصقــة لجــدار المســجد، تركــتُ بجــواره كيسًــا مــن البلاســيتك. لم أتقبــل أبــدًا نصائــح أي

شخصٍ في هذه الحياة سواه؛ أعلم جيدًا أنه ينصحني بدافع الحب لا المزايدة ولا الوعظ. يمتلك جدي واحدةً من الأرواح الصلدة النقية؛ فلم يخدشها ابتعاد حبيب، ولم يُدنسها وفاة قريب.

دخلت لأصلي في الجامع الذي كان بابه مواربًا، سرت ببطءٍ كي لا أوقظ الشيخ صالح النائم على بساطٍ بسيطٍ في ركن المسجد.. اقشعرَّ بدني وانتصب شَعْرُه حين نظرت إلى النعش الموضوع آخر المسجد؛ كان مفتوحًا كفم تمساحٍ يُناديني، وبداخله ثلاثة أكفان من أموال التبرعات، أُعِدَّت خصيصًا لصدقات الدفن.. حاولت تجاهله وفرغت سريعًا من صلاتي، عُدت إلى رفعت محاولًا إيقاظه.. فتح عينيْه بصعوبةٍ وأطلق عليَّ فيضًا من السُّباب واللعنات لتكديري منامه.. لم يتوقَّف حتى رأى الكيس بجواره، فتحه بنهمٍ شديدٍ قائلًا:

- عارف لو كنت نسيت الكبدة ماكنتش دخَّلتك طحا.

أجبته ضاحكًا:

- عارف، بسّ مشوار الحسين ده سحلة.. ماعرفش أنا إيه غيتك في عربية الكبدة دي بالذات.

ناولني لفافةً ورقيةً من الكيس وقال:

- الراجـل ده واقـف في نفـس المـكان مـن زمـان، لمَّـا أبـوك دخـل الجامعـة أجَّـرت لـه الشـقة الـلي أخـوك ناجـي عايـش فيهـا دلوقتـي.. كنـت كل مـا أزوره لازم آكل مـن عنـد الراجـل ده..

سـألت بفضـولٍ عن سرِّ تسـمية الرجـل بلقـب "المزاجنجي".. أجـاب بعـد صمـتٍ لم يـدم طويلًا:

- أصـل طلـع عليـه إشـاعة مـن زمـان إنـه بيطحـن الحشـيش ويحطّـه عـلى خلطـة الكبـدة، فالنـاس كل مـا تـاكل عنـده تتكيـف وتـاكل أكـتر.

قلتُ ضاحكًا وأنا أفتحُ اللفافة:

- المشكلة إننا مش عارفين دي كبدة إيه..

علَّق رفعت قائلًا:

- المفروض نسأل دي كبدة مين أصلًا!

انفجـرت ضاحـكًا، فلكـزني رفعـت لأخفـض صـوتي. دام صمتنـا لدقائـق حتـى فـرغ مـن طعامـه، سـألني بلهجـةٍ جـادةٍ عـن أخـلاق حسـن قبـل مماتـه، وعـن خاتمتـه.. أجبتـه بصـدقٍ:

- حسـن كان بيعمـل الـلي فرحـة استـنته مـن ناجـي: حـاول ينضّـف وسـاخة أبـوه عـلى قـدّ مـا يقـدر.

سـألني بقلـقٍ عـن أحـوال فرحـة.. طلبـت منـه أن يدعـو لهـا؛ فقـد ثقلـت حقيبـة الأدويـة الخاصـة بهـا.. حاولـتُ تغيـير الموضـوع فمازحتـه قائـلًا:

- الـلي يشـوفك ويشـوفها مـا يقولـش إنهـا أصغـر منـك بخمـس سـنين.. ده إنـت يـا مفـتري لحـد دلوقتـي بتغلبنـي في الريسـت.

نطـق بعبـارة التكبـير باسـطًا أصابعـه أمـام وجهـي ناكـرًا قوتـه، وسـاخرًا مـن ضعـف جسـدي الـذي أصابنـي باكـرًا.. سـألته عـن سـبب إغلاقـه المسـجد واختفائـه سـاعة مـرور جنـازة حسـن.. فأجابنـي بهمهمـةٍ لم أفهمهـا، أخـبرني أنـه لا يفتقـد مـن حياتـه السـابقة إلا فرحـة، سرح في ذكرياتـه معهـا قائـلًا:

- عـارف يـا واد يـا يحيـى.. فرحـة وهـي صغـيرة كانـت سـمرة ورفيعـة وطويلـة ومكانـش حـدّ مـن العيلـة عايـز يتجوِّزهـا.. لحـدٍّ مـا أمـي قالـت لي عليهـا.

خبطته على فخذه مُداعبًا، وقلتُ:

- وأنـت بقـى حبِّيتهـا بجـدّ وشـوفت جمالهـا الـلي جـوّة؟.. يـا أبـو الرفـاع يـا رومانـسي!

ردَّ ضاحكًا:

- لأ.. بـس مكانـش فيـه حـدّ أطـول منهـا في رجالـة العيلـة غـيري.

ضحكت مرةً أخرى بصوتٍ حاولت أن أجعله خفيضًا ففشلت.. سألني عن موعد عودتي للعمل بالمدرسة.. أبديتُ رفضي لتلك الفكرة؛ فلم أتخرج من كلية العلوم لأعمل في مدرسةٍ ابتدائيةٍ، كما أنني لا أحب التدريس للأطفال ولا أملك صبرًا لهم.. أبدى قلقه من وضعي المادي المُعَرَّض للانهيار.. طمأنته أن إيجار الأرض وراتب مي يضمنان لنا حياةً جيدةً.. أطلق لفظًا اعتراضيًّا، وقال ناهرًا:

- إنت مش كَسيح ولا عويل عشان تكمِّل لقمتك من مراتك.. ومش فلاح يا يحيى عشان تخلي رزقك كله من أرضك.
- أبيع الأرض يعني عشان ترتاح؟
- اعملها عشان أنا وفرحة نتبرَّى منك ومن خلفتك اللي هتيجي.. وأخلِّي العيال الصغيرة يزفوك في البلد.
- اشمعنى حسين ابن عطوة بيعمل كده؟
- حسين ابن عطوة.. إنت ابن أحمد.
- تفرق يعني؟
- أنا ندمت إني خليتها تفرق.

سألته قائلًا:

- كنت بتحب أبويا أكتر؟

هـزَّ رأسَـه نافيًـا، قـصَّ علـيَّ تفضيلـه لعطـوة "البِكْـرِي" عـلى أبي، وكيـف جعـل أهـل طحـا يُنادونـه بلقـب "العُمـدة" منـذ صغـره ويتعاملـون معـه عـلى هـذا الأسـاس، أردف قائـلًا:

- وفي الوقـت الـلي دلعـي بـوَّظ عمـك وخـلَّاه مـا يحبِّـش غـير نفسـه.. أبـوك كان بيذاكـر وبيحـاول يكـون أحسـن عشـان آخـد بـالي منـه، ويـوم مـا قـال لي إنـه هايبقـى مهنـدس حبسـت نفسـي يومـين بأعيَّـط وباسـتغفر ربنـا إني فرَّقـت بينهـم.

ثم أردف وهو ينظر في عينيَّ:

- لمَّـا ربنـا يكتـب لـك رزق مـن الذريـة.. مـا تفرَّقـش بينهـم مهـما حصـل.

لم يـدرِ جـدي أنـه قـد ضرب وتـرًا حساسًـا عنـدي حـين تحـدَّث عـن الإنجـاب الـذي لم أنـل حظـي منـه. كانـت هـذه مـن المـرات القليلـة التـي يفتـح فيهـا رفعـت قلبـه لي، انتهـزت الفرصـة وسـألته عـن سـبب اعتزالـه الحيـاة باكـرًا؛ السـؤال الـذي أرَّقنـي طويـلًا دون إجابـةٍ شـافيةٍ.. سـكتَ قليـلًا ثـم أجـاب أن الحيـاة لا تطيـب لـه بعـد وفـاة أبي.. عرفـتُ أنـه يكـذب عـلى غـير عادتـه، فهـززتُ رأسي نافيًـا وصححـت لـه قائـلًا:

- أنـا كنـت صغـير بـس فاكـر كويـس.. أنـت سـايب البيـت قبـل حادثـة العربيـة الـلي أبويـا وأمـي ماتـوا فيهـا.

زفر مستسلمًا، نظر إلى السماء وقال إن هذه إرادة الله.. قلتُ له بهدوءٍ إن الله لا يُريد له- بالتأكيد- أن يعتزلَ الحياة ويقتاتَ من التسول مثل الشيخ صالح.. وبَّخني قائلًا بلهجةٍ جادةٍ:

- أنا مش عايش شحاتة.. الأكل اللي بيجيلي من الناس ده كله رد لجميلي عليهم.. أنا ياما إديتهم فلوس وأراضي لما كانت نص البلد ملكي.

- ماهه ده اللي مجنني.. حدّ يبقى عنده كل ده ويعيش في جامع زي الدراويش؟!

- إرادة ربنا يا يحيى.

- إرادة ربنا إن عطوة يفتري على أهل البلد ويلم منهم إتاوات؟!.. إرادة ربنا إن فرحة تلحقنا منه بالعافية؟!.. إرادة ربنا إنه يخلِّي ناجي يشتغل معاه وإن حسن يموت بسبب علاقاته مع ناس زبالة زيه؟.. إنت إزاي سايبه يعمل كل ده وأنت قادر تمنعه؟

نظر مباشرةً في عينيَّ، وقال بغضبٍ:

- وليه ربك سايب الشر اللي في الدنيا مع إنه على كل شيء قدير.. من غير الشر عمر الخير اللي جواك وجوه واحد زي حَسَن- الله يرحمه- ما كان هايبان!

- إنـت مـش ربنـا عشـان تحكـم.. ولسّـه قـادر ترجـع وتهـدّ المعبـد عـلى دمـاغ الـلي فيـه.

- بس مش كل اللي في المعبد يستاهلوا كده...

قاطـع حديثـه صـوتُ رنـين هاتفـي، كان المتصـل ناجـي، أجبـتُ عـلى الفـور وبعـد ثـوانٍ أنهيـتُ المكالمـة ونهضـتُ مـن مـكاني مُسرعًـا وأنـا أقـولُ لرفعـت:

- دي جارة ناجي في الحسين.. بتقول لي إنه اتخطف!

٤

خَارِجُ الصُّنْدُوقِ

انغلـق القـبرُ ببـطءٍ مُعلنًـا هيمنـة الظـلام التـام.. صرخـتُ مـن أعـماق روحـي أننـي مـا زلـت حيًّـا، ولكـن أحـدًا مـن المُشـيعين لم يسـمعني، رحلـوا جميعًـا وتركـوني أواجـه المـوت وحـدي.

لم تكـن لحظـاتي الأولى تحـت الـثرى يسـيرةً؛ بـدأت تتجسـدُ أمامـي خيـالاتٌ مُفزعـةٌ.. وكأن عقـلي يُعاقبنـي عـلى مـا فعلتـه بنفـسي؛ فبـدأ يعـرضُ أمامـي المخـاوف الكامنـة في أعـماق نفسي البشريـة. لـو كانـت لـديَّ القـدرة عـلى الحركـة لارتجفـتْ كل جزيئـات جسـدي مـن فـرط الهلـع. الآن فقـط أسـتوعب المعنى الحقيقـي للهـول الـذي يختزلـه البـشر في مواقـفَ عاديـةٍ، يعجـزُ عقـلي عــن خلـق الكلـمات التـي تصـفُ شـعوري في هــذه اللحظـات المريـرة، لا أظـن أننـي سـأعيشُ بعـد مـا رأيـت،

حتــى وإن مــدَّ اللــهُ في عمــري قليــلًا فســتتوقف حيــاتي عنــد هــذا الموقـف الـذي لـن أسـتطيعَ نسـيانَه.. أريـدُ الخـروجَ مـن هـذا اللحـد بـأي ثمـن!

***

الثلاثاء 7 فبراير 2006

صدقـتْ توقعـاتي لثـاني أيـام العـزَّاء؛ حـين انفـضَّ الجَمْـعُ ولم يُقْبِـل عـلى العـزاء الكثـيرون مـن خـارج العائلـة.. انقضـت ليلـةٌ طويلـةٌ ملأتنـي بالضجـر، ومـلأت هواتـف الطحاويـة بالأرقـام الخاصـة برجـال الأعـمال وذوي الحيثيـة ممـن أتـوا لمجاملـة عطـوة. اتصـل بي ناجـي مـن رقـمٍ غـير مُسَـجَّل لـديَّ أثنـاء توجُّهـي إلى القاهـرة بحثًـا عنـه، أخـبرني أن جارتـه قـد بالغـت في الوصـف حـين ظنَّـت أنـه اختطـف؛ أقسـم أنـه بخـير، وأنـه سـيختفي لمـدة يومـين إنجـازًا لعمـلٍ شـديد الحساسـية يخـص مُـوكِّلًا مُهـمًّا.. حاولـتُ أن أستشـف مـن كلامـه إن كان واقعًـا تحـت أي تهديـدٍ.. طمأننـي وطلـب منـي ألا أخـبرَ أحـدًا مـن العائلـة؛ فـبررت اختفـاءه ثـاني أيـام العـزاء بأنـه قـد مـرض حزنًـا عـلى ابـن عمـه. قـرَّرتُ أن أبلـغ الشرطـة والجميـع إن طـال اختفـاؤه سـاعة عـن المُهلـة التـي حدَّدهـا.

قُـدت سـيارتي متوجهًـا لزيـارة أمجـد في عيادتـه.. لمحـتُ أثنـاء مُغـادرتي للقريـة عـزاءً بسـيطًا قليـل التكاليـف خمَّنـت أنـه يخـصُّ ابـن فـاروق السـبَّاك الـذي انسـحب مـن العـالم

بنفــس الهــدوء الــذي أتى بــه، لمحــتُ أيضًــا المقهــى مُكتظًّــا بأهلها مُجتمعـين حـول التلفزيـون.. تعـددت المقاهـي والبـؤس واحـدٌ! عرفـت فيـما بعـد أنهـم كانـوا يُتابعـون مبـاراة منتخبـيْ مـصر والسـنغال.. لم أعـرف هـل أحـزن مـن قريـة لم تـراعِ حرمـة فقيديْهـا في ثـاني أيامهـما تحـت الـتراب، أم أحـزن مـن بلـدٍ كامـلٍ لم يُعلـن يومًـا واحـدًا مـن الحـداد حزنًـا عـلى فقـدان أكـثر مـن الألـف شـهيد!

حـاول المسـئولون وأد قضيـة العبَّـارة وإبعادهـا عـن العقـول بشـتى الطـرق، ونجحـوا في ذلـك بمـرور الوقـت، وبفضـل المُلهيـات الكثـيرة التـي يسـتخدمونها دائمًـا مـع النـاس جاعلـةً منهـم سـمكًا بـلا ذاكـرة...

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود؟!

***

جلسـتُ وحيـدًا في غرفـة الانتظـار مُترقبًـا دوري في الكشـف.. كان ذوق إيفلـين زوجـة أمجـد واضحًـا في كل أركان العيـادة؛ فموسـيقى ريتشـارد فاغـنر تنبعـثُ بصـوتٍ هـادئ مـن اللامـكان تاركـةً بداخـلي وقعًـا رائعًـا، ولوحـات مُقلـدة بإتقـانٍ لفرانتـس مـارك وفريدريـش عـلى الجـدران تتوسـط شـهادات أمجـد الطبيـة باللغتـين العربيـة والإنجليزيـة. حـرص جُـبران عـلى تنفيذ تعليـمات أمجـد بخفـض الإضـاءة ورش مُعطـر الجـو كل نصـف سـاعة مـع عـدم خلـق أي فرصـة لإثـارة الضوضـاء. أخـذت مـن

فـوق مكتـب جُـبران إحـدى المجـلات الخاصـة بالطـب النفـسي؛ قـرأتُ أحـد المقـالات المكتوبـة بأسـلوبٍ مُبسـطٍ عـن الفـرق بـين المـرض النفـسي والعقـلي. خـرج جُـبران مـن الحـمَّام للمـرة الثالثة خـلال نفـس السـاعة مُعتـذرًا لي عـن تأخـر أمجـد في داخـل غرفة العـلاج، لم أتعجـب طـوال فـترة علاجـي أنـه لم يسـألني عـن مـرضي؛ فقـد تعلَّـم مـن أمجـد الحـرص عـلى خصوصيـة المريـض والتعامـل معـه باحترافيـةٍ دون الحكـم عـلى أي تصرفـاتٍ تحـدث داخـل أروقـة العيـادة.. أخبرتـه مازحًـا أن يـرشَّ قليـلًا مـن مُعطر الجـو عـلى قميصـه حتـى لا يعـرف أمجـد أنـه يدخِّـن خلسـةً في دورة الميـاه، ضحـك في خجـلٍ وطلـب منـي ألا أخـبره.. سـألته عـن الكفـن بحـذرٍ فأخـبرني ألا أقلـق، فـكل شيء عـلى مـا يُـرام.

عـلى الجانـب الآخـر مـن البـاب تفـرَّس أمجـد في مظهـر المريضـة الجالسـة أمامـه؛ كانـت عـلى درجـةٍ كبـيرةٍ من الحُسـن، ترتـدي فسـتانًا زاهـيَ اللـون وصفَّفـت شَـعرها عـلى هيئـة ذيـل الحصـان، ظلّـت تتأمـل شـكله الأقـرب لنجـوم السـينما؛ ببشرتـه البيضـاء وعينيـهِ العسـليتيْن وأنفـه الدقيـق وذقنـه الـذي يقـفُ لونـهُ عـلى الحافـة بـين اللونـين البُنـي والأحمـر كأنـه مصبـوغٌ بالحِنَّـاء.. سـألت بعـد دقائـق مـن الصمـت المحـرج عـن نسـبة الأمـل في شـفائها مـن المـرض الـذي اسـتحوذ عليهـا.. ابتسـم أمجـد قائـلًا:

- مافيــش مــرض مالــوش عــلاج.. تعــرفي إني عشــان آخــد رخصـة عـلاج نفـسي بـرّه قعـدت سـنتين أتعالـج وأتحلـل نفسـيًّا.

قالت باندهاش:

ـ يعني كل الدكاترة اتعالجوا نفسيًّا؟

قـصَّ عليهـا أنَّ هـذا الأمـرَ طبيعـي خـارج مـصر، مُستشـهدًا بخضـوع كل المحللـين النفسـيين المشـهورين للتحليـل النفـسي؛ باسـتثناء سـيجموند فرويـد الـذي قطـع علاقتـه بـكارل يونـج حـين حـاول أن يُحلـل لـه أحـد أحلامـه.. سـألته بخجـلٍ:

ـ مـش فرويـد ده الـلي معظـم تحليلاتــه بـتروح لحاجـات مـش كويسـة؟

أومـأ أمجـد برأسـه دون أن يفقـد ابتسـامته، شرح لهـا أنَّ معظـم تحليـلات لفرويـد تـؤول للغريـزة الجنسـية، مؤكـدًا أنـه لا يُشـاركه نفـس المجـال؛ فشـتَّان مـا بـين المُحلـل والطبيـب النفـسي.. قالـت بحـذرٍ:

ـ هو ينفع مريضة تحب الدكتور بتاعها؟

ردَّ ضاحـكًا بخجـل أنَّ أحـد المحللـين النفسـيين مـن أصدقـاء فرويـد قـد حـدث معـه موقـفٌ مماثـلٌ؛ فمـع الوقـت تهيـأ لإحـدى حالاتـه أنهـا تُحبـه، وراودتهـا تخيـلاتٌ عـن حملهـا منـه، حتـى تركهـا واعتـزل المهنـة كليًّـا.. قاطعـت حديثـه الـذي بـدأ

يُثير مللها مصارحةً إياه بحبها له، احمرَّ وجهه حياءً وقال بهدوءٍ:

- مش غريب إنك "تُعجبي" بالدكتور بتاعك.. لأن بيكون جواكي مشاعر متخزنة تجاه القريبين منك، المشاعر دي بتطلع لمَّا الدكتور بينكُش عنها؛ سواء حُب أو كُره.

وأردف مُحذرًا بلهجةٍ جادةٍ أنه سيضطر لتحويلها لطبيبٍ نفسي آخر يثق فيه، في حالة زاد هذا الشعور عن حدِّه للدرجة التي قد تضرُّ علاجها، أو تؤذيه في حياته الشخصية. شَرَعَت في البكاء المُفاجئ بصوتٍ خفيضٍ، فنهض من مكانه وجلس مُقابلًا لها قائلًا برفقٍ:

- إنتي مش بتحبيني يا حنين؛ مشكلتك إنك مالقيتيش حدّ يعوّضك عن حنان والدك.. وقلت لك قبل كده إن سبب مرضك الرئيسي هو المشاكل اللي حصلت بين أبوكي وأمك، واللي بعدها أبوكي ساب البيت واختفى تمامًا من حياتك.

قالت وسط نحيبها الذي قلَّت حدَّته إن سنها قد تخطى العشرين، والمفترض أنها تجاوزت ذلك الصراع.. أجابها بحذرٍ:

- للأسف فيه جزء من عقلك مُتوقف عند الصراع ده ورافض يتجاوزه.. عشان كده ساعات بتلبسي وبتتصرفي

زي مـا تكـوني طفلـة عندهـا تسـع سـنين؛ وقـت حـدوث الـصراع ده في حياتـك.

ـ بس ده مش سن صغير على تحوُّل نفسي كبير زي ده؟

ـ لأ طبعًـا.. كل واحـد في سـن خمـس أو سـت سـنين تقريبًـا بياخـد early decision بيحـدد مـن خلالـه كل قراراتـه المسـتقبلية وبيخزّنهـا في عقلـه الباطـن.

ـ بس مش ممكن القرارات دي تتغير مع الزمن؟

ـ أكيـد.. التغيير بيحصـل بشـكلٍ تدريجـي مـن خـلال تجارب الحيـاة سـواء النفسـية أو العاطفيـة، ده غـير عوامـل تانيـة زي البيئـة المُحيطـة واسـتعدادك النفـسي للتغيـير ده.. المهـم دلوقتـي الجلسـة خلصـت، نتقابـل يـوم...

قاطعتـه بصرخـةٍ مُدويـة انطلقـت مـن حنجرتهـا، شرعـت بعدهـا في البـكاء ودفنـتْ وجههَـا بـين يديْهـا.

***

لم يتوقـف ناجـي عـن إطـلاق السـباب عـلى خاطفيـهِ دون أن يُبـدي مقاومـةً جسـديةً لهـم خشـية أن يتعـرض لـلأذى. حملـوه بعـد أن ربطـوا عصابـة عـلى فمـه وعينيْـه.. سـمع صراخ جارتـه الأرملـة، التـي تعيـش بمفردهـا، حـين رأتهـم يهبطـون بـه درجـات العقـار المتهالكـة.. وبعـد نصـف سـاعة أزاحـوا

غطاء عينيْه ليجد نفسه في مخزنٍ رَطب وحوله الكثير من الأسلحة.. وخمسة رجال من ذوي البنى الضخمة، والذين لم تخلُ وجوههم من ندوبٍ، قال أحدُهم:

- المعلم عيد لمَّا اتقبض عليه قال لنا ماتسيبوش أستاذ ناجي غير لما يطلَّعني.

فكَّ آخر قيوده ولثام عينيْه.. عدَّل ناجي من وضع بيجامته المنزلية، نزع كمامة فمه وصاح فيهم مُطلقًا الكثير من الشتائم، لم يبدُ على أحدهم أي تأثر بلعناتهِ التي تنهالُ عليهم، قال بعد أن أطلق صوتًا اعتراضيًّا:

- إنتوا رجالة عيد المِجَبَرَاتي؟.. ماهه لازم يتقبض عليه عشان مشغَّل بهايم زيكوا!

ردَّ أضخمُهم حجمًا مُهددًا بأنه لا داعِي لمثل هذا الأسلوب في الحديث.. لم يبدُ على ناجي الخوف، ذكَّرهم أن روح المعلم عيد بين يديْه، وأردف مُحذرًا إذا جرى له مكروه فسينتهي مصيرُ ربِّ عملهم إلى الأبد.. قال آخر بهدوءٍ:

- المعلم اتقبض عليه وهو رايح يجامل في فرح؛ كان معاه فرد خرطوش.. ومحجوز في القسم اللي جنبنا.

أشار ناجي إلى أضخمهم قائلًا:

- والبغل ده ماخدش منه السلاح ليه لما الحكومة كَبَسِت، آهه كان ديته كفالة وقضية حيازة.

- أصلـه كان فـرح قرايبـه، ومكانـش عايـز حـدّ فينـا يـروح معـاه.

لم يعبـأ بنظـرات التهديـد التـي رآهـا في عـين ذلـك الضخـم والـذي بـدا أنـه مـن ينـوبُ عـن المعلـم، وقـال بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- حـدّ يوصـل البيـت يجيـب لي نضـارة القرايـة والسـجاير بتاعتـي.. ويـا ريـت وهـو نـازل يعـدّي عـلى أي كُشـك يجيـب علبـة تانيـة زيهـا، ويفـوت عـلى المزاجنجـي يشـتري لي ساندويتشـين سـمين، بـس خلـوه يصفّيهـم مـن الزيـت كويـس.

لم يعبـأ بنظـرات الاسـتنكار والدهشـة التـي رآهـا في أعينهـم، وأردف قائـلًا:

- وواحـد تـاني يـروح القسـم يـدّي الأمـين زينهـم ورقـة بخمسـين وياخـد صـورة مـن المحـضر، وإوعـوا تطلبـوا منـه يدخّـل حاجـة للمعلـم بتاعكـوا ولا تقولـوا لـه إن الموضـوع يخصّنـي؛ مـش عايزهـم يحسّـوا إننـا بنتحـرك عشـانه، وعايـز حـدّ يـروح وسـط البلـد يقابـل صاحـب قهـوة هنـاك اسـمها "الصعيـدي" يقـول لـه إنـه مـن طـرفي.. وبالمـرة شـوفوا حـدّ مـا يكونـش مُسَـجّل، قولـوا لـه يجهّـز نفسـه عشـان احتـمال ندخّـله الحجـز إنهـاردة.

اعـترض أضخمهـم طالبًـا أن يـشرح لهـم مبتغـاه مـن كل مـا طلـب، فـردَّ ناجـي سـاخرًا أنـه إمـا أن يُفهِّمـه أو يحصـل عـلى بـراءة المعلـم، أمرهـم بسرعـة التحـرُّك. قسَّـموا المهـام فيـما بينهـم، وتركـوا أحدهـم بصحبـة ناجـي حتـى لا يهـرب. سـأل ناجـي مُسـتدركًا- قبـل مغادرتهـم- عـمَّا إذا كان المعلـم عيـد لا يـزال يعمـل مـع رجـل الأعـمال الكبـير الـذي يتاجـر سرًّا في الآثـار والسـلاح، فشـل في تذكُّـر اسـمه فأطلـق عليـه: "حـوت الحـزب الوطنـي".. تبـادل رجـالُ المعلـم عيـد نظـراتِ الحـيرة والـتردد، فنهرهـم ناجـي قائـلًا:

- الراجل ده مفتاح خروج المعلم بتاعكوا.. انطقوا!

أجاب أضخمهم مُتجاهلًا تحذيرات رفاقه:

- آه لسه شغال معاه.. اسمه صبري بيه العموري.

قال ناجي بفهمٍ:

- عشـان كـده المقـدم شريـف مسـتقصد الـدودة الـلي مشـغلكوا.. عايـز يوقَّـع التعبـان الكبـير.

- إحنـا عارفـين كـذا حـدّ مـن رجالتـه، وسـمعنا إن وراهـم عمليـة تسـليم بُكـرة.

قال ناجي بجديةٍ:

- طب كويس.. عشان هانبلَّغ عنهم.

***

برغـم أننـي لا أرتـاح أبـدًا عـلى تلـك الأريكـة الخاصـة بالعـلاج النفـسي "الشـيزلونج" إلا أننـي لم أقـدر يومًـا عـلى رؤيتهـا دون الاسـتلقاء عليهـا وسرد أزمـة حيـاتي عـلى أمجـد.. كنـتُ أدفـعُ ثمـن الجلسـة كأيِّ مريـضٍ آخـر، الأمـرُ الـذي لم يعـترض عليـه أمجـد مـن بـاب "المعاملـة الإنجليـزي". اعتـذر لي عـما سـببته المريضـة السـابقة مـن هلـعٍ وإزعـاجٍ، أسرَّ إليَّ بصعوبـة مرضهـا؛ فكثـيرًا مـا تدخـل في نوبـات بـكاءٍ مُفاجئـة وتتحـدث مثـل الأطفـال دون أن تشـعر، لتفيـق مـن تلـك الحالـة لا تتذكـر شـيئًا مـما حـدث. تنـاول ملفًّـا سـميكًا مـن درج مكتبـه المكتـظ بملفـات باقـي المـرضى، أخـبرني مـن قبـل أنـه يقـضي أيـام عطلتـه أمـام الكمبيوتـر؛ ليفـرِّغ كل ملحوظاتـه التـي خطَّهـا في دفـتر ملاحظاتـه أثنـاء الكشـف وكل التسـجيلات الصوتيـة، ويرفقهـا داخـل هـذه الملفـات.. راح يقـرأ مـن ملفـي مُسـتعيدًا أولى جلسـاتنا التـي انعقـدت منـذ سـنة تقريبًـا؛ حـين عـاد ليسـتقر في مـصر.. أخـبرني أن مشـكلتي لم تكـن واضحـةً لـه في البدايـة؛ شـخصٌ يهـاب المـوت كسـائر البـشر، وبعـد فـترةٍ شـخَّص حالتـي عـلى أنهـا وسـواس قهـري.. كنـت عـلى درايـةٍ بـكلِّ مـا قـال، أشرت إليـه ليـسرع في سرده، فـأردف قائـلًا:

- الوسـواس ده عُبـارة عـن فكـرة بتجيلـك إنـك هاتمـوت وأنـت بتحـاول تقاومهـا، فضلـت تقـاوم الهاجـس ده لحـدّ مـا دفاعاتـك انهـارت..

اعتـدل في جلسـته أمامـي، قـال بلهجـةٍ آسـفةٍ- دون أن ينظـر في الملـف- إن فـرع الطـب النفـسي مُعقـد؛ تحـدَّث عـن حُلـم الأطبـاء والمحللـين النفسـيين بوجـود جهـاز طبـي قـادر عـلى اكتشـاف المـرض وتحديـده بشـكلٍ قاطـعٍ بعيـدًا عـن الفرضيات.. تجاهـل الضجـر الـذي ظهـر عـلى ملامحـي مـن كلامـه العائـم.. أشـار بيـده طالبًـا منـي أن أصـبر، قـال بعـد أن عـاود النظـر في ملفـي:

- مشـيت معـاك في فرضيـة إن عنـدك وسـواس قهـري، وجرَّبنـا كـذا آليـة للعـلاج؛ جربنـا العـلاج الـدوائي الـلي بـرع فيـه أطبـاء جامعـة عـين شـمس.. وأخـدت جرعـات مـن الفلوكسـيتين fluoxetine مـع كـذا دوا تـاني بـس حالتـك مـا اتحسـنتش.

عـدَّل مـن وضـع نظارتـه الخاصـة بـه.. كانـت رقيقة العدسـة بـلا إطـارات، واسـتكمل حديثـه قائلًا:

- واشـتغلنا بالعـلاج النفـسي الـلي بـرع فيـه أطبـاء القـصر العينـي.. طبعًـا المدرسـتين بيؤمنـوا بأهميـة العـلاج النفـسي والـدوائي مـع بعـض، بـس أنـا باذكـر الـلي بـرع في مجـال أكـتر مـن التـاني. المهـم إن برضـه حالتـك مـا بتتحسـنش.. عقلـك مـش قـادر يتجـاوز الحادثـة الـلي اتعرضـت لهـا في سـن المراهقـة لمّـا العربيـة اتقلبـت بعيلتـك، وفضلتـوا فـترة

محبوسـين جوَّاهـا، وشـاء القـدر إن أنـت وأخـوك تطلعـوا بإصابـات خفيفـة، وإن أبـوك وأمـك...

أشرتُ لـه كي لا يُكمـل جملتـه؛ ارتجفـت كل أعضـائي لـدى سـماع تلـك الذكـرى.. لم يعبـأ أمجـد بالفـزع الـذي ظهـر عـلى ملامحـي، وأكمـل حديثـه ممتدحًـا حمايتـي لأخـي مـن أي عُقدة نفسـية قـد تصيبـه حـين احتضنتـه وجعلتـه يُغمـض عينيْـه يـوم الحادثـة؛ فـلا يـرى منظـر والديـه قاطعـين النفـس مُحطمـة أجسـامهم، وصفنـي بالبطـل لأننـي تعايشـتُ مـع الحادثـة بمفـردي. أخـبرني بإصابتـي بهـوس مـن فكـرة المـوت مُـذ تلـك اللحظـة، ذكَّـرني بالكوابيـس التـي تُطـاردني بشـكلٍ شـبه يومـي؛ أراني فيهـا ميتًـا، وأعيـش تفاصيـل المـوت منـذ لحظـة انقطـاع النفـس حتـى دخـول القـبر.. قلـتُ لـه بعصبيـةٍ إن حالتـي قـد سـاءت مؤخـرًا؛ فالكابـوس بـدأ يأتينـي بدايـةً مـن اللحظـة التـي أغفـل فيهـا، ولا أسـتطيع التعايـش معـه، ولا أقـدر- بالطبـع- عـلى الامتنـاع عـن النـوم، وأنَّ الوضـع قـد تـأزم أكـثر بعـد وفـاة حسـن؛ فأصبـح الكابـوس يقتحـمُ عقـلي أثنـاء لحظـات سرحـاني وأحـلام يقظتـي!.. نظـرت إلى السـقف وتنحنحـتُ في خجـلٍ قائـلًا:

- علاقتـي بمـراتي مـا بقِتـش بخـير خالـص، لدرجـة إن شـوية الأمـل الـلي كانـوا عندهـا في الخلفـة راحـوا.. اسـتقلت مـن شـغلي في المدرسـة، ومـش قـادر أكتـب حـرف.. لـو الـلي

حواليّـا حسّـوا بحاجـة مـش هايرحمـوني وممكـن يرمـوني في مصحـة زي شـكري.

أوشـكت العَـبرات عـلى الخـروج مـن عينـيّ حـين ضربـت رأسي بكـف يـدي وأردفـتُ قائـلًا:

- أنـا تعبـت يـا أمجـد؛ بقيـت بشـوف المـوت في كل حاجـة حواليّـا، ريحتـه مـا بتفارقنيـش، بتجيـلي هواجـس دايمًـا إن النَّفَـس الـلي باخـده ده هـو النفـس الأخـير، مرعـوب أخسر نفـسي في غمضـة عـين.. حاسـس إني عايـش بنبـض صفـر!

تعرف إني فكَّرت في الانتحار كذا مرة من كتر الخوف؟!

رد أمجـد بهـدوء- كأنـه لم يسـمع شـكواي- أنـه اسـتغلَّ سـفريته الأخـيرة وعـرض حالتـي عـلى البروفيسـور "بيـتر مورجـان" الـذي أشرف عـلى زمالتـه أيـام البعثـة، وأنـه طـرح تشـخيصًا لمـرضي كان أمـام ناظـري أمجـد طـوال الوقـت؛ ولكنـه استسـهل ولعـب عـلى الفرضيـة الأكـثر شـيوعًا.. سـألته بلهفـةٍ عـن التشـخيص، أجـاب مُبتسـمًا:

- ثاناتوفوبيا ونيكروفوبيا يا يحيى.

- مرضين!

- الإتنـين إلى حـدٍّ مـا مرتبطـين ببعـض؛ الثاناتوفوبيـا هـي مـرض "الخـوف مـن المـوت"، ووجـود هواجـس عنـد الإنسـان إنـه هيمـوت قريـب.. أمـا النيكروفوبيـا فهـي

الخـوف مـن كل شيء متعلـق بالمـوت؛ زي الجثـث وخشـبة الحانــوتي والكفــن والنعــش، وأي حاجــة مــن مقتنيــات واحـد مـات قُريـب ممكـن تخوِّفـك، ده غـير كلامـك عـن الحالـة الـلي بتجيلـك كل مـا تكـون في مستشـفى أو حتـى جنـازة معديَّـة قدَّامـك.. وده بيفـسر الكوابيـس، وبيفـسر الاضطـراب السـلوكي والعصبـي الـلي بيظهـر عنـدك، مـش محتـاج أقـول لـك إن وجـودك في موقـف زي الـلي حصـل لـك زمـان ممكـن يعمـل أكـتر مـن كـده.

أكمـل حديثـه أن هـذه الأمـراض صـارت مصحوبـةً مؤخـرًا فيــما يُعــرف باســمPanic Disorder؛ أي اضطــراب هلعــي يأتينـي في صـورة نوبـات خـوف وشـعور بالخطـر.. ذكَّـرني بالحالة التـي عشـتها في جنـازة حسـن، وبشـكواي الخاصـة باسـتيقاظي مـن النـوم مذعـورًا غارقًـا في عَرَقـي، لا أسـتطيع التحكُّـم في قلبـي الــذي ينبــضُ كالطبــل، ولا في نفَــسِي الــذي يضيــق... قاطعتــه ســاردًاعليه الكارثــة الحقيقيــة: أن هــذا الاضطــراب بــدأ يأتينــي في لحظـات اليقظـة، أصبـت بـه بعـد دفنـة حسـن مباشرةً.. قـال بلهجـةٍ حَـذِرَةٍ مـن غضبـي:

- الكارثــة الحقيقيــة إن الثاناتوفوبيــا والنيكروفوبيــا - زيهــم زي معظــم الأمــراض النفســية- مالهمــش عــلاج واضــح ســواء نفـسي أو كيميـائي.. بـس أنـا قـررت أسـتعمل معـاك أسـلوب عـلاج نفـسي جديـد.

ثـم قـام مـن مكانـه وانحنـى أمـام درج مكتبـه، أخـرج كيسًـا بلاسـتيكيًّا، وألقـى عـليَّ مـا فيـه.. لأصرخ رعبًـا مذكـرًا إيـاه أننـا اتفقنـا في الجلسـة الأخـيرة عـلى أنْ ألمـس الكفـن مـن بعيـدٍ. قـال أمجـد بصرامـةٍ:

- اتعـوِّد عليـه مــن دلوقتــي.. ده مجــرد بروفــة لطريقــة العــلاج.

سألته بفهم:

- هتعالجني بالصدمة؟

- طريقــة العــلاج في حالتــك اســمها "الغَمْــر".. والعــلاج بالغَمْـر ده مرحلـة أشـد مـن العـلاج بالصدمـة.. بيتـم فيـه تعريـض الحالـة لمخاوفهـا بشـكلٍ أقـوى.

حاولــت أن أتجنَّــب ملمــس الكفــن الــذي أجــبرني عــلى الإمسـاك بـه، وطلبـت منـه أن يـشرح تلـك الطريقـة.. قـال إن الـشرح المُفصـل قـد يطـول بـلا داع، فسـيختصر قـدر الإمـكان ضاربًــا المثــل بحالتــي:

- يعنــي أنــت لازم تتغلــب عــلى الــصراع الــلي نشــأ عنــدك وأنــت صغـير، محتـاج تعيـش تجربـة شـبه الكابـوس الـلي مجننــك ومبــوَّظ حياتــك عشــان تخــفّ منــه.. زي مــا تقــول كــده مُحــاكاة أو Simulation .. غالبًــا هاتجيــب نتايــج إيجابيــة، وفرضًــا مــا خفِتــش بشــكل كُلي؛ فعــلى

الأقـل هاتكـون شـوفت مـا هـو أبشـع في الواقـع، وسـاعتها الكابـوس بالنسـبالك هايكـون مجـرد لعـب عيـال.. وطبعًـا كل ده لازم يتـم بموافقتـك، وأنـا هنـا هيكـون دوري "معالج نفـسي" بالمفهـوم العـام.. مـش طبيـب نفـسي؛ لأننـا بنجـرّب طريقـة عـلاج تعتـبر مـش موجـودة.

لم أفهـم بعضًـا مـن حديثـه، سـألته المزيـد مـن الـشرح.. فشـبَّهني بمريـض الـبرد الـذي يُلقـى داخـل حـوضٍ بـه مـاء مثلـج كي يُشـفى، وأكمـل حديثـه قائـلًا:

- يعني أنت ببساطة خايف من الموت، فاحنا هانموِّتك!

٥

احترسْ كابوس مُتكرر!

الأربعاء 8 فبراير 2006

نفَّذتُ وعدي أخيرًا بالبيات لدى فرحة في بيت العائلة الذي تعيش فيه مع نرجس.. نائمة كملاكٍ أعيته الحياة مع البشر؛ تجاعيد وجهها الأسمر، عيناها المنهكتان، قامتها التي قصرت وفقراتها التي انحنت، شعرها الأبيض الذي تساقط معظمه أسفل حجابها.. يجتمعون ليَقُصُّوا الكثير مما عانت ورأت.

كانت تحظى بحب واحترام جميع أفراد العائلة منذ صغرها، ولم يظفر بقلبها منهم سواي.. اهتمَّت جيدًا بصحتها وبصحة رفعت عالمةً أن قطار الزمن سيفرم الجميع تحت عجلاته، أتذكر بريقَ عينيْها وإشراق وجهها أيام صغري.. حتى أنني في بعض الأحيان كنتُ أراها أصغر سنًّا من أمي،

خَفُـت وهـج ملامحهـا بعـد رحيـل جـدي مـن المنـزل مُفِضـلًا إكـمال مـا تبقـى مـن حياتـه مـع شـيخٍ ضريـرٍ، بـدأ المـرض يطـرقُ بابهـا بعـد وفـاة أبي.. أصيبـت بالجلطـة التـي أعقبهـا شـللٌ نصفـي في آخـر مشـهد في صراعهـا مـع ابنهـا عطـوة؛ مـن أجـل حقـي أنـا وناجـي والـذي خرجَـت منـه مُنتصـرةً. في معركـةٍ مـع مسـتبدٍّ كهـذا تحتـاج للكثـير مـن الجـرأة والـذكاء والإصرار عـلى الحـق.. وهكـذا كانـت فرحـة.

لا أذكـرُ أننـي رأيتهـا تشـكو مـن أحـدٍ قـد آذاهـا.. هجرهـا زوجهـا ولم يَفْجُـر لسـانُها في حقـه بعـد الفـراق، مـات ابنُهـا الأصغـر ولم تفقـد إيمانَهـا في خالقهـا وقابـض روحـه، افـترى كبيرُهـا عـلى جميـع مَـن سـواها ولم تتمـنَّ لـه مـن اللـه سـوى الهدايـة، انهالـت عليهـا لطـماتُ الزمـن وظلـت كـما هـي: فرحة.

وصـل فرحـات إلى منـزل العائلة كـما جرت العادة الأسـبوعية أيـام السـبت والإثنـين والأربعـاء، بعـد دقائـق لحـق بـه أطفـال القريـة؛ ثُـلة منهـم أتـوا مُرغمـين بإلحـاح مـن أهاليهـم وقليـلٌ منهـم أتى مقبـلًا.. أمرهـم فرحـات بالالتفـاف حولـه في أحـد أركان البهـو المتسـع، لم يلتفتـوا إليـه وركضـوا جميعًـا مُقَّبِلـين يـد فرحـة التـي طالمـا أغدقـت عليهـم بالعمـلات المعدنيـة وبعضًـا مـن الحلـوى التـي كانـت تأمـر نرجـس بإحضارهـا لهـم، صافحنـي فرحـات بفتـور، وطلـب مـن الأطفـال الابتعـاد عـن فرحـة حتـى ترتـاحَ ويبـدأوا دروسـهم.. عاونتهـا عـلى الصعـود

إلى حجـرة نومهـا التـي قلَّـما تنـزلُ منهـا في الفـترة الأخـيرة.. أثنـاء صعودنـا المتمهـل سـمعت فرحـات يسـأل الأطفـال عـن السـورة التـي سـيمتحنهم فيهـا، فأجـاب أحدُهـم بسرعـةٍ وقـد بـدا مـن صوتـه الواثـق أنـه أنجبُهـم:

- هانسـمَّع مـن المـاضي سـورة قـاف، والجديـد النـُص الأول مـن سـورة مريـم.

بدَّلـت ملابـسي ونمـت إلى جوارهـا.. لأول مـرة منـذ زمـنٍ لا يـزورني هـذا الضيـف الكابـوسي اللـزج؛ فقـط نـوم مظلـم بـلا أحـلامٍ، وكأن فرحـة هـي دواء لعنتـي ومـرضي...

مهـلًا، يبـدو أن مفعـول فرحـة قـد زال وأن ضيفـي الثقيـل اقتحـم أحلامـي مُعتـذرًا عـن تأخـره..

بـدأ صـوتُ تلميـذ فرحـات النجيـب يعلـو بالتـلاوة مـن سـورة قـاف متداخـلًا مـع المشـهد الـذي أُمَثِّـل فيـه دور البطولـة.. فهـا أنـا ذا عـلى فـراشي أطلـق كحـة قويـة.. أحـاول أن أنـادي مـي لأخبرهـا أننـي لسـتُ عـلى مـا يُـرام فيـأبى صـوتي الخـروج، جالسـة أمـام التلفزيـون لا تعبـأ بي كالعـادة، صـارت تُعاملنـي مؤخـرًا كأننـي ضيـف في زنزانـة الزوجيـة..

(وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

كانـت تـصرخُ بالضحـك عـلى نـكات سـعيد صالـح في "مدرسـة المشـاغبين" برغـم أنهـا شـاهدت هـذه المسرحيـة مـا

يزيد على الخمسين مرة! حاولت أن أحرِّك أي شيء بجواري كي تسمعني بلا جدوى. قلبي ينبضُ بعنفٍ وكأنه يشتاقُ إلى التحليق بعيدًا عن صدري، أحسستُ بسخونة وجهي وبعجز قدميَّ، رحتُ أضربُ الهواء بيديَّ كالغريق بلا قشةٍ.. لم أعرف متى اقتحم عطوة غرفتي، حاولتُ أن أستغيث بمي منه، وقف أمامي ضاحكًا بصوتٍ أجش.. سمعتُ في الخلفية نكات سعيد صالح التي لم تتوقف، قال لي بصوتٍ غريبٍ عن صوته:

- حانت لحظتك يا ابن آدم.. هل أنت مُستعد؟!

حاولتُ أن أجيب نافيًا بشتى الطرق، فلم يصدر عني سوى حركاتٍ عشوائيةٍ غير مفهومةٍ.. فاستمر الصوت قائلًا:

- ألم تؤمن يومًا بفنائك؟.. لا يهم إن كنتُ مُستعدًا أم لا، فإن أجلك إذا جاء لا يُؤخر.

حاولتُ أن أطلب فرصةً أخيرةً فسمعتُ:

- أغلق باب عودتك، وانقطع عملك في الأرض.. الآن لا حيلة لك ولا مفر؛ ولو اجتمع الناسُ كلهم على أن يمنحوك نفَسًا زائدًا.. ما منحوك إلا ما كُتِب لك.

حاولتُ أن أبعد هذا "الكيان" عني، أو أشتت تركيزي عنه علَّه يرحل.. ضحكات مي بالخارج تزدادُ، و"مرسي ابن المعلم الزناتي اتهزم". شعرت ببرودةٍ شديدةٍ تجتاحني،

واقتحـم صوتـه كافـة حـواسي.. لم أعـرف كيـف يُحدثنـي الصـوتُ متجسـدًا في عطـوة الـذي لم يـزرني في هـذه الشـقة مـن قبـل، أسـمع صـوت ضحـكاتٍ مـي آتيًـا مـن بهـو المنـزل.. بـدأ يتقـدم نحـوي ببـطءٍ باسـطًا يديْـه دون أن يبـدو عـلى وجهـه أي تعبـير.

- (لقَـد كُنــتَ فِي غَفْلَــةٍ مِّــنْ هَــذَا فَكَشَــفْنَا عَنـكَ غِطَـاءَكَ فَبَـصَرُكَ الْيَــوْمَ حَدِيــدٌ)

***

جلـس أمجـد أمـام شاشـة جهـاز الكمبيوتـر في منزلـه يُطالـع بريـدَه الإلكـتروني.. لم يلحـظ إيفلـين التـي اقتربـت منـه حاملـةً طبقًـا خزفيًـا، جلسـت مقابلـة لـه وشرعـت تـأكل في صمـت، قـال لهـا بسـعادةٍ إن دكتـور بيـتر قـد وافـق عـلى تنفيـذ طريقـة العـلاج التـي فكـرا فيهـا معًـا.. أجابتـه إيفلـين بفـمٍ مـليء بالطعـام أنهـا جاهـزة بالتركيبـة الطبيـة.. هـزَّ رأسَـه مُشـجعًا.. اسـتدركت بعـد صمـتٍ قصـيرٍ مُتسـائلةً عـما إذا كان شـخصٌ آخـر قـد علـم بأمـر التجربـة.. أجابهـا بهـدوءٍ:

- لأ.. حتــى جُـبران مايعرفــش.. بــس ناجــي أخــو يحيــى عـارف، أصلـه محامـي وهيخلَّـص إجـراءات الدفـن والـورث، ده غـير إنـه هايكـون مـشرف عـلى تنفيـذ التجربـة في طحـا، ولـو حصـل أي قلـق سـهل يحتويـه.

ثـم أردف قائـلًا بقلـقٍ أن مَكمَـن المشـكلة في يحيـى الرافـض لإجـراء التجربـة خشـية أن تنقلـب المحـاكاة إلى حقيقـة ويموت!.. تسـاءلت إيفلـين عـن تفسـير وفاتـه في كوابيسـه.. قاطعهـا أمجـد قبـل أن تنهـي جملتهـا مُصححًـا:

- يحيـى مـش بيمـوت، هـو في الحلـم الـلي حواليـه بيعاملـوه كأنــه اتــوفى، وبيعيــش التجربــة كأنــه روح عايشــة في جســم ميـت. بـصّي الموضـوع نفسـيًّا شرحـه صعـب.. بـس علميًّـا لـو حـد حلـم إنـه مـات وروحـه انقبضـت في الحلـم يبقـى مـات بجـدّ؛ زي الحلـم الـلي النـاس كلهـا بتحلـم بيـه بتـاع السـقوط الحُـر؛ لـو السـقوط حصـل فعـلًا في آخـر الحلـم يبقـى الـلي بيحلـم مـات في الحقيقـة؛ لأن المخ بياخـد إشـارة بانتهـاء عملـه.. يعنـي مـن رحمـة ربنـا عـلى يحيـى إنـه بيصحـى أول مـا القـبر بيتقفـل عليـه.

سـألته عـن إمكانيـة إقناعـه بإجـراء التجربـة.. طمأنهـا إلى قدرتـه عـلى هـذا؛ فـلا حـلَّ أمامـه إلا هـذه المحـاكاة، طلـب منهـا أن تكـون مسـتعدةً بالتركيبـة.. أعربـت بصـوتٍ خفيـضٍ عـن قلقهـا مـن أن تكـون سـببًا في حُـزن عائلـةٍ كاملـةٍ عـلى ابنهـا.

***

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

انهار جسمي على الأرض بجوار الفراش، وعلى الرغم من الصوت العالي الذي أحدثه وقوعي إلا أنني لم أشعر بأي وجع.. أحاول النهوضَ فلا يتحرك لي جفن!.. أحاول الصراخ مرةً أخرى فلا أستطيع.. أحاول فِعْل أي شيء غير التحديق في أرضية الغرفة.. فلا تتحرك عيناي عن هذه الزاوية التي سقطت عليها. أقبلت مي مُسرعةً على صوت سقوطي لتجدني بلا حول ولا قوة، حاولَت رفع جسدي إلى الفراش فلم تستطع إلا أن تقلِبني لأستلقي على ظهري.. صاحت فيّ لأستيقظ ولكني لم أفعل، اشتد صراخها وراحت في نوبة بكاء.. اصرخي كيفما شئتي ولكن ابتعدي عن أذنيَّ أيتها المزعجة.. ألا لعنة الله على بنات جنسك!

نهضَت من جواري وتركتني طريح الأرض، ظلَّت واقفةً في حيرةٍ لا تعرف ما العمل، وبعد مكالمةٍ هاتفيةٍ قصيرةٍ مع ناجي حدث كل شيء بسرعةٍ؛ من الغُسل إلى التكفين إلى الصريخ إلى رحلة المقابر المُرهقة إلى دعوات بالرحمة والمغفرة من حنجرة الشيخ عزازي إلى تأمين عليها من أهلي وباقي المُشيعين إلى الدخول إلى ظلمات القبر وانعدام الرؤية من خلال قماش الكفن الخانق إلى صوت سلامة وهو يبدأ في إغلاق القبر!.. كنتُ أرغب في وجود ولد صالح يدعو لي ويحوز اهتمام المُشيعين. الآن ستنتهي آلامي ومعاناتي إلى

الأبـد، ليفـنَ البـشر جميعًـا مـن بعـدي، ليحـترقَ العـالم بعـد فقـداني.. اشـتدَّ الإظـلامُ مـن حـولي وقلـلَّ الكفـن مـن سرعـة أنفـاسي.. أرى وسـط الظـلام نـورًا أبيـض اللـون، ولكنـه بعيـدٌ.. هـل هـذا بصيـصُ الأمـل في العـودة أم أنـه بدايـة لظهـور...

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾

- اصحى يا يحيى.. الغدا جُهز.

لا يـزال ظـلامُ القـبرِ يُحيـط بي برغم عـودة حـواسي إلى العمل في الواقـع.. أدركـتُ أن نرجـس مـن أيقظتنـي بصوتهـا المزعـج ولهجتهـا الريفيـة، سـألتها عـن فرحـة فأجابـت بفخـر طفـولي أنهـا أوقظتهـا منـذ قليـلٍ هـذا حتـى تُعطيهـا الـدواء في ميعـاده.. لعنتهـا في سري وأنـا في حالـةٍ مـا بـين النـوم والاسـتيقاظ.. حاولتُ بصعوبـةٍ أن أفتـح عينـيَّ لأجـد مؤخـرة نرجـس العريضـة أمامي، تُمثِّـل أنهـا تُحـاول التقـاط شيء مـن الأرض، حـين شـعرَت أننـي أتأملهـا تعمَّـدت إثـارتي بالإطالـة في الانحنـاء والنهـوض بإيقـاع بطـيء يُـبرز منحنياتهـا.. ضحكـتُ سـاخرًا مـن تصرُّفهـا المُريـب مـما سـبَّب لهـا الحـرج وجعلهـا تنتفـضُ وتُغـادر الغرفـة مُسرعـةً وهـي تُغمغـم ببعـض الكلـمات عـن الطعـام الـذي سـيبرد. لا أنكـر أننـي أحيانًـا مـا كنـت أسـتثار مـن جمالهـا الريفـي قليـل القـدر مُتوحـش الملامـح؛ بشَـعرها شـديد السـواد الـذي اعتـادت أن تخـرجَ نصفَـه مـن خلـف حجابهـا، وشـفتيْها العريضتـيْن الكاشـفتيْن عـن فلجـةٍ صغـيرةٍ بـين أسـنانها، وبشرتهـا الخمريـة

وعينيْهـا السـوداويْن الواسـعتيْن كالمهـا.. ولكـن سرعـان مـا كانـت تنطفـئ رغبتـي تجاهها حـين تنطـق بتلـك اللهجـة القرويـة التي لم أحبها قـط خاصـةً مـن حنجـرة نرجـس، لمحَّـت فرحـة أثنـاء شـبابي لرغبتهـا في أن أتـزوج مـن بنـت عمَّتـي حتـى "أسـترها"، تحدَّثـت عـن طيبتهـا وأخلاقهـا وكونهـا مـن دمـي، وعـن خـرَّاط البنـات النشـيط الـذي خرطهـا قبـل أوانهـا. اضطـررت أن أسرَّ إليهـا برفـضي مبـدأ الـزواج مـن طحـا، وصارحتهـا بمشـاعري تجـاه مـي.. تحمَّلَـت-سرًّا- القـدر الأكـبر مـن تكاليـف الـزواج؛ فابتاعـت لي شـقةً بعيـدًا عـن شـقة الحسـين التـي كنـت أقطـنُ فيهـا مـع ناجـي بعـد وفـاة والديْنـا في الحادثـة، وتبرَّعـت بربـع ذهبهـا لأقدمـه شَـبْكَة زواجـي.. لم أخبرهـا أن مـي رفضـت الـزواج بشَـبْكَة قديمـةٍ واضطررنـا لتبديلهـا بشـبكةٍ جديـدةٍ، ولكنهـا عرفـت ولم تحـزن؛ ففرحـة تعـرف كل شيء.

- تعـرف إن سـتي فرحـة ماكلتـش بنِفـس مفتوحـة كـده مـن سنين ؟

هكـذا قالـت نرجـس وهـي تُطعِـم فرحـة في فمهـا عـلى مهـلٍ، ظلَّـت تُحـدق بي بتلـك النظـرة الشـغوفة التـي لا أرتـاح لهـا، ظـلَّ طبقُهـا كـما هـو لم تمسسـه.. سـألتني عـن رأيـي في الطعـام فأخبرتهـا أنـه دَسِـم زيـادة عـن اللـزوم، وأن شـغفي تجـاه الطعـام لم يعـد كـما كان، ولـولا فرحـة مـا أكلـت.. دَعَـت لي الأخـيرة بابتسـامةٍ أن يديمنـي اللـهُ عليهـا نعمـةً، وصفتنـي

بأنني "ابـن روحها"... قَبَّلـتُ يدهـا لتخـبرني أن لديهـا مـا تُريـد إطلاعـي عليـه، نظـرتْ حولهـا قائلـةً:

- أنـا عايـزة البـت نرجـس تعمـل لنـا كوبايتـين شـاي.. هـي راحـت فـين البـت دي؟

ضحكتُ ضحكةً قصيرةً أوقفتها نظـرةٌ غاضبـةٌ مـن نرجـس التـي قالـت لجدتهـا معاتبـةً:

- أنا جنبك آهه يا ستي.

قالت لها فرحة ناهرةً:

- قومي غطِّي راسك يا بتّ..

ردَّت نرجس ضاحكةً:

- هو يحيى غريب يعني؟

لم ترد فرحة، ونظرت لي مُتسائلةً في حيرةٍ:

- مين دي؟

أجبتها ساخرًا:

- أنا عارف!

نهضـت نرجـس غاضبـةً وهـي تصيـح بعبـاراتٍ غاضبـةٍ.. فقالـت فرحـة وهـي تضحـك:

- أنا فاكراها.. بسّ باحب أضايقها.

- خدت بالي.

لـن تشـعر في محـراب فرحـة سـوى بالراحـة التامـة؛ فرائحتُها الطيبـة تمـلأ أرجـاء الغرفـة، ومكتبـة جـدّي تحتـل مكانـًا كبـيرًا بجـوار الفـراش الكبـير المُذهـب المُعلقـة فوقـه صـورة قديمـة باهتـة بالأبيـض والأسـود تجمـع رفعـت وفرحـة يـوم زفافهـما؛ ارتـدى فيهـا رفعـت جلبابًـا أبيـض مزينًـا صـدره بوشـاحٍ عريـضٍ، كان أطـول قليـلًا مـن فرحـة التـي لم تكـن جميلـةً بمقاييـس النسـاء، ولكـن رفعـت لم يرهـا كأي مـن أبنـاء جنسـه.. رأى فيهـا الراحـة المتكاملـة؛ عقـلًا تثـقُ في رجاحتـه، وقلبًـا تهنـأ بـين أحضانـه، وروحًـا يسـكن إليهـا.

عاونتهـا نرجـس عـلى السـير حتـى وصلـت إلى بـاب الغرفـة لتسـتند عـلى ذراعـيَّ وتأمـر نرجـس بالرحيـل، طلبـت منـي أن أفتـح خزانـة الملابـس العملاقـة المسـتقرة بجـوار المكتبـة التـي تحمـل في طياتهـا لغـة الرافعـي وعبقريـات العقـاد ورؤيـة الحكيـم وعـبرات المنفلوطـي وملحميـة الإليـاذة وكفـاح هتلـر وكوميديـا دانتـي وصراعـات ديستوفسـكي النفسـية وتأريـخ نجيـب المجتمعـي وغيرهـم.. مـع الكثـير مـن الكتـب القديمـة النـادرة التـي انتهكـت الأتربـة قدسـيتها. أخرجَـت صندوقًـا كبـير الحجـم، سـاعدتها عـلى حملـه وجلسـتُ مُقابـلًا لهـا عـلى الفـراش، أخرجـت الكثـير مـن الصـور الورقيـة، وقالـت:

- رفعت طول عمره غاوي رسم وتصوير..

نظـرت إلى صـورةٍ عائليـةٍ تـم التقاطُهـا في بهـو البيـت بالأبيـض والأسـود جمعـت فرحـة ورفعـت وأبي الـذي عرفتـه مـن الشـامة المميـزة التـي تحتـلُّ الجانـب الأيمـن مـن خـدِّه، كان أبي يضـع يـده عـلى عمتـي التـي بـدا أنهـا تعلَّمـت المـشي لتوهـا، وكان جـدي يحمـل عطـوة الـذي بـدا وكأنـه في العـاشرة وقـد تغـيَّرت ملامحـه كثـيرًا عـن الآن.. أكملـت فرحـة حديثهـا مشـيرةً إلى بورتريـه صغـيرٍ مرسـومٍ بالقلـم الرصـاص، أخبرتنـي أن رفعـت مَـن رسـمه.. وأنـه كان يُداعبهـا قائـلًا إنـه بهـذه الرسـومات يوفـر ثمـن الهدايـا. حدثتنـي مُبتسـمةً أن الحـب لم يعُـد كـما كان؛ لم يتلقنـوه مـن الأغـاني ولا الأفـلام مثـل أبنـاء هـذا الجيـل، حكـت لي أن جـدي لم يقـل كلمـة "بحبِّـك" كثـيرًا.. لكنـه فعلهـا كثـيرًا؛ لم يرغمهـا يومًـا عـلى فِعْـلٍ يتنـافى مـع إرادتهـا، دافـع عـن حقِّهـا أكـثر مـما فعلـت، صنـع لهـا هالـةً مـن الهيبـة وسـط أفـراد العائلـة، فجعـل لهـا اليـد العليـا والكلمـة المسـموعة. سـألتها السـؤال الـذي طالمـا حيَّرتنـي إجابتـه: لمـاذا غـادر رفعـت المنـزل واعتـزل الحيـاة؟.. قالـت بعـد صمـتٍ طويـلٍ:

- ربنا يهدي الجميع.

ثـم سـألتني محولـةً دفـة الحديـث عـن عَلاقتـي مـع زوجتـي مـي، وجدتنـي أجيبهـا دون تفكـيرٍ كثـيرٍ أن مـرآة الحُـب لم تعـد عميـاء كـما سـبق.. سـألتني بقلـقٍ عـما إذا كانـت كوابيـسي

هـي سـبب تعاسـتي معهـا.. لم أسـألها كيـف عرفـت، قلـتُ لهـا بصـوتٍ خفيـضٍ:

- لأ الموضـوع مـن قبـل الحادثـة.. مـا بنتفقـش عـلى حاجـة مـن أول ريمـوت التلفزيـون لحـد السريـر، والموضـوع زاد بعـد مـا سِـبت الشـغل.

قالـت مبتسـمةً بخفـوتٍ: "لا تـدرِ لعـل اللـه يُحـدث بعـد ذلـك أمـرًا..".. ثـم أردفـتْ مازحـةً:

- تحـب يـا ولـه أبعتـك مـع حـدّ مـن العيلـة للشـيخ سـليمان عبـد النـور في الكفـر الـلي جنبنـا عشـان يرقيـك ولا يشـوف إيـه لابسـك؟

كنـت أعلـم أنهـا- مثـلي- لا تؤمن بتلـك المعتقدات السـاذجة التـي ينشرهـا القرويـون ويصدقهـا أهـل الحـضر.. فهـززتُ رأسي نافيًـا، وقلـتُ ضاحـكًا:

- بـس مـا قولتيـش ليـا بقـى.. إيـه اشـتغالة الزهايمـر الـلي إنتـي عاملاهـا عـلى العيلـة دي؟!

***

قبـل أذان المغـرب بدقائـق توقفَـت سـيارة رياضيـة باهظـة أمـام بوابـة أحـد المصانـع المهجـورة عـلى طريـق بنهـا- القاهـرة الزراعـي، عـلى الفـور ظهـر شـخصٌ ضخـمُ الجثـة ليفتـح البوابـة

الحديديـة المتهالكـة.. تحركـت السـيارة متوقفـةً أمـام أحـد المباني في الداخــل؛ والــذي يبــدو- مــن الخــارج- مهجــورًا منــذ زمــنٍ بعيــدٍ.. نــزل منهــا شــاب في منتصــف الثلاثينيــات مــن عمــره، أشــار للضخــم الــذي فتــح لــه كي يتبعــه، دخــلا الــدور الأرضي للمبنــى الــذي كان شــديد النظافــة مــن الداخــل، لا يقــل عــددُ الموجوديــن فيــه عــن عشريــن رجــلًا، كان المــكانُ رطبًــا ذا ســقفٍ عــالٍ وإضــاءةٍ خافتــةٍ، مرصوصــةٍ في أركانــه الكثــير مــن الثلاجــات الخاصــة بمصانــع اللحــوم. اســتدعى الشــاب الثلاثينــي كل الموجوديــن في المــكان مُناديًــا عليهــم بصــوتٍ عــالٍ تــردَّد صــداه في المــكان.. وعــلى الفــور اجتمعــوا حولَــه.. سـألهم عــن الأماكــن التــي ســيتوجهون للعمــل فيهــا اليــوم.. اقــترب منــه شــاب أنيــقٌ يرتــدي جاكيــت "بليــزر" كُحــلي اللــون وبنطلــون جينــز أســود وجزمــة ســوداء لامعــة، كان أصغــر الموجوديــن ســنًّا وأكثرهــم ذكاءً.. أجابــه ناظــرًا في ورقــةٍ صغــيرةٍ يحملهــا:

- الشــغل إنهــاردة كتــير يــا دكتــور أنَــس؛ فيــه أربــع أمــوات في قليــوب واتنــين في بلبيــس وخمســة في الغفــير.

ردَّ أنَس بصوتٍ خفيضٍ لمُحدثه:

- إيه دكتور أنَس دي يا كريم؟ إنت أخويا الصغير!

ردَّ عليــه كريــم مُبتســمًا بــضرورة الحفــاظ عــلى الرســمية أمــام العاملــين لديــه، نظــر إليهــم أنــس وقــال آمــرًا:

- فيـه طلـب مخصـوص.. لـو لقيتـوه مـا حـدِّش يتـصرف فيـه..

أشـار لكريـم كي يـدوِّن مـا سـيقول، سرد مواصفـات الجُثـة المطلوبـة؛ ذكـر قمحـي اللـون، لا يقـل طولـه عـن ١٨٥ سـنتيمتراً، وأن يكـون نصفـه الأعـلى ممتلئًـا.. أمرهـم حـين يحـضروا الجثمان المنشـود أن يحلقـوا لـه شـعره مـن الأمـام، وأن يكفنـوه قبـل وضعـه داخـل الثلاجـة.. تعجَّـب كريـم مـن تناقـض أوامـر أخيـه؛ فـما الجـدوى مـن كل هـذه المواصفـات إن كان سـيتم التسـليم داخـل الكفـن.. ردَّ أنـس:

- ممكـن حـدّ يفتـح الكفـن بالغلـط أو يحسِّـس عـلى راسـه.. مـش عـارف، بـسّ المهـم ننفـذ المطلـوب عشـان نعـوّر الزبـون في قرشـين حلويـن..

أشــار كريــم للرجــال كي يســتعدوا للتحــرُّك؛ كل اثنــين في شــاحنة مــن الشــاحنات الصغــيرة المركونــة خلــف المبنــى كــما اعتــادوا يوميًّــا، قــال لأنَـس بلهجـةٍ جـادةٍ وبصـوتٍ هامـسٍ:

- بمناســبة القرشــين.. ابقــى زوِّد إيجــار المبنــى لأصحــاب المصنـع عشـان رجعـوا يسـألوا تـاني عـن الـلي بنعملـه؛ شـايفين عربيـات عليهـا شـعار شركـة أغذيـة بتخـرج المغرب فاضيـة وبترجـع الفجـر محَمِّلـة.. ولـولا إنـك دكتـور وشركـة الأغذيـة الـلي بننقـل بعربياتهـا معروفـة كان زمانهـم شـكوا في إننـا تجـار مخـدرات ولا سـلاح.

أومـأ أنَـس برأسـه طالبًـا مـن كريـم أن يراقـب بنفسـه العميـل الـذي طلـب هـذا الطلـب الغريـب.. فحـرَّك كريـم القلـم مُدونًـا العنـوان الـذي تـلاه عليـه أخـوه، سـأله عـن سـبب مراقبـة هـذا العميـل دونًـا عـن غـيره، وسر الاهتـمام بشـخصه عكـس المعتـاد.. ردَّ أنَـس بهـدوءٍ:

- أصـل ده مـش زبـون عـادي؛ ده دكتـور نفـسي.. والمواصفات الـلي طالبهـا مـش زي الـلي بيطلبهـا الطلبـة بتـوع التشريـح ولا المهاويـس بتـوع النيكروفيليـا الـلي بيعشـقوا جثـث الأمـوات؛ فأكيـد وراه سر ممكـن نطلـع مـن وراه بمصلحـة أكـبر.

***

ضحكـت فرحـة حتـى اهتـزَّ صدرُهـا المُنهـك وضاقـت عيناهـا، قالـت:

- بينـي وبينـك أنـا اتخنقـت مـن النـاس الـلي عايشـة معايـا دي.. ومـا حـدِّش فيهـم حـاول يكدِّبنـي لمـا ادعيـت المـرض، كلهـم مـا صدّقـوا إني نسـيت.

ثـم لمسـت وجنتـي بيدهـا وأخبرتنـي مداعبـةً أننـي الوحيـد الـذي لم تقـدر عـلى تزييـف نسـياني، وأننـي الوحيـد الـذي لاحظ هـذا الزيـف الـذي سـتنتهجه حتـى وفاتهـا.. اقشـعرَّ بـدني لمجـرد طـرح الفكـرة، قلـتُ لهـا بصـدقٍ:

- أنا بحبك أوي يا ستي.

- وأنا روحي فيك يا ولا.

احتضنتها لدقائق غسلت عني كل همومي، رأيتُ في كل ما يُمكن أن يكون جميلًا في هذا العالم.

وكأي شيءٍ جميلٍ انتهى سريعًا، سألتُها وأنا أطالع باقي محتويات الصندوق عمَّا إذا كان ناجي قد كشف ادعاءها المرض.. فقالت بحسرةٍ إن الغشاوة الجاثمة على عينهِ كبيرةٌ تمنع بصيرته عن الرؤية، أخرجت صورةً من داخل الصندوق؛ ظهرتُ فيها مراهقًا أقف بجوار أبي وأمي وناجي طفلٌ، طلبت مني أن أتذكر له دائمًا صورته في هيئته الصغيرة الضعيفة، وأن أصفى تجاهه داعيًا له بالهداية.. لم أخبرها بموضوع اختفائه، خاصةً أنه يتصل بي يوميًّا يطلب مني ألا أخبر أحدًا.. قالت فرحة مشيرة إلى أبي المُتجسد على ورق الصورة:

- أنت ماشي لحدّ دلوقتي ببركة الراجل ده.. ياما عمل خير وما استخسرش في حدّ عِلمه ولا مِلكه؛ بنى المستوصف والجامع اللي عند التُّرَب من فلوسه، ورفض إن حدّ من الطحاوية يشاركه فيهم وقالهم يعملوا هما خير تاني.. كان صاحب فكرة إن أستاذ فرحات ييجي في بيت العيلة هنا يحفّظ العيال قرآن ويعلّمهم عربي زي ما كان بيجيبه لك مصر يعلّمك في شقة الحسين..

دققـت النظـر في الصـورة، لاحظـت دمعـةً فلتـت منهـا.. تركتها تكمـل حديثها عـن أبي؛ قصَّـت عـليَّ ليلـة الحادثـة حـين مكـث في هـذا البيـت وقتًـا طويـلًا كأنـه يُودعـه، كانـت هـذه أول مـرة يرتـدي فيهـا جلبابًـا مـن أزيـاء رفعـت، أخبرتنـي أنهـا تعجَّبـت حـين شـهدته متعجـلًا العـودة إلى القاهـرة، قبَّـل يدهـا واعتـذر منهـا لأنـه قـد وعـدني أنـا وناجـي بالخـروج في نزهـةٍ.. تطرَّقـت لعلاقتـه بأمـه التـي كان يعتبرهـا نصفـه الثـاني، اسـتطاع دائمًـا التعبـير عـن حبـه لهـا بـأرق الكلـمات عكـس رفعـت.. تعجَّبـت مـن موقفهـا المتناقـض مـن كلام الحـب؛ فكيـف تحـب قلتـه مـن رفعـت وتحـب كثرتـه مـن أبي.. أجابـت أن كلًّا مُيَـسر لمـا خُلِـق لـه.. سـألتها وأنـا أطالـع محتويـات الصنـدوق:

- تفتكـري أبويـا كان بيحبنـي أكـتر مـن أخويـا؛ زي مـا ناجـي دايمًـا بيقـول؟

هدأ حزنها قليلًا وقالت وهي تنظر إلى السقف:

- هـو كان شـايفك حيطـة عفيـة، وكان حاسـس إنـه هايعتمـد عليـك قـدَّام، وإنـك قـادر تحمـي أخـوك مـن بعـده.. وده الـلي حصـل فعـلًا يـوم الحادثـة.

قلتُ متهكمًا:

- لـو كان يعـرف أنـا هابقـى إيـه وناجـي هايبقـى إيـه مكانـش فكَّـر كـده.

اعترضت فرحة قائلة:

- وهو أنت كده وحش يا عبيط؟!.. إيه يعني شوية مشاكل في الشغل وفي البيت، ما كلنا بنقع وبنقوم، المهم فطرتك تفضل سليمة.. وما تتعلمش الأونطة من أخوك وعمك.

قلت بصدق إنني راضٍ بقسمتي: أن أعيش نصف إنسان بروحٍ مشوهةٍ.. قالت فرحة بلهجةٍ جادةٍ:

- ناجي عمره ما كان زيك، ولا عمره هايكون.

أخبرتها بلهجةٍ لم تخلُ من عتابٍ أن كلامها قد تغيَّر، وأنها قالت في الماضي إن ناجي أجدر مني بالوقوف أمام عطوة.. أعادت قولها أنَّ كلًّا مُيَسر لما خُلِق له، وأنها أخطأت في تقديري وبالغت في تقدير ناجي، وأردفت قائلةً:

- ناجي مش زي عطوة؛ عطوة ابني وبدعيله بالهداية كل يوم.. بس ده عقرب ملعون لدغته توديك القبر.. إنما أنت وناجي بتكمِّلوا بعض، أنت قلبه وهو عقلك.

قبلت يدها مُضيفًا على كلامها أنها روحنا. لأول مرة ألاحظ احمرارًا زائدًا في كف يدها، تناولت يدها الأخرى فوجدت نفس الاحمرار! لم أسمع من قبل أن هذا الاحمرار من أعراض أي مرض.. نظرت إلى فرحة مُستفهِمًا فانخرطت في بكاءٍ صامتٍ مقهورٍ، أمسكتُ كتفيْها وسألتها عن السبب

بصـوتٍ عـالٍ فـزاد بكاؤهـا.. لم أرهـا مـن قبـل عـلى هـذه الحالـة مـن الانهيـار. خطـرت ببـالي فكـرةٌ غريبـةٌ؛ فأرحتهـا عـلى الفـراش ونظـرت إلى كفـي قدميهـا فوجدتهـما عـلى ذات الحالـة.. كـما لاحظــت جرحًــا آخــر أســفل ركبتهــا.. قالــت فرحــة بلهجــةٍ متوسِّــلةٍ، جاهــدت للحفــاظ عــلى كلماتهــا رصينــة:

- ورحمة الغاليين انسى اللي أنت شايفه ده.

لا أعتقـد أننـي قـد بلغـت هـذه الحالـة مـن الغضـب مـن قبـل فقلـت بصـوتٍ عـالٍ:

- لو اللي في بالي صح...

قاطعتنــي فرحــة قائلــةً برجــاء وهــي تُحــاول بلــوغ يــديَّ بشــفتيها:

- أبـوس إيـدك بـلاش.. أنـا كلهـا شـوية وهاغـور مـن الدنيـا كلهـا؛ العيلـة هـي الـلي باقيـة لـك.

تركتهـا مُنخرطـةً في بكائهـا، نزلـت السـلم مُسرعًـا عازمًـا عـلى أن تكـون الليلـة سـوداء عـلى رأس الطحاويـة جميعًـا.

٦

وَزَهَقَ الحَق..

لا أتوقع لهذا الظلام المُخيم على قبري
سوى نهاية واحدة.. نهايتي.

الأربعاء 8 فبراير 2006

شرع ناجي في ارتداء ملابسه التي أحضرها رجال المعلم عيد المجبراتي في الوكر الخاص بهم.. أرسل أحدهم لأحدِ موظفي الشهر العقاري بتوصيةٍ خاصةٍ بالقضية، طلب من آخر تحضير القهوة. فرك عينيْه راجيًا منها الصمودَ دون أن تنغلقَ على نفسها، طلب من عقله ألا يُفرِّط فيما تبقى بين طياته من تركيزٍ وانتباهٍ.. تمنَّى ألا ينهار مغشيًّا عليه من قلة النوم أثناء عَرْض موكله على النيابة. لم يثق في قدرة هؤلاء البلطجية على تنفيذ ما أراد؛ فلم يُظهِروا أي فطنةٍ

منذ اختطفوه ولازموه حتى وصل إلى النيابة ليجبروه على ما لم يتهرب منه.

وقف عيد مُكبَّلًا من يسراه أمام مكتب وكيل النيابة، اقترب ناجي تجاهه ليقدم له المعلم عيد التحية مادًّا نحوه يده اليمنى.. نظر له ناجي بازدراءٍ دون أن يُحرِّك يديْه وقال:

- باعت لي البهايم بتوعك يخطفوني؟.. ما أنا ممكن أخش دلوقتي ألبِّسك تأبيدة وعليَّا وعلى أعدائي!

اتسعت عينا عيد وانتزع يد ناجي مُصافحًا إياه عَنوة، قال:

- طب وعهد مين ده؟

أجاب ناجي مُتهكمًا:

- عهد مبارك.

لم يعبأ عيد بسخرية ناجي من كلامه وأكمل قسَمه مؤكدًا أنهم حفنةٌ من الحمير الذين أساءوا فهم تعليماته.. اشمأزَّ ناجي من رائحة عيد حين اقترب منه؛ وخاصةً رائحة فمه الكريهة التي كانت مزيجًا من رائحتيْ السجائر والاستيقاظ من النوم، أشاح بوجهه بعيدًا وردَّ دون أن ينظر إليه:

- حمير عشان شغالين عند مُتخلِّف زيك.. عامةً أتعابي في القضية دي إني ماشوفش وشك تاني.

ابتلع عيد الإهانة، سأله بلهجةٍ متوسلةٍ أن يُخلِّصه من هذا الكابوس وسيدفع له ما يشاء.. أمره ناجي أن يلتزم الصمت أمام وكيل النيابة ولا يتحدَّث إلا بنكران الواقعة.. سأله عيد عن الرد المناسب إن عُرِض عليه حُكمٌ مخففٌ.. ردَّ ناجي بعصبيةٍ مُحاولًا خفض صوته- حتى لا يسمعه العسكري المُكَبِّل لعيد- أن المتهم الغبي فقط من يعترف مُبكرًا؛ فيجب عليه التَّمَسُّك بكذبته حتى الموت، ولا يبيع نفسه لأنصاف الحلول.

رنَّ صوتُ الجرس الخاص بمكتب وكيل النائب العام؛ فأدخل العسكري عيد وفك أصفاده، كانت هذه المرة الأولى التي يترافع فيها ناجي أمام هذا الوكيل، سمع الكثير عنه ولكن السمع ليس كافيًا. حاول أن يتفرَّس في ملامحه فلم يقدر على قراءة الكثير؛ لم يعرف السبب: أهو غموض الرجل أم أن هذا تأثير انعدام النوم؟ أشار إليه الوكيل بالجلوس، حيَّاه ناجي بابتسامةٍ مُنهكةٍ، وقبل أن يفكر في نقطةٍ لبداية سرد حجج براءة مُوكِّله قال له وكيلُ النيابة مُبتسمًا:

- أنت متوصي عليك توصية محترمة يا أستاذ ناجي.. سمعتك ما شاء الله يعني.

حـرَّك ناجـي كتفيْـه مُسـتفهمًا عـمَّا سـمع عنـه، تمنَّـى أن يكـون خـيرًا.. أجـاب الوكيـل أن صيتَـه قـد سـمِّع في محاكـم ونيابـات القاهـرة سريعًـا لدرجـةٍ مُفزعـةٍ.. فاجـأه ناجـي قائـلًا:

- المهم سيادتك هاتسكت على اللي بيحصل ده؟

- إيه بيحصل؟

- فيـه تعنُّـت واضـح جـدًّا مـن الشرطـة تجـاه مـوكلي الحـاج عيـد عبـد السـلام الشـهير بعيـد المجـبراتي.. وواضـح جـدًّا إن القضيـة متلفقـة.

ضحـك وكيـل النيابـة الـذي عـرف ناجـي أن اسـمه عـماد حَنـا، وقـال:

- دي حالـة تلبُّـس بَيِّنـة والمحـضر متقفـل صـح.. دوريـة القسـم كانـت معديـة، اشـتبهت في موكلـك وبعـد التفتيـش لقـت معـاه فَـرْد خرطـوش.

ردَّ ناجـي بلهجـةٍ عمليـةٍ أنـه لـن يتلـو عليـه مرافعـاتٍ طويلـةً ولا خُطَبًـا عصـماء كباقـي أبنـاء مهنتـه؛ فـكل مـا يطلبـه مـن النيابـة إعـادة تمثيـل الواقعـة طبقًـا للقانـون.. هـزَّ عـماد رأسَـه موافقًـا، اسـتدعى عـماد أحـد الحـرس مـن خاصتـه، أمـره بإخـراج الحِـرز، وبـدأ في قـراءة المحـضر وإعـادة تمثيـل الواقعـة.. أمـر العسـكري:

ـ حـط لـه يـا ابنـي الفـرد في كَمَـر البنطلـون زي ماهـه مكتــوب.

نهـض العسـكري وفعـل مـا أُمِـر بـه، فسـقط بنطلـون عيـد كاشـفًا عـن ملابسـه الداخليـة فضحـك ناجـي بانتصـارٍ قائـلًا:

- شـايف يـا باشـا.. إزاي بقـى هيمـشي في الشـارع بالمنظـر المُهَـزَّق ده، ده حتـى فيـه قَـطْع أنـا شـايفه مـن عنـدي.

أشـار عـماد للعسـكري بإرجـاع الحـرز إلى كيسـه البلاسـتيكي، والخـروج مـرةً أخـرى.. وابتعـد قليـلًا ليُجـري مكالمـةً هاتفيـةً وعـاد لناجـي قائـلًا:

ـ كان لازم أبلّـغ توصيـة نائـل بيـه للنقيـب أكمـل العطـار الـلي حـرَّر المحـضر.. هـو ذكي وشـاطر بـس لسـه جديـد عـلى شـغل الدايـرة.

قال ناجي مُستفهمًا:

- أنا مش فاهم حاجة يا عماد بيه.

قال عماد وهو يُصفق بيديه دون أن يصدر صوتًا عاليًا:

ـ أنـت طلعـت لعِّيـب فعـلًا زيِّ مـا اتقـال لي.. كنـت متوقـع إنـك ممكـن تلعـب في الحِـرز زي مـا عملـت قبـل كـده في قضيـة الحشـيش الـلي نائـل بيـه حـكى لي عنهـا ضمـن قضايـاك؛ لمـا دفعـت لأمـين الشرطـة عشـان يُقطـم صُبـاع حشـيش مـن الخمـس صوابـع الـلي اتمسـك بيهـم موكلـك

وقتهـا.. وطبعًـا كـده الحِـرْز قُـدام النيابـة بقـى فيـه سـت صوابــع؛ وبقــى غــير مُطابــق لمحــضر الشرطــة، يعنــي القضيــة باظــت.

ضحـك ناجـي وقـال إنـه لا يتذكـر هـذه القضيـة، كـما أنكـر هـذه الفعلـة "المخالفـة للقانـون".. طلـب منـه عـماد التـزام الصمــت، وأن يدعــه ليُــدلي بالتفســيرالذي توصَّــل إليــه؛ أخــبر ناجــي أنــه لم يجــد أي ثغــرةٍ لتحســين موقــف موكلــه ســوى وصــف ملابــس المُتهــم في محــضر ضبــط المتهــم، أردف قارئًــا مــن أوراق المحـضر أمامـه: "قميـص أبيـض وبنطلـون أسـود اسـتقرَّ في كَمَـره فـرد خرطـوش بـه ثـلاث طلقـات".. أكمـل حديثـه قائـلًا:

- واضـح إن حضرتـك كان عنـدك معلومـة بـإن الدايـرة عندنـا عينهـا عــلى صــبري العمــوري الــلي موكلــك شــغال تحــت إيــده...

قاطعه عيد قائلًا:

- وربنـا مـا أعرفـه يـا باشـا.. كل الـلي أعرفـه عنـه إنـه عضـو مجلـس شـعب عـن دايرتنـا، بـس وغلاوتـك مـا شـوفته في حيـاتي.

أشـار ناجـي إليـه كي يصمـتَ.. أكمـل عـماد حديثـه الموجَّـه إلى ناجــي قائــلًا:

- فسـيادتك عملـت بـلاغ كاذب بالليـل عـن عمليـة كان المفـروض رجالـة العمـوري يعملوهـا.. العمليـة اتلغـت في آخـر لحظـة بعـد مـا حـد بلَّـغ رجالـة صـبري إنها اتشـمت.. وطبعًا الناس في القسـم ماحسـوش إن ده طـُعم إنت رميته لهـم؛ عشـان الظبـاط التقـال يتحركـوا مـن القسـم وتعـرف تدخَّـل أي حـدّ مـن رجالـة المعلـم الحبـس الاحتياطـي، بعيـد عـن عيونهـم ومـن غـير مـا النقيـب أكمـل العطـار يشـك إن الموضـوع يخـصّ قضيـة المجـبراتي.

ضحك ناجـي سـاخرًا مـن التفسـير "السـينمائي" الـذي يُقـال، زجـره عـماد مؤكـدًا أنـه التفسـير الوحيـد لما حـدث، أردف قائلًا:

- وجـوه الحبـس المعلـم بتاعـك قلـع بنطلـون الخروج الأسـود الـلي كان لابسـه والـلي كان معلـق فـرد الخرطـوش في حزامـه ولبـس بنطلـون البيـت الأسـود الـلي الـواد بتاعكـوا اتحبـس بيـه، وطبعًـا لمـا أعدنـا تمثيـل الواقعـة الـلي حصـل قدامـي مـا طابقـش المحـضر، واللـه يرحمِـك يـا قضيـة.

ابتسـم ناجـي قائـلًا بلهجـةٍ خبيثـةٍ أنـه لـو كان لديـه نصـف هــذا الدهــاء لأصبــح أهــم محامــي في مــصر، ردَّ عليــه عــماد باسـتياء:

- أنــا عــارف كويــس النــوع الــلي زيــك؛ الــلي هــو راضي بالمكتــب البســيط والموكلــين الغلابــة، باعــد نفســه عــن حيتـان القانـون.. عنـدك Safe zone خاصـة بيـك بعيـدة

عـن أي صراع ممكـن يئذيـك، وأكيـد بتشـتغل في قضايـا كبـيرة مـن الباطـن لصالـح النـاس التقيلـة.. الـلي زيـك هـما الـلي ممشـيين العـدل عـلى مزاجهـم يـا ناجـي.

لم يندهــش ناجــي مــن ذكاء عــماد ولا مــن اســتخدامه لمصطلحـات إنجليزيـة أثنـاء الـكلام.. كان عـلى علـم بأنـه ابـن أسرة ثريـة؛ فوالـده مستشـار كبـير في محكمـة النقـض العليـا.. أخــبره ناجــي دون أن يفقــد هــدوءه أنــه يُبالــغ في تقديــره، وأقسـم أن القبـض عـلى موكلـه كان كيديًّـا.. سـأله عـماد مُتعصبًـا عــن السـبب الـذي سـيجعل قسـم الشرطـة تسـتهدف تاجـر سـلاح لأسـبابٍ شـخصيةٍ.. ردَّ ناجـي مُصححًـا أن المعلـم عيـد لا يُتاجـر في السـلاح؛ فهـو رجـل شريـف يمتلـك مقهـى في وسـط البلـد، وأردف قائـلًا:

- القهـوة دي بقـى سـاكن فوقيهـا جنـاب المأمـور؛ وواضـح إن ريحـة الدخـان بتضايـق المـدام بتاعتـه أو ممكـن حـدّ مـن الزبايــن بــصّ لبناتهــا بصّــة مــش كويســة.. حاجــة يعنــي مـش في إيـد الحـاج عيـد.. المأمـور طلـب مـن مـوكلي ينقـل مـكان القهـوة بـس طبعًـا مـا حـدّش هايفـرَّط في مـكان أكل عيشـه.

ضحــك عــماد وســأل ناجــي عــن المبلــغ الــذي تــم دفعــه لصاحــب المقهــى الحقيقــي كي يكتبهــا ويسـجلها باسـم موكلـه بتاريـخ قديـم لحـين انتهـاء التحقيقـات، وصـاح فيـه غاضبًـا أن

الجميـع يعرفـون نشـاطات عيـد المجـبراتي في تجـارة السـلاح.. ردَّ ناجـي بهـدوءٍ أن عملـه يعتمـد عـلى الـورق والمسـتندات؛ وذكَّـره بـأن "البيِّنـة عـلى مـن ادَّعـى".. كتـم عـماد غضبـه وسـأله بلهجةٍ لم تخـلُ مـن اللـين عـن حقيقـة كَوْنـه مـن أوائـل دفعتـه ورفـض التعيـين الجامعـي.. أومـأ ناجـي برأسـهِ إيجابًـا وقـال:

- الــكلام ده صحيــح.. أصــلي شــايف إن القانــون ده فــن يتحــسّ أكــتر مــن كونــه مــواد بتتلقــن، بعديــن ليــه أبيــع أسرار نجاحــي لطلبــة نصّهــم مــش مُهتــم والنــصّ التــاني ممكــن يســتغلوه ضــدي في المســتقبل؟

ســأله عــماد بخبــثٍ عــمَّا إذا كان الســبب الحقيقــي وراء رفضـه كان السـعي وراء التعيـين في النيابـة، وأنـه فوجـئ برفـض هـذا التعيـين بسـبب سـلوك عمـه المشـبوه.. ضحـك ناجـي قائلًا: "لا تسـتقضين إلا ذا مـال وذا حسـب؛ فـإن ذا المـال لا يرغـب في أمـوال النـاس، وإن ذا الحسـب لا يخـشى العواقـب بـين النـاس".. وأردف مُبتسـمًا:

- طبعًــا يــا عــماد بيــه أنــت حافــظ الجــزء ده مــن كلام الفـاروق عمـر بـن الخطـاب عـن القضـاء، حضراتكـم دايمًـا بتستشــهدوا بيــه بعــد كل حركــة تعيينــات.. فواضــح إن مؤسســة العدالــة مــش شــايفة فيــا المواصفــات المذكــورة.

استدعى عماد العسكري وجعله يصطحب عيد تمهيدًا لاستكمال إجراءات الإفراج عنه من القسم، وأشار لناجي بالانتظار، وقال له بصوتٍ هامسٍ:

- أنا حاسس بيك.. ليَّا واحد صاحبي مرّ بظروف زي ظروفك دي.

أجاب ناجي بابتسامةٍ صفراء:

- أنا مش عايز حدّ يحسّ بيا..

قال عماد مُحذرًا:

- الكلام اللي هاتسمعه دلوقتي ده أنا ماقولتوش؛ بس ماتلعبش مع الرُّتَب تاني، عشان عينهم عليك ونهايتك بتقرَّب.

***

لم أشعر بمثل هذا الغضب من قبل.. نزلتُ السلم بسرعةٍ لا تتناسب مع بنياني ولا عُمْري، توجهت إلى غرفة نرجس في الدور الأرضي من البيت، فتحتُ الباب بعنف؛ كانت نرجس مُستلقية على فراشها بملابس البيت تستعد لقيلولةٍ، فزِعَت من منظري ونظرت لي مستفهمةً، لم أرد وسحبتها من قدمِها بسرعةٍ ليسقط جسدها بصوتٍ مدوٍّ على الأرض.. جررتها ورائي حتى بلغت بهو الدوَّار، أوقفتها وأمسكتُ بشَعرها، صرخت فيها بغضبٍ:

- إنتي بتعملي إيه في فرحة لما بتكونوا لوحدكوا؟!

قالت وسط بكاء كلمات غير مفهوم لم أفهم منها سوى:

- هي قالتلك...

لم أتركها لتُكمل جملتها فقد تأكدت ظنوني؛ لطمتُ مُقدمة وجهها بكف يدي بقوةٍ ثلاث مرات حتى نزفت من أنفها، صفعتها على جانب رأسها بكلتا يديَّ وتعمدت أن أطرق أذنيْها بكفيَّ، لم أعبأ بصراخِها وركلتها في معدتها وقفزت على نهديْها داعسًا.. ركضتُ نحو المطبخ وأحضرتُ سكينًا حاميًا، صرختْ فور رؤيتها للسكين وحاولت النهوض؛ أحكمتُ قبضتي على شَعرها أثناء محاولتها للفرار، ألقيتها على الأرض وانكببتُ عليها بكامل وزني، ثبَّتُ مقدمة رأسها ساحبًا شعرها بيسراي وجززت شعرها بالسكين، لم أنتزعه كله ولكن ما فعلته كان كافيًا لتشويهها.. لطمتها على وجهها عدة مرات، حتى شعرت بالإنهاك وبفتور حماسي.. سكنتُ لثوانٍ سمعت خلالها بكاء فرحة فانهلتُ على نرجس بالضرب أكثر ليزدادَ صُراخُها، أحكمت ذراعي حول عنقها عازمًا على خنقها حتى احمرَّ وجهها وانغلقت عيناها تدريجيًّا، فتركت رقبتها كي لا تموت وضغطت على عينيْها بكلا الإبهامين.. انتقمت من هذه النَّجِسَة بقدر ما أحببت فرحة، وبقدر ما مررت به في الفترة الماضية من ضغطٍ انفجر فيها.

أعـرف أن هـذه اللحظـات لـن تـدومَ؛ فسـيأتي خفـر عطـوة لينقذوهـا مـن براثـن ثـورتي.. ولكننـي لـن أضيـع الوقـت في مجـرد ضربهـا مُسـببًا كدمـاتٍ سـتزولُ مـع الزمـن، توجَّهـت سريعًـا إلى الحـمَّام بحثًـا عـن مُنظـف الأرضيـات الحامـضي "ميـة النـار".. سـمعتُ صـوت محـاولات فتـح البـاب المُسـتميتة والمُلبيـة لاسـتغاثة هـذه اللعينـة، ركضـت عائـدًا إلى البهـو، فتحـت زجاجـة الحمـض لأجـد خفيريـن ضخمـيْ الجثـة يركضـان نحـوي مسرعـين بعـد أن تحطـم البـابُ تحـت أقدامهـم.. أمسـكا بي بكامـل قوتهـما، وانتـزع ثالثهـما زجاجـة الحمـض مـن يـدي بحـرص، لم أقاومـه فلـم أكـن أريـد إيـذاء غـير تلـك البغيضـة.. لحقهـم عطـوة ومـرَّت دقائـق مـن الصمـت التقـط فيهـا الجميع أنفاسَـه دون أن يتركـوني أفلـت منهـم، بـدأ جسـدي في الانهيـار.. ظلـت نرجـس تبـكي بصـوتٍ عـالٍ ككلـبٍ يعـوي جوعًـا.. أتـت زوجـة عطـوة وأعانتهـا عـلى النهـوض مُحـضرةً لهـا كوبًـا مـن المـاء.. ظـنَّ عطـوة أن شـجارًا عاديًـا قـد نشـب ولكننـي أخبرتـه قائـلًا:

- البهيمـة دي بتـضرب فرحـة وبتمدهـا عـلى إيديهـا ورجليهـا.. فاكـرة إن عندهـا الزهايمـر وهاتنـسى!

لم تـرد نرجـس ولم تُدافـع عـن نفسـها مُنخرطـةً في بـكاءٍ طويـلٍ، أبعـدت زوجـة عطـوة يدهـا عنهـا باشـمئزازٍ، نظـر لهـا عطـوة بغضـبٍ شـديدٍ حـاول أن يكتمـه.. أكملـتُ حديثـي قائـلًا:

- لمَّا أبوكي طفش وجرى ورا نجاسته وسابك إنتي وأمك لوحدكوا، وأمك حلفت ما هي مربياكي عشان بتفكريها بديل الكلب اللي كانت متجوزاه.. مين اللي خدتك زي ماتكوني عيل من عيالها واتكفلت بمصاريفك لحدّ ما بقيتي قدّ البقرة؟

قالت بصوتٍ متهدجٍ وبحنجرةٍ أعياها الصراخ إنها لا تُنكر فضل جدتها، حاولت تبرير موقفها فقالت إن فرحة كثيرًا ما تتغوط على نفسها وقت الطعام؛ فلا تستطيع أن تُسيطر على نفسها من الاشمئزاز.. صرختُ فيها بغضبٍ أنَّ فرحة تحمَّلت منها نفس الفعلة حين كانت رضيعةً.. حاولتُ أن أتحرر من الخفيرين ولكنهما كانا قويين بحق، قالت نرجس باكيةً:

- خلقي ما بقاش زي الأول.. أنا معدية التلاتين ولسه بنت بنوت...

قاطعتها بنفس الحِدَّة أن فرحة- سامحها الله- كانت تترجاني كي أتزوجها، وأحمد الله على أنني لم أفعل.. ابتلعت الإهانة قائلةً:

- آخر عريس اتقدملي كان من ست سنين؛ لا كلام الناس بيرحم ولا حتى جسمي بيرحمني!

- إنتـي عارفـة إن فيـه مليـون بنـت زيـك كـده؟!.. بـس ولا واحـدة فيهـم منعـت الرحمـة عـن أحـنّ واحـدة في الدنيـا عليهـا؟

نظـرتُ إلى عطـوة ووجَّهـت لـه حديثـي، طلبـت منـه أن يذكِّرهـا حـين أراد ذلـك "البغـل" الـذي أنجبهـا أن يختنهـا كباقـي بنـات القريـة.. مـن التـي تصـدَّت لـه وأفهمتـه الصـواب مـن الخطـأ والحـلال مـن الحـرام! طأطـأت نرجـس رأسَـها في الأرض وانخرطـت في بكائهـا الـكاذب كأنثـى تمسـاح بغيضـةٍ، أشـار عطـوة لزوجتـه كي تصعـد لتطمـئن عـلى فرحـة.. وقـال لي بلهجـةٍ صارمـةٍ إنـه سيُخبر أم نرجـس بمـا فعلـت، وسـيأمرها بـأن تنـسى أنهـا تعرفهـا مـن الأسـاس، وأصـدر فرمانًـا بأنهـا لـن تشـم نسـمة هـواء خـارج دوَّاره، ولـن تدخـل الحـمَّام إلا مـرة كل أسـبوع حتـى تشـعر بالمسـكينة التـي عذَّبتهـا بـلا ذنـب. وإن تقـدَّم أحـدٌ لخطبتهـا- وذلـك احتـمال مسـتحيل- فسـيرفضه معلـلًا أن الطحاويـة لم يُنجبـوا فتـاة تُدعـى نرجـس.

أومـأت بـرأسي موافقًـا عطـوة لأول مـرة منـذ أن كنـتُ في المهـد، وقامـت نرجـس مـن مكانهـا وانحنـت محاولـةً تقبيـل يـد عطـوة الـذي رفسـها بقدمـه، كادت أن تتوسـل إليـه بكلماتهـا المسـمومة.. ولكـن قاطعهـا صـوتُ زوجـة عطـوة القـادم مـن أعـلى صارخًـا:

- إلحقوني.. فرحة ماتت!

٧

رَحِيلٌ مَعَ إِيقَافِ التَّنْفِيذِ

الخميس 9 فبراير 2006

استلقَــت إيفلـين فـوق فراشِـها واضعـةً جهـاز اللابتـوب الخـاص بهـا فـوق ركبتيْهـا، للمـرة الثالثـة تراجـع بحثهـا المتعلـق بحالـة يحيـى، كان مشروعًـا قديمًـا عكفـت عـلى دراسـته قبـل زواجهـا وتقاعسـت عـن إكمالـه.. حتـى جاءهـا أمجـد بطريقتـه العلاجيـة التـي اقترحهـا عـلى صديـق عمـره المسـتعصية حالتـه. لم تنزعـج حـين علمـت برفـض يحيـى التـام لهـذا الأسـلوب العلاجـي؛ فمـن الممكـن لهـذا الحـل أن يـؤدي إلى وفاتـه، أو حـدوث انتكاسـة مرضيـة.

طـرق أمجـد بـاب غرفـة النـوم قبـل الدخـول، كـما عوَّدتـه أن يفعـل منـذ أن انتقـلا للعيـش معًـا، فأذنـت لـه بالدخـول.. وضـع أمامهـا قفصًـا معدنيًّـا يتحـرك بداخلـه نسـناس، صرَّح لهـا

أمجد وهـو يسـتريح عـلى المقعـد المقابـل للفـراش بأنـه لا يفهـم الفائـدة مـن إحضـار هـذا النسـناس؛ خاصـةً بعـد إجـراء التجربة عـلى عينـةٍ مـن الفـئران.. عكفـت إيفلـين عـلى مراجعـة نقطـة أخـيرة في بحثهـا؛ قالـت دون أن تنظـر إليـه أن رتبـة الرئيسـيات تُعطـي نتائـج أدق للتجربـة عـن القـوارض، وأن الأمـر ليـس هينًـا كي تـرضى بنتيجـةٍ مبدئيـةٍ.. بـدا أمجـد مسـتاءً مـن غلـو ثمـن النسـناس، أخبرهـا بنيتـه في أن يطلـب ثمنـه مـن ناجـي بعـد إعـلام الوراثـة.. سـألته عـن مسـتجدات حالـة يحيـى، فأجابهـا أنـه لا يـزال مُختفيًـا لليـوم الثالـث عـلى التـولي منـذ أن علـم بمـوت فرحـة، أردف موضِّحًـا أن شـخصًا كيحيـى لا يسـتطيع الهـرب طـوال العُمْـر؛ وأن اختفـاءه مدفـوعٌ بعـدم رغبتـه في أن يـراه النـاس عـلى مثـل هـذه الحالـة الصعبـة. اسـتلقى جوارهـا عـلى الفـراش وألقـى النظـر عـلى الكمبيوتـر مطالعًـا ملفهـا البحثـي، مراجعًـا أهـم نقاطـه، قـال لهـا:

- طريقـة العـلاج دي لـو نجحـت ممكـن نقنـع يحيـى يتخـلى عـن خصوصيـة مرضـه وتبقـى ورقـة بحـث مُحترمـة في تاريخنـا، ومـش بعيـد نتكـرم عليهـا.. أنـا بالشـق النفـسي وأنتـي بالشـق الكيميـائي.

ردَّت إيفلـين بفتـور أنهـم لم يضيفـوا للعلـم كثـيرًا؛ فأمجـد شـخَّص مرضًـا قديمًـا، وابتكـر لـه طريقـة عـلاج معروفـة؛ الإبـداع فيـه يكمـن في التنفيـذ ليـس أكـثر. أردفـت، وهـي تشـير إلى

بعض العناوين الرئيسية في بحثها، أنها لم تفعل الكثير أيضًا؛ عملت على بحثٍ قديمٍ لها مكوِّنة تركيبتيْن دوائيتيْن: الأولى قوامها البوتاسيوم والأدرينالين كي تُدخِل متعاطي التركيبة في متلازمة "لازاروس" بشكلٍ مُتَعمد..

قال أمجد مُستفهمًا:

- يعني يحيى هيدخل في حالةٍ مماثلةٍ لحالة الـ Hibernation؛ زي الحيوانات في المناطق الشتوية اللي بتنام لمدة طويلة عشان تهرب من البرودة؟

هزَّت رأسها نافيةً، أوضحت له أن الحالة التي تُسببها التركيبة ستكون مؤقتةً، أكملت شرحها مُؤكدةً أن يحيى ستظهر عليه كافة أعراض الموت كالمُصاب بالسكتة القلبية، لكنه سيكون حيًّا واعيًا بكل شيء حوله دون القدرة على التدخل فيه... بدا على أمجد الفهم، وقال:

- يعني نبضه هيقف تقريبًا وجسمه هيتخشب، هيكون مشلول حركيًّا بس إحساسه وإدراكه هيكونوا حاضرين؟

أومأت برأسها مؤمِّنة على حديثه.. سألها عن التركيبة الثانية.. أجابته بهدوء أنه سيتناولها على هيئة قرص معمول له غُلاف مزدوج؛ أو حسب تعبيرها: "اتنين coating"؛ أولهما كبير الحجم، سيُحدث له انتفاشًا في الوسط الحامضي المحتوي على الماء؛ حتى يظل القرص في المعدة دون أن

يهبط إلى الأمعاء.. حاول أمجد استيعاب كلامها، فهم الكثير هذه المرة، سألها بعد دقيقةٍ من التفكير:

- والغِلاف التاني هايكون مضاد لإنزيمات المعدة نفسها.. صح؟!

أجابت إيفلين بالإيجاب، مُتَحدثة عن سهولة التحكُّم في وقت ذوبانه؛ بحيث يكون مفعول التركيبة بطيئًا حسب الحاجة التي تقتضيها التجربة.. أكَّدت على خطورة هذه التركيبة وأن نجاحها ليس أكيدًا ولا يزال قيد التجربة، ولكنها مهمة كي تقوم بعمل إنعاشٍ ذاتي لقلبه حتى يعود النبض إليه وتدُّب الحركة في جسمه من جديد. أخبرها أن التركيبة الثانية ستكون خطة بديلة في حالة لم يستطع الوصول إلى يحيى في الوقت المناسب؛ فتنقذه من بقائه في المتلازمة حتى الموت.. قالت إيفلين إنه من الأفضل أن يصل إليه بعد تبديل الجثتين وإنعاشه بالطرق العادية أو باستخدام الصدمة الكهربائية Electric shock لو لزم الأمر.

وأردفت قائلةً إن هذا القرص سيقوم بدور المسيح في قصته مع القديس "لازاروس" حين أحياه من الموت كما كُتِب في العهد الجديد.. أعرب أمجد عن قلقه من أن يفوق يحيى مبكرًا قبل إتمام التجربة. شرح لها الخطة بإيجاز: سيتم إعلان وفاة يحيى أثناء وجوده بعيادة أمجد، سيطلب جُبران من المرضى الرحيل لضرورة إغلاق العيادة، وسيتم

إبـلاغ ناجـي أن يحيـى قـد أخـذ التركيبـة كي يعلـن لعائلتـه خـبر الوفـاة، سـيُنقل جثـمان يحيـى إلى المسـتوصف القديـم بنـاءً عـلى اقـتراح سـيصدر مـن ناجـي، وسـيقترح أيضًـا أن يتم الغُسْـل والتكفـين داخـل المسـتوصف ليـلًا عـلى أن تكـون الدفنـة صبـاح اليـوم التـالي، سـيلتقي حينهـا برجـال دكتـور أنـس ليأخـذ منهـم الجثـة البديلـة وينقلهـا إلى طحـا ليـلًا.. ويتـم تبديـل الجثتـين مـن خـلال البـاب الخلفـي؛ فالمسـتوصف مُقـام عـلى مسـاحةٍ كبـيرةٍ والمسـافة بـين البابـين سـتمنع انتقـال صـوت السـيارة التـي سـيُطفئ نـور كشَّـافها قبـل بلـوغ البوابـة الخلفيـة.

قالـت إيفلـين بعـد مهلـةٍ مـن التفكـير أن الخطـة تبـدو عـلى الـورق جيـدة، ولكنهـا سـتحتاج توفيقًـا كبـيرًا لتنفيذهـا، أعـادت التأكيـد عـلى ضرورة الوصـول ليحيـى وإنعاشـه قبـل أن ينتعـشَ ذاتيًّـا بفعـل التركيبـة الثانيـة.. عـلى فـرض أنـه سـيوافق عـلى إجـراء التجربـة مـن الأسـاس. قـال لهـا مُطَمئنًـا أنـه سـيقدر عـلى إقناعـه، أخبرهـا أن شـعور النـاس تجاهـه بعـد موتـه المزعـوم سـيكون عامـلًا مؤثـرًا عـلى موقفـه؛ فقـد يشـعرون بقيمتـه حـين تُعلـن وفاتـه، ويرحبـون بعودتـه حـين يعلنهـا.. أكمـل أمجـد حديثـه بحـماس أن حلمـه بالكتابـة قـد يتحقـق؛ فـدار النـشر التـي رفضتـه قـد تُعيـد النظـر في موقفهـا مـن كتابـه الـذي سيسـهل عليهـا تسـويقه عـلى أسـاس أن كاتبهـا حديـث الوفـاة، سـيلعبون بسـهولة عـلى مشـاعر النـاس.. أردف مقترحًـا:

ـ أنـا هابعـت لـه الأسـباب دي في رسـالة عـلى الموبايـل يمكـن يظهـر ويوافـق عـلى التجربـة.. أكيـد هـو بينتكـس دلوقتـي بعـد مـوت جدتـه ولازم نلاقيـه بسرعـة.

قامـت إيفلـين وأخرجـت قفـص النسـناس مـن غرفـة النـوم ووضعتـه في غرفـةٍ صغـيرةٍ اتخذتهـا معمـلًا منـذ فـترةٍ.. أخرجَـت بعـض المـوز الـذي ابتاعـه أمجـد لأجلـه، مزجـت قـدرًا مـن التركيبـة الأولى وقـدرًا أقـل مـن التركيبـة الثانيـة مـع الطعـام وقدّمتـه للنسـناس.. ضحكـت ضحكـةً خفيفـةً حـين شـاهدت حركاتـه، حاولـت أن تُداعبـه محدثـةً إيـاه بصـوتٍ خفيـضٍ. عـادت إلى غرفـة النـوم لتطفـئ النـور وتسـتلقي بجـوار زوجهـا مدثـرةً بالغطـاء، نامـت عـلى جنبهـا موليـةً ظهرهـا لأمجـد الـذي احتضنهـا مـن الخلـف، هـزَّت رأسـها مبتعـدةً عنـه، اعتـذرت لـه عـن فتورهـا تجاهـه بحجـة أنهـا "Out of mood".. سـألها أمجـد وهـو يُداعـب خصـلات شَـعرها الأشـقر بلهجـةٍ ناعمـةٍ إن كان هـذا الموعـد غـير مناسـبٍ لمـا يرغـب.. أجابـت مغمغـةً أنهـا تفكـر فيـمَ قـد يحـدث إن كان هنـاك خطـأ في التركيبـة؛ الأمـرُ الـذي قـد يُصيـب يحيـى بأعـراضٍ جانبيـة كالشـلل الدائـم.. أو المـوت!

***

لم أنتظـر لأتأكـد مـن خـبر الوفـاة الـذي أعلنتـه زوجـة عطـوة.. ثلاثـة أيـام لم أفعـل خلالهـا شـيئًا سـوى المكـوث مـع

رفعـت؛ لم أذق النـوم ولا الطعـام ولا السَّـكينة.. كذلـك فعـل رفعـت. لم نتوقـع قـدوم يـوم فرحـة؛ اعتقدناهـا خالـدةً كالزمـن، باقيـةً كبقـاء الأرض، روحًـا متمـردةً عـلى قوانين الطبيعـة البشرية الزائلـة.. وفيـمَ كانـت تُشـبه البـشر كي تفنـى مثلهـم؟!

اسـتلقيت عـلى فخـذ جـدي الأيمـن، كان جالسًـا عـلى المصطبـة الأسـمنتية الملتصقـة بالمسـجد، اتفقنـا- دون حديـثٍ- عـلى الاختبـاء مـن البـشر داخـل غرفـة نـوم الشـيخ صالـح البسـيطة المجـاورة للمسـجد، بالطبـع لم يعـترض الأخـير. كنـا ننتظـر حلـول الليـل وخلـود جميـع أهـل طحـا إلى النـوم حتـى نخـرج لاستنشـاق الهـواء الريفـي البـارد المتفاعـل مـع سـكون طريـق المقابـر ورائحـة زهـر البرتقـال المُنبئـة باقـتراب الربيـع ليكوِّنـوا مزيجًـا سـاحرًا مـن النشـوى الكفيلـة بفتـح شـهيتي للحيـاة بملذاتهـا في أي وقـتٍ آخـر؛ في وقـتٍ لم تتبخـر فيـه فرحتـي مـن روحـي.

غـطَّ رفعـت في نـومٍ غـير عميـقٍ انتُـزِع منـه جسـدُه عُنـوة، فخـارت قـواه دون أن يتحـرك مـن جلسـته، لم يعـد فخـذه مُريحًا لـرأسي كـما كان حـين كنـتُ صغـيرًا؛ قبـل أن يخـسر الكثـير مـن وزنـه، لكنـه لم يفقـد نفـس المقـدار مـن صحتـه ولا مـن طـول قامتـه؛ حتـى بقـى مهيبًـا في عينـي. كان- كفرحـة- يفضلنـي وناجـي عـن نسـل عطـوة.. أتذكـر حـين رُزِق شـكري بمولـوده الأول، قلـتُ لرفعـت مازحًـا إن اللـه قـد أطـال في عمـره لـيرى

أبنـاء أحفـاده؛ عـماد الجيـل الجديـد مـن نسـله.. هـزَّ رأسَـه نافيًا وأخـبرني أن ناجـي لم يتـزوج وأننـي لم أرزق بالمولـود بعـد.. فأيـن ذلـك الجيـل الجديـد الـذي أحدثـه عنـه!

وبرغـم أننـي حُرمـت مـن الإنجـاب، إلا أننـي لم أسـعَ للإتيـان بمـن يحمـل لقبـي الـذي لا أحبـه وصفـاتي التـي أبغـض أن أراهـا في شـخصٍ آخـر غـيري.. حتـى انعدمـت رغبتـي حـين انقشـعت غشـاوتي عـن وهـم حبـي لمـي، فليلعـن اللـه الشـيطان الـذي أوهمنـا بانتظـار حيـاةٍ زوجيـةٍ سـعيدةٍ قوامهـا التفاهـم والاهتـمام والحـب الـذي سـينتج عـن عِـشرة طيبـة ومـودة نسـتكين إليهـا.. لم أعـرف حـين صارحتهـا برغبتـي في الـزواج منهـا أننـي سـألعن الفتـور والـبرود الـذي سنعيشـه لمـدة عـشر سـنين، اقتنعـت أن زواجنـا في سـن الثلاثـين سـيجعلنا أكـثر نضجًـا وتحمـلًا للمسـئولية؛ أقنعـت نفـسي أنهـا مناسـبةٌ لي أكـثر ممـن هـن أصغـر منهـا.. مـرَّ أمامـي تتابـع زمنـي غـير مُرَتـب لذكريـاتي معهـا، ومعانـاتي حـين شـهدت تحالـف ناجـي مـع عطـوة؛ ليصبـح مسـخًا يحمـي شـيطانًا.. أفـكاري غـير مرتبـةٍ وأعتقـد أننـي سأسـتغرق في النـ...

- أنا حلمت بفرحة..

هكـذا اقتحـم رفعـت خواطـري بجملـةٍ جعلتنـي أنتفـضُ مـن مـكاني وأطلـب منـه أن يقـص علـيَّ مـاذا رأى، فقـال لي بـألم ممسـكًا قدمـه:

ـ أنت طول الليل نايم على رِجلي يا بغل؟

اعتــذرت لــه طالبًــا أن يحــكي الحلــم.. أجــاب بغضــبٍ مصطنـعٍ أنـه لا يذكـره.. كـررت اعتـذاري مُقَبِّلًا فخـذه، وقلـت:

ـ حقــك عليًّــا.. بعديــن رِجلــك نمِّلــت عشــان أنــت أصــلًا سُــكرة.

علمــت أنــه يُمازحنــي لنتنــاسى فاجعتنــا فيــما فقدنــا.. ردَّ مُتهكــمًا أنــه لا يعــرف مــن أيــن ورثــت ثقــل الظــل والمــزاح السـخيف، أجبتــه مُبتســمًا:

ـ أكيد أمي كانت بتتوحم على عطوة.

تحركـت شـفتاه بضحكـةٍ خفيضـةٍ متحشرجـةٍ، قـال بـأسى أنـه لا يعـرف كيـف لأرضٍ خصبـةٍ كفرحـة أن تنجـب مثـل هـذه الزرعـة الفاسـدة. أخـبرني أنـه رآهـا في المنـام مُرتديـة فسـتان زفافهـا، كان يـأكل الكبـدة كعادتـه، فنهرتـه قائلـةً إن صحتـه لم تعـد تتحمـل أكل الشـوارع.. نظـر في عينـي مقاومًـا دمعـة كادت تفـرُّ مـن عينيـه وأكمـل مـا رأى: قالـت لـه فرحـة إن الدنيـا التـي نتقاتـل عليهـا مجـرد وهـم، تبـدو كبـيرةً طالمـا تحيـا وتسـعى بداخلهـا.. ولكـن حـين تبـدأ روحـك تصعـد مـن سـماء إلى الأخـرى تسـتوعب الـدرس؛ تفهـم كـم هـي صغـيرة، جَـرم صغـير مـن كـونٍ عظيـم.. طلبـت منـه المزيـد، فـأردف قائـلًا:

- قالـت إن كل حاجـة في الدنيـا مهـما تبـان حلـوة بتكـون صغـيرة قصـاد الـلي عنـده فـوق.. مـش كل المـوت شر يـا يحيـى.

سألته بنفس اللهفة:

- طب هي مبسوطة؟!

- فـوق مـا تتخيـل.. رجعـت شـابة بنـت الإيـه، وقعـدت تتريـق عـلى هيئتـي تقـول لي مالـك كـبرت كـده!

لم أسـأله المزيـد، ظللـت في صمتـي مُبتسـمًا؛ طُفـت في ملكوتهـا متخيـلًا رائحـة حضنهـا ومـدى دفئـه، هائمًـا في ملامحهـا وضحكتهـا التـي لم تتبـدل، متذكـرًا صمودهـا أمـام مـوت أبي وظلـم عمـي وانسـحاب جـدي وخـذلان جسـدها الـذي خـاض حربًـا طويلـةً مع أكـثر مـن خصـم لا يتسـم إلا بالخسـة والقتـل غـير الرحيـم.

تأملـت ملامـح رفعـت التـي لم تشـتعل شـيبًا كفرحـة؛ منـذ يومـه وهـو يحـب الحركـة والأكل الصحـي، كلـما أصـلي بجانبـه أسـمعه يدعـو اللـه سـاجدًا أن يميتـه واقفًـا عـلى قدميْـه وألا يحوجـه إلى أحـد.. أعتقـد أن اللـه قـد اسـتجاب؛ أراه محتفظًـا بقـدرٍ مـن حـلاوة وجهـه عـلى الرغـم مـن تخطيـه الثمانـين عامًـا، لم تنكمـش ملامحـه ولم تنحـنِ قامتـه بالقـدر الكبـير كمـن هـم في سـنه.. أتذكـر- قبـل رحيلـه مـن بيـت العائلـة- أن

فرحـة كانـت تغـارُ عليـه مـن جميـع النسـاء؛ فقـد بـدت وكأنهـا تتقـدم في العمـر أسرع منـه بكثـيرٍ. قـال لي بهـدوءٍ إن فرحـة أبلغتـه رسـالةً خاصـةً مـن أجـلي، سـألني عـمَّا إذا كنـت مُسـتعدًا لسـماعها.. أجبتـه بـدون تـردد أن يبلغنـي الرسـالة.. قـال:

- بتقـول لـك لـو عايـز تشـوفها في أحلامـك اقتـل كابوسـك بسـكينة بـاردة، ومتخافـش منـه؛ المـوت لمـا بييجـي في غـير معـاده بيكـون جبـان.. فيـا تعيـش صح يـا تاخـد المـوت في حضنـك، ماتقبلـش بنـص حيـاة.

قلـت لـه إن هنـاك رسـالةً أخـرى مـن القـدر كي أحـاربَ كابـوسي؛ فقـد فتحـت الهاتـف منـذ قليـل لأجـد رسـالةً مـن أمجـد طمأنتنـي إلى تنفيـذ التجربـة ونتائجهـا، أقنعنـي بالسـير معـه في نفقـه المظلـم.. ليـس معـي إلى نـورٍ صغـيرٍ؛ إما يسـاعدني عـلى العبـور، وإمـا ينطفـئ لتسـود العتمـة وألحـق بفرحـة. لم يجـب رفعـت، فأعـدت مضمـون كلامـي وانتظـرت الـرد فلـم يـأتِ.. فصحـتُ فيـه قائـلًا:

- ما ترد عليَّا!

- عايزني أقول إيه؟

- تفتكر دي رسالة من ربنا؟!

أشار إلى قلبي وقال:

- اسأل فرحة!

ثم تنهَّد تنهيدةً كبيرةً قائلًا:

ـ فاكـر لمَّـا قولـت لي إن الـلي أبـوه بيمـوت ضهـره بيتكـسر، وإن الـلي أمـه بتمـوت قلبـه بيتكـسر.. زوِّد عـلى كلامـك إن الـلي حبيبتـه بتمـوت روحـه بتتكـسر.

قلتُ بأسى:

ـ طب واللي جدته بتموت.

ـ فرحته بتتكسر.

بكيـت بحـرارةٍ بعـد أن ظننـت أن عينـي قـد عقـرت عـن الدمـوع، لا أظـن أن مـا أفعلـه الآن بـكاء عـين؛ فهـو بـكاء روح خـسرت جـزءًا عظيـمًا منهـا، روح مُطَالَبـة بالتعـرُّض للتشـويه مـن خـلال تجربـةٍ أليمـةٍ؛ حتـى تسـتطيع اسـتكمال مـا قـُدِّر لها مـن الحيـاة، لا أعلـم سـببًا لحـرارة الدمـوع وانقبـاض القلـب؛ أهـو حُـزني عـلى فـراق الراحلـين أم خـوف مـن أن ألحـق بهـم. قـال رفعـت مبتسـمًا:

ـ نسيت أقول لك.. فرحة قالت حاجة كمان.

ـ خير يا جدي؟

ردَّ ضاحكًا:

ـ قالـت بطلـوا تعـددوا عليـا زي الولايـا.. أنـا في مـكان أحسـن مـن بلدكـوا كلها.

ابتسـمت حتـى خجلـت ابتسـامتي مـن دفء عَـبراتي، لم أهتـم بالتحقـق مـن صـدق كلام رفعـت عـن رؤيـاه؛ فقـد سـمعت كل مـا أردت سـماعه لأخـدر أحـزاني، نهضـت مـن مـكاني عازمًـا عـلى قبـول عـرض أمجـد والخـوض داخـل تجربتـه، أخـبرت رفعـت بقـراري.. حيَّـاني بقلـقٍ.. أخبرتـه دون أن أنظـر إلى عينيْـه أن ينتظـر عـودتي خـلال ثلاثـة أيـام؛ فـإن غبـتُ أكـثر مـن هـذا.. فليترحَّـم عـليَّ وليـد عـلِّي أن أجتمـع بفرحـة.

٨

صِرَاعٌ نِهَائِيٌّ

الجمعة 10 فبراير 2006

لم أدرِ كيف وصلتُ إلى عيادة أمجد؛ مرَّ عليَّ اليوم طويلًا غير واضحِ المعالم.. كنت كالمُخدَّر منذ عُدت إلى زوجتي بعد غياب بضعة أيام، احتجتُ إلى راحةٍ- لم أنل منها قسطًا- قبل معركتي اليوم مع الموت؛ الصراع الأخير الذي سأسترد بعده كرامتي أو ستستكين روحي إلى الأبد. عاتبتني مي على غيابي غاضبةً من الحالة اللامبالية التي كنتُ عليها.. أدركَتْ بفطرتها أن ثمة خطأ بي، خاصةً حين صليتُ كل الفروض منذ استيقاظي؛ فلم تعتدني مواظبًا على صلاتي بالشكل المثالي. أكلت؛ علَّها آخر وجبة لي.. ما لبثت أن غسلت يديَّ حتى أفرغت كل ما في جوفي، شكت أن كوابيسي قد تملَّكت مني.. فوعدتها أن كل شيء سينتهي اليوم.

أعـرفُ أن المـوت خَصـمٌ قـوي، وأننـي أعـزل بـلا سـلاح؛ فـلا طاقـة ولا رباطـة جـأش.. ولا إيمـان. فـما هـي نقـاط قـوَّتي أمامـه؟.. لا أمتلـك سـوى الحـظ الـذي لم يُنصفنـي طـوال أربعـة عقـود. سـمعت فيـما سـبق عـن أسـطورةٍ لا أتذكـر الكثـير مـن تفاصيلهـا؛ أعتقـد أنهـا كانـت تحـكي عـن طبيـبٍ ذهـب لعـلاج فتـاةٍ جميلـةٍ.. فوجـد المـوت مُتجسِّـدًا عنـد رأسـها تمهيـدًا لقبـض روحهـا، فـأدار الفـراش سريعًـا ليبعـد رأسـها عـن المـوت الـذي تحـرَّك حتـى بلـغ الـرأس ثانيـة.. ظـلَّ الطبيـبُ يُديـر الفـراش والمـوت يُطـارده حتـى مـلَّ الأخـير وتـرك الفتـاة لمُنقِذهـا الـذي أحبهـا. فهـل سـيرضى المـوت معـي بهزيمـةٍ مؤقتـةٍ؟!.. هـل سـيتركني أحيـا الباقـي مـن عمـري في سـلام؟.. أم أن ذلـك الباقـي سـينتهي اليـوم؟..

أخرجنـي أمجـد مـن خواطـري حـين طلـب منـي أن أهـدأ وأن أشرب كـوب الليمـون الـذي أتـاني بـه جُـبران؛ فيجـب أن تمـر فـترةٌ كافيـةٌ مـن مـدة الكشـف وتسـير الأمـور بشـكلٍ طبيعـي أمـام المـرضى المنتظريـن بالخـارج؛ فمعظمهـم مُصـابٌ بالبارانويـا وسيتشـكك في الأمـر إذا لم يتـم حبكـه بالصـورة الصحيحـة.. طلـب منـي أمجـد أن أصـف لـه شـعوري اللحظـي.. أجبتـه أننـي لا أشـعر بنصفـي السـفلي، ولا أسـتطيع تجميـع أفـكاري.. نظـر لسـاعته معلنًـا انتهـاء وقـت الجلسـة المعتـاد، أخـرج زجاجـة صغـيرة وطلـب منـي أن أتنـاول التركيبـة.. تـرددت لدقيقـةٍ قبـل أن أتنـاول منـه الزجاجـة، ألقيتهـا عـلى الأرض صارخًـا أننـي لا

أريـد المـوت.. حدجنـي أمجـد بغضـبٍ طالبًـا منـي أن أخفـض صـوتي، اقـترب منـي وقـال بهـدوء إننـي لـن أمـوت.. نهضـت مـن مـكاني قائـلًا إننـي لـن أخـوضَ التجربـة، وسـأذهب لقضـاء الأيـام الباقيـة لي بصحبـة رفعـت في صومعتـه.. أشـار نحـو بـاب الغرفـة قائـلًا:

- براحتك مش هاقدر أجبرك على حاجة.

كاد أن يقـول شـيئًا إضافيًّـا.. لم أعبـأ بكلامـه وخرجـت مندفعًا مـن غرفـة الكشـف كأننـي أهـرب مـن الجحيـم، وصلـت إلى سـلم العـمارة وبـدأت النـزول، تعجبـت أن أمجـد لم يركـض ورائي لإقناعـي باسـتكمال التجربـة؛ فأنـا أعلـم أهميـة التجربـة في مسـيرته العلميـة...

كيـف أتعـرَّق بهـذه الغـزارة في أواخـر الشـتاء؟!.. ولمـاذا أجاهـد لالتقـاط أنفـاسي؟.. وحـين أتحسـس نبـضي لا أكاد أشـعر بـه!

الآن أفهـم إصرار أمجـد عـلى أن أحتـسي الليمـون، أسـتوعب عـدم معارضتـه لي في قـرار العـدول عـن التجربـة؛ لقـد أراد أن تبـدو حادثـة وفـاتي طبيعيـة تمامًـا. أرى جُـبران يركـض نحـو جسـدي الـذي شُـلَّت حركتـه بصحبـة بعـض المـرضى وخلفهـم أمجـد.. حاولـوا إفاقتـي بالطـرق التقليديـة ولكـن أمجـد وحـده يعلـم أننـي لـن أنهـض الآن.. اقـترب أمجـد وشرع يقيـس نبـضي، ضغـط عـلى صـدري مُزَيِّفًـا فزعـه عـلى صديـق عمـره ويصيحُ فيَّ

كي أستيقظ.. أذكر أنه أخبرني بوجود تركيبة ثانية يجب أن آخذها على شكل قرص سميك حتى تحدث عملية الإنعاش ويعود نبضي مجددًا.. فأين هي؟!

نظر إليهم أمجد، أخرج هاتفه متصلًا بناجي، بلَّغه آسفًا بخبر وفاتي بصوتٍ عالٍ.. اقترح أحد الواقفين نقلي إلى المستشفى لكي يتم إنعاشي هناك، صاح أمجد فيه مُنهيًا النقاش أو أي نقاش مماثلٍ قائلًا إن أحدًا لن يحرصَ على حياة صديق عمره أكثر منه، ولكنه الآن في عداد الموتى. أقنعني تمثيله لدرجة جعلت هاجسًا يستيقظ بداخلي: أمن الممكن أن يكون أمجد قد اتفق مع ناجي على تلك الخطة؟.. وأن ما تناولته كان مجرد سُمٍّ عادي، وأن قرص الإنعاش الثاني مجرد أكذوبة؟.. لكن هذه الفرضية تعني أنني ميت الآن!

اعتذر أمجد لمرضاه تاركًا جُبران ليحدد معهم ميعادًا آخر بعد ثلاثة أيام، لم أعرف إن كان قد أخبَرَ جُبران أمجد بالخطة أم لا.. لكنني استشففتُ من ردود أفعاله الصادقة أنه تأثر بما حدث لي؛ عكس رب عمله. حملني أمجد بمساعدة بعض الجيران الذين تعاملوا معي كجماد فأنزلوني على السلم دون رفق. تعجَّبتُ من كوني أكون مُتخشبًا لا أستطيع الحركة كالأموات، وبرغم هذا أرى وأسمع وأشعر بكل ما يحدث حولي.. لم أعرف هل قصدت إيفلين أن

تحافـظ التركيبـة عـلى إدراكي.. أم أنـه قـد حـدث مصادفـة.. أم أننـي أهلـوس متوهـمًا بـإدراكي لما يحـدث.. السـؤال الأهـم: هـل هـُزِمت مبكـرًا في معركتـي مع الموت بخيانـة مـن أمجـد وناجـي؟!

أجلســني أمجـد برفـقٍ عـلى الكنبـة الخلفيـة للسـيارة، شـكر الرجـال الذيـن حملـوني تاركـين أمجـد، ضربـوا كفوفهـم مُتحسريـن عـلى حـال الدنيـا التـي خُطِفـتَ منها والموت الـذي يـأتي بغتـةً والكفـن الـذي بـلا جيـوب.. لا أعـرف إن كان لكفنـي جيـوب فـماذا كنـت سـأضع فيهـا! ذبـح أمجـد شـكوكي بعـد تحرُّكنـا بدقائـق حـين توقَّـف، ونـزل ليهمـسَ في أذني مطمئنًـا أن كل شيء يسـير عـلى مـا يُـرام، فتـح فمـي عَنـوة ليُعطينـي القـرص الضخـم متبعًـا إيـاه بنصـف زجاجـة ميـاه لم أشـعر بهـا أثنـاء الابتـلاع.

أظـن أن حالتـي الحاليـة لم تتكـرر كثـيرًا مـع البـشر؛ فكيـف أشـعر بـكل مـا يحـدث حـولي دون القـدرة عـلى تحريـك أي شيء غـير جفنـي عينـي؟!.. لا أعـرف ولا توجـد لـدي الخـبرة الطبيـة لأفـسر أي شيء، ولكـن مـا أظنـه أن إيفلـين هـذه إمـا عبقريـة أو محظوظـة.. مـع افـتراض أن مـا يحـدث لي حقيقـي وأننـي لا أزيـف هـذا الإدراك، أو أهلـوس متخيـلًا الموقـف برمتـه!

أعتقـد أننـي قـد غفـوتُ قليـلًا داخـل السـيارة التـي لم تكـن نومتهـا مريحـةً، لا أظـن أن أمجـد يُـدرك أننـي أشـعر بـالألم أصلًا؛

لا يريـد إلا أن أكـون واعيًـا أثنـاء التجربـة ليـس أكـثر.. أفقـت مـن خواطـري عـلى توقُّـف السـيارة وصـوت عطـوة المختلـط بصيـاح بعـض رجـال العائلـة الذيـن حاولـوا إقنـاع أمجـد بعـدم ضرورة مبيـت جثـماني في المسـتوصف وأن جميـع بيـوت العائلـة مفتوحـة لأجـلي حتـى الدفـن، ولكـن ناجـي عضَّـد موقـف أمجـد وقـال بمنطـقٍ سـليمٍ إن هـذا الحـل الأنسـب؛ حتـى لا يفـزع أحـد مـن الطحاويـة بعـد أن تشـاءموا مـن المـوت الـذي اجتـاح ثلاثـة أرواح مـن نسـلهم في وقـتٍ قصـيرٍ.. واقـترح أن يتـم الغسـل والتكفـين الآن عـلى أن تقـام صـلاة الجنـازة والدفـن بعـد ظهـر الغـد.

وافـق عطـوة عـلى مضـضٍ دون أن يفهـم سـبب عجلـة ناجـي وأمجـد.. واتصـل بالمُغسِّـل للحضـور فـورًا، أرسـل أحـد خفـره لإحضـار الكفـن، وأمـر آخـر بتنظيـف غرفـة الكشـف في المسـتوصف، وطلـب مـن ثالـث المبيـت أمـام بـاب المسـتوصف لحراسـة جثتـي.

شـعورٌ غريـبٌ أن تسـمع اسـمك يُنـادى في مكـبر صـوت المسـجد ليُعلِـم أهـل القريـة بوفاتـك: "البقـاء للـه والـدوام للـه.. تـوفي إلى رحمـة اللـه تعـالى أسـتاذ يحيـى الطحـاوي قريـب كل مـن..."!

سـمعت خفـيرًا مـن ذوي عطـوة يخـبر زميلـه أننـي لم أكـن معروفًـا لـدى أهـل البلـد، وأن مـن عرفـوني لم يُحبـوني كثـيرًا..

وكأننـي كنـتُ أتلهـف لحجـز مـكانٍ في قلوبهـم الرحبـة التـي تسـع الجميـع!.. أجابـه الآخـر بـلا مبـالاة أن مـا يزعجـه الآن أنـه لـن يشـاهد مبـاراة نهـائي كأس إفريقيـا بـين مـصر وسـاحل العـاج.. لا يعلـم أنـه يحـضر الآن مبـاراة نهـائي أكـثر قـوة وتنافسـية؛ أخوضهـا ضـد خَصْـم أقـوى منـي كثـيرًا، صراع أخـير الهزيمـة فيـه تعنـي الفنـاء بـلا أدنى فرصـة للثـأر.

***

أمـر عطـوة خفيريْـه بحمـل يحيـى إلى إحـدى غرف الكشـف داخـل المسـتوصف، والتـي تـم تنظيفهـا بعنايـة، ووضـع مـلاءة جديـدة فـوق سريـر الكشـف بداخلهـا تمهيـدًا لاسـتقبال جثمانه. أتى المغسـل متعجـلًا خلفـه زوج المسـاعدَين اللذيـن أتيـا برفقتـه؛ حمـل أكبرهـما سـنًا خشـبة المغسـلة ذات الأربعـة أرجـل، وحمل الأصغـر كيسًـا بلاسـتيكيًّا أسـود اللـون.. قـال المُغَسِّـل لـلأول:

- يـلا يـا سـعد، خـد محمـود وروحـوا قلَّعـوا المرحـوم ونحنحـوه لحـدّ مـا أخلـص كلمتـين مـع الحـاج عطـوة..

فقـال الأصغـر سـنًّا إنـه سـينتظر بالخـارج؛ فلـن يقـدر عـلى مشـاهدة المنظـر.. نهـره المُغَسِّـل الـذي اتضح أنـه أبـوه، أخـبره أن هـذه مهنـة العائلـة منـذ زمـنٍ، ولـن يسـمح لـه بـأن يوقـف هـذه السلسـلة، سـأله مُسـتنكرًا:

- عُمرك سمعت عن جزار بيخاف من الدم؟!.. عارف إن أول مرة صعبة، بس التانية هتتعود، والتالتة هتتحايل عليَّا أشغّلك معايا.

قال الابن بحدة أقل وتذمر أكثر إن زملاءه في المدرسة يُعايرونه بمهنة أبيه واصفينه: "ابن الحانوتي"، وأنهم يشمئزون من الأكل معه والجلوس إلى جواره.. تألَّم المُغَسِّل للحظة، ابتلع حزنه حفاظًا على منظره أمام الطحاوية وخفرهم، تغلَّب على ألمه بصفعةٍ على وجه ولده وقال بحزمٍ:

- يبقى العيب على المدرسة اللي ماعلّمتش العيال تحترم الناس، مش العيب على أبوك اللي بيأكلك واللي لولاه كانت جتت الخلق عفّنت في الشوارع.

أمره بلهجةٍ أقل حدة أن يلحق بمساعده سعد كي يُعلّمه الشغل.. ثم ذهب ليتفق على مستحقاته مع عطوة، بدأ حديثه بمجاملةٍ قائلًا إن يحيى كان أخًا عزيزًا وأنه لن يتقاضى قرشًا عن غسله، ولكن سرعان ما تطرق إلى تفاصيل عمله ذاكرًا تكاليف كل مرحلةٍ، أخرج عطوة محفظته ولكن ناجي أمسك يده، وقال بلهجةٍ حاسمةٍ إنه سيتكفل بكافة المصاريف.. ردَّ عطوة بحزنٍ مفتعلٍ أن معزته ومعزة يحيى من معزة أبنائه.. هزَّ ناجي رأسه نافيًا، أخبره بنفس الجدية أن كافة مصاريف أخيه سيتم تسديدُها من خير

أبيـه الباشـمهندس أحمـد رحمـه اللـه. لم يتـمادَ عطـوة في عرضـه كثـيرًا حتـى لا يُقبـل بـه، لم يقـل عطـوة إنـه كان ينـوي تدويـن كل قـرش دفعـه؛ كي يُطالـب بـه مـن مـيراث يحيـى لاحقًـا.. أدرك ناجـي أن عطـوة ليـس جـادًّا في "عزومـة المراكبيـة" تلـك؛ فسـأل المُغَسِّـل بلهجـةٍ عمليـةٍ عـن القيمـة الإجماليـة التـي يُريدهـا.. ردَّ المغسـل بابتسـامةٍ صفـراء أنـه يريـد نفـس التكلفـة التـي أخذهـا يـوم وفـاة حسـن مُضافًـا عليهـا خمسـون جنيهًـا.. أطلـق ناجـي سُـبَّةً وقـال لـه:

- إنت جاي تنصب على الطحاوية؟.. خُد خشبتك واتكل.

ردَّ المُغسـل بلهجـةٍ مُتوسـلةٍ أن الغـلاء زاد، وأنـه بلـغ مـن الكـبر عتيًّـا، وحـين يمـرض لـن يجـدَ مـن يـصرف عـلى بيتـه؛ فجميـع أولاده هاجـروا خـارج مـصر وصغـيره لا يُحـب العمـل.. لم يبـدُ عـلى ناجـي التأثـر بحديثـه.. فأكمـل المُغسـل أنـه قـد أتى بـكل اللـوازم؛ بدايـةً مـن الخشـبة حتـى زيـت الكافـور، وأن كل مـا يريـده قـدر مـن المـاء وطسْـت واسـع أو أي إنـاء مُشَـابه.. تدخَّـل عطـوة مُعاتبًـا:

- فالـح بـس كل مـا تشـوفني تقـول لي "كل مـن عليهـا فـان، والكفـن مالـوش جيـوب يـا حـاج"!

ردَّ المغسل بنفس الابتسامة الثقيلة:

- أنا هابقى أفصَّل لي كفن بجيوب.

قال ناجي للمغسل أن يُنهي الغُسْل سريعًا.. قبل أن يدخل المستوصف أوقفه عطوة مُستدركًا:

- وأنت مروَّح عدي على منصور بتاع الرخام؛ خليه ينحت لنا رخامة نحطها على التربة باسم المرحوم "يحيى أحمد الطحاوي" وبتاريخ إنهاردة.

***

ضبط مساعد المُغسِّل من وضعية جسدي على مغسلته الخشبية، بدأ يخلع عني ملابسي، انتزع خاتم زواجي من يدي دون رفقٍ، وشرح لابن رب عمله ما يفعل، أمره بصوتٍ خفيضٍ أن يفتح الحقيبة ويأتيه بقطعةٍ من القماش تستر عورتي، كما طلب منه إخراج القفازات البلاستيكية التي سيرتدياها أثناء الغُسْل.. أومأ الصغير محمود برأسه موافقًا دون نقاش.. خلع المساعد عني الباقي من ملابسي ساترًا نصفي السفلي بقطعة القماش، أمر الغلام بثني ساقيَّ على فخذي وفردهما ثم شرع بدوره في ثني ذراعي مقربًا الساعد من العضد تارة ومباعدًا تارة أخرى.. وقال:

- كده إحنا بنليِّن الجثة عشان ما تخشبش زيادة، ولو كنا هنتأخر عن كده كان المفروض نحط حاجة تقيلة على بطنه عشان ما تتنفخش.. بس الجدع ده مش متخشب أوي الحمد لله، شكله كان راجل صالح.

أثــارت عبارتــه الســخرية بداخــلي.. ســأله محمــود عــن العَلاقـة بـين تصلُّـب الجسـد وبـين كـوني شـخصًا مسـتقيمًا.. فكَّـر سـعد قليـلًا وقـال وهـو يهـز كتفيـه بلامبـالاة:

- أي حاجـة بتمـشي سـهلة مـن لحظـة المـوت لحـدّ الدفـن تبقـى فـال حلـو عـلى الميـت.

هزَّ محمود رأسه بلا اكتراثٍ فأردف سعد:

- يلا عشان ننحنحه.. ارفع رجليه فوق.

نفّـذ الغـلام الأمـر عـلى مضـضٍ، فـشرع سـعد يرفـع ظهـري أيضًـا ضاغطًـا عــلى معــدتي.. أحسســتُ بتــسرُّب يخــرج مــن أحشــائي عــلى الخشــبة، شــعرت باشــمئزازٍ كبــيرٍ مــن نفــسي وكذلـك فعـل محمـود، أمـره سـعد بتكـرار العمليـة حتـى شـعر أنـه قـد نظفنـي مـن الداخـل جيـدًا، ثـم نظّـف مـا خـرج منـي دون أن يكشـف سـترتي. وصـل المغسـل مـع عطـوة الـذي وقـف بعيـدًا وتبعـه خفـيران حامـلان دلويـن مـن الميـاه، أمـر المُغَسِّـل مسـاعده بإغـلاق عينـيَّ، ربـط قطعـة مـن القـماش مـن فـكي إلى قمـة رأسي حتـى لا ينفتـح فمـي، شـعرتُ بفـزعٍ لم أمـرَّ بمثلـه مـا حييـت، كان الكابـوس يتحقـق بصـورةٍ أبشـع بكثـيرٍ مـما كان يصوِّرهـا لي عقـلي؛ كل هــذه العيــون تــراك عاريًــا عاجــزًا، كل هــذه الأفــواه تتحــسر عــلى حياتــك، كل هــذه الأيــدي تعبــث بجسـدك محاولـةً تنظيفـه.

أمـر المغسِـل ابنـه بإلقـاء الخرقـة التـي مسـح بهـا أسـفل عَجُـزي بعيـدًا، سـأله محمـود في حـيرةٍ وبصـوتٍ خفيـض حتـى لا يسـمع عطـوة الـذي شـعرت أنـه يقـف بعيـدًا ويخـاف الاقـتراب والنظـر:

- ليـه يابـا جبـت العمـدة عطـوة يحـضر الغُسـل مـع إن أسـتاذ ناجـي أقـرب للمرحـوم؟

قـال المُغسـل هامسًـا إن أهـل العلـم اسـتحبوا أن يحـضر أكـثر أقربـاء الميـت ارتكابًـا للمعـاصي البيِّنـة؛ حتـى يتعـظ قبـل أن يحـين أجلـه.. هـزَّ الولـد رأسـه في فهـمٍ.. أمـر المُغسِّـل مساعده أن يفـرك الصابـون في طبـق الميـاه حتـى تظهـر الرغاوي عـلى سـطحها، شرح لولـده قائـلًا أنهـم الآن يقومـون بـ"غُسْـل النظافـة"؛ يبـدأ بغسـل الـرأس جيـدًا مـع الحـرص عـلى عـدم فتـح فـم الميـت أو عينيـه وتجنُّـب تسـاقط الشَّـعر، يتـم بعـده غسـل الجـزء الأيمـن مـن الجسـد مـن أعـلى إلى أسـفل باسـتخدام اللوفـة أو أي قماشـة خشـنة، وتكـرار نفـس العمليـة عـلى الجانـب الأيسر.. مـع الحـرص التـام عـلى غـض البـصر عـن عـورة الميـت.

بـدأ في تنفيـذ مـا شرحـه لولـده عـليَّ، كانـت يـده قاسـيةً ولوفتـه خشـنةً.. أعتقـد أننـي لم أكـن عـلى هـذه الحالـة مـن الطهـارة في أي يـومٍ مـن حيـاتي، قـال لمحمـود آمـرًا:

- حـط دراعـه اليمـين عـلى صـدره، ورجلـه اليمـين فـوق الشـمال؛ عشـان نقلبـه عـلى جنبـه الشـمال وننضـف ضهـره.

كانـت يـد محمـود ترتجـفُ كلـما لمسـني، ولكنـه كان خائفًـا مـن بطـش الأب، ففعـل مـا أُمـر بـه. اجتـاح المـاء- الـذي بـدأ يفقـد دفئـه- جانبـي الخلفـي، كـرَّر محمـود الفعلـة حـين قلبنـي عـلى جانبـي الأيمـن لإتمـام ما فعلـه بمسـاعدة أبيـه.. أمر المُغَسِّـل سـعد بتجهيـز قِطَـع القطـن، شرح لمحمـود أن غسـل النظافـة قـد انتهـى وسـيبدأ الغسـل الشرعـي؛ مسـح فمـي بقطنـة مبتلـة ثـلاث مـرات مكـررًا نفـس الفعلـة مـع أنفـي باسـتخدام قطنـة أخـرى، ثـم أكمـل وضـوئي بشـكل طبيعـي.. وبعـد أن انتهـى أمـر مسـاعده بخلـط زيـت الكافـور بالمـاء ليُعَمِّـم بـه بـدني كلـه مـن الأمـام والخلـف.. طلـب مـن ولـده تجفيـف الخشـبة مـن تحتـي ومـن مسـاعده تجفيفـي بمنشـفة بيضـاء أحضرهـا عطـوة مـن منزلـه.. أمسـك محمـود رأسي بيـده المـترددة وبـدأ في تجفيفهـا بحـرص، قاومـت رغبـةً عارمـةً في أن أفتـح عينـي لأرى مـا يحـدث حـولي؛ خاصـةً أنهـا العضـو الوحيـد الـذي أسـتطيع التحكـم بـه.. صرخ الولـد بفـزعٍ شـديدٍ تـاركًا رأسي، وهـو ينظـر إلى عينـيَّ وقـال لأبيـه:

- الميت صحي!

نظـر لـه والـده بغضـبٍ، نهـره بصـوتٍ منخفـضٍ، أمـره أن يحـترم حُرمـة الميـت.. تحـرَّك المُسـاعد سريعًـا ليغلـق عينـيَّ بسـبابته وإبهامـه، وقـال لمحمـود بهـدوءٍ:

- دي بواقـي عصـب عنـده لسـه ماماتتـش.. ممكـن عينـه تفتـح أو صباعـه يترعـش؛ حـلاوة الـروح يـا محمـود.

حفظـت أشـكالهم برغـم أن لمحتـي كانـت سريعـةً كالومضة؛ لم أرَ عطـوة لحسـن حـظ كلينـا.. كان سـعد بدينًـا أبيـض البـشرة عكـس رب عملـه- الـذي لم أعـرف اسـمه- وولـده محمـود؛ كانـا يتميـزان بضآلـة الجسـد وسـمر البـشرة، كـما كان المغسـل يتميـز بحَـولٍ ملحـوظٍ في عينـه. أحـضر سـعد قطعـةً كبـيرةً مـن القطـن، وقـال لمحمـود شـارحًا:

- دي قطنـة مبلولـة زيـت كافـور.. ممكـن تتبـل بريحـة عاديـة بـس الكافـور بيبعـد الـدود عـن الجثـة لفـترة كبـيرة؛ بنمشـيها الأول عـلى مواضـع السـجود السـبعة؛ الـراس والكفـين والركبتـين والرجلـين.. بعـد كـده في المغابـن.

قـال محمـود مُسـتفهمًا عـن معنـى المغابـن.. أجـاب والـده أن المغابـن تعنـي المواضـع المخفيـة مـن الجسـد؛ كالإبطـين والرقبـة ومـا خلـف الركبـة، شرح لـه أن قطعـة القُطـن يجـب أن تغطـي العـورة كاملـة؛ مـن الدُّبُـر إلى القبـل.

تعجَّبتُ من ثقافة هذا المغسل الذي كان يعرف ما يفعل حقًّا، لا شك أنه أزهري أو تعلَّم مهنته على يد أحدهم أو تفقَّه في عمله على يد آخر.. تأكد من تجفيفي تمامًا ومن جفاف الخشبة أسفل مني واضعًا القطن فوق عينيَّ وفي فمي وأذني ومنخاري حتى أصبحت أتنفس بصعوبةٍ شديدةٍ.. بدأ في وضع أول ثوب من الكفن أسفل مني برفقٍ وطبَّقه على جسدي حتى أصبحت ملفوفًا بداخله، وكرر العملية حتى أحاطني بثلاثة أثواب واضعًا بين كل ثوبٍ والآخر بعضًا من الكافور.. سأتجمد من البرد إن بِتُّ ليلتي هنا؛ فلا يزال الشتاء يحتضر.. أصبح التنفس أكثر صعوبة، يكاد يكون منعدمًا، لقد غفلنا هذا الجزء من الخطة تمامًا!

ربطني المساعد بثلاثة خيوط؛ الأول فوق رأسي والثاني عند وسطي والثالث أسفل قدمي.. سأفقد الوعي بعد ثوانٍ إن استمر الوضع هكذا!.. حملني ثلاثتهم بحرصٍ حتى وضعوني على سرير الكشف بالمستوصف المهجور، سمعت صوت حملهم للخشبة وصوت إغلاق بوابة المستوص...

أفقت بعد فترةٍ لأجد ناجي أمامي يخبطني على وجنتي بشدة كي أستفيق، فتحت عيني لأدرك أنني أسمعه يهمس قائلًا إنه أخبر الخفر برغبته في توديعي؛ حتى يفتح الباب الخلفي للمستوصف كي يدخل أمجد منه، وأثناء خروجه

تذكَّر صعوبة تنفسي لوجود القُطن وطبقات الكفن الثلاثة.. أردف قائلًا بحيرةٍ واضحةٍ:

- أنا خُفت تقطع النفس.. بس مش فاهم بتتنفس إزاي من غير مايبان لك نبض، وما أعرفش التركيبة دي عاملة معاك إيه.. بس لما فتَّحت عينيك بعد ما ضربتك فهمت إن الخطة تقريبًا ماشية كويس.. أنا هاربط الكفن بس هاخلّي أول طبقتين واصلين لحد رقبتك بس عشان النفس، وهاسيب تالت طبقة بس هي اللي مغطية راسك كلها.. وربنا يستر.

***

اتصل دكتور أنس بأخيه كريم الذي أجابه من داخل سيارته المركونة أسفل منزل أمجد.. قال كريم بقلقٍ إن أمجد نزل منذ أربع ساعات مع جيرانه حاملين ما بدا له شخصًا ميتًا، وأنه تتبعه حتى وصلا إلى بلد ريفية تُدعى (طحا-الطريق)، راقبه من بعيدٍ وراه يُقابل مجموعة من الناس الذين استلموا منه الجثة، انتظر كريم داخل سيارته نصف ساعة حتى انتهى أمجد من الوقوف والحديث مع من بدوا كأنهم أقارب الميت، سار خلفه بسيارته حتى عاد إلى بيته ثانيةً.

قـال أنـس بلهجـة لم تخـلُ مـن الحـيرة إن أمجـد يلعـب لعبةً كبـيرةً، وأنـه يجـب أن يعـرف مـا يحـدث؛ فلـن يكتفـي بالمـال مقابـلًا للجهـد المبـذول في إيجـاد جثـةٍ مطابقـةٍ للمواصفـات التـي حددهـا أمجـد، طلـب مـن كريـم الاسـتمرار في المراقبـة دون أن يـدع أمجـد يغيـب عـن عينـه.. قـال كريـم مطمئنًـا:

- أنـا مسـتنيه ينـزل تـاني، هـو قـال هايقابـل الرجالـة ياخـد منهـم الجثـة إمتـى؟

أتـاه صـوت أنـس مؤكـدًا أنهـم اتفقـوا عـلى أن يتـم اللقـاء بعـد سـاعة؛ أي أنـه يجـب أن يتحـرك الآن حتـى يصـل إلى مـكان التسـليم القريـب مـن اسـتراحة On the run عـلى الطريـق الصحـراوي المـؤدي إلى الإسـكندرية..

قاطعـه كريـم قائـلًا إنـه لمـح شـخصًا يُغـادر العقـار مُتحـركًا بمحـاذاة سـيارة أمجـد، اسـتدرك سريعًـا نافيًـا كونـه أمجـد.. بعـد دقائـق ظهـر أمجـد خارجًـا مـن بوابـة العقـار محييًـا حارسـه، وتحـرَّك بسـيارته مُتجهًـا إلى الطريـق الصحـراوي حيـث مـكان اللقـاء، تبعـه كريـم عـلى مسـافةٍ مناسـبةٍ كي لا يعـرف أن هنـاك مـن يُراقبـه.. لاحـظ تهـور أمجـد في القيـادة فاعتقـد لوهلـةٍ أنـه قـد كشـفه ويُحـاول الفـرار مـن مراقبتـه، ولكـن أمجـد لم يغـير طريقـه وإن زاد تهـوره.. تسـاءل كريـم في نفسـه عـن السـبب الـذي جعـل أمجـد في هـذه الحالـة مـن التوتـر؛ فسَّرهـا بخوفـه

مــن مقابلــة رجــال أخيــه أنــس وتســلُّم الجثــة.. خاصــة أنــه طبيــب نفــسي ولم يتعامــل مــع الأمــوات منــذ انتهــاء دراســته.

ظهـرت فجـأةً أمـام أمجـد سـيارة نقـل ضخمـة عـلى الطريـق السريـع.. حـاول أن يتفاداهـا فحاد عـن الطريق واصطـدم بكثب رمـلي انقلبـت السـيارة عـلى أثـره.. تجمَّـد كريـم في مكانـه ولم يـدرِ مـا العمـل، توقفـت بعـض السـيارات التـي تحـرَّك أصحابهـا مُسرعـين للاطمئنـان عـلى سلامة أمجـد وإخراجـه مـن السـيارة المقلوبـة. بعـد دقائـق اتصـل أنـس بأخيـه متسـائلًا بقلـقٍ عـن سـبب تخلُّـف أمجـد عـن موعـده مـع الرجـال.. أجابـه كريـم باقتضـابٍ:

- بلَّـغ الرجالــة إن العمليــة اتلغــت؛ أمجــد عمــل حادثــة ومــات.

٩

المَوْءُود

السبت 11 فبراير 2006

عرفتُ فيما بعد أن ناجي ظل واقفًا بلا حيلةٍ خارج المستوصف قبيل صلاة الظهر، لم يترك هاتفه من يده؛ كان يُحاول الاتصال بأمجد الذي لم يظهر صباح الجنازة مما أصابه بالقلق على نجاح الخطة.. نظر له فرحات متعجبًا، طلب منه أن يتماسك ويتسلح بالصبر على فاجعة فقداني، سأله برفقٍ أن يدخل المستوصف مع رجال العائلة؛ حتى يتحركوا بالجثمان وصولًا إلى الجامع لصلاة الجنازة على روحي.. أشار إليه ناجي بكف يده علامة على أنه سينتظرهم في الخارج، أشعل آخر سيجارة كانت معه، طلب من أحد خفراء عطوة القريبين منه أن يذهب ليشتري علبتين سجائر؛ واحدة له والأخرى توزع على رجال العائلة كما جرت العادة في هذه المواقف.. أخرج هاتفه ثانيةً وأعاد الاتصال بأمجد.

في نفس الوقت استرددتُ وعيي فزعًا على صوت الجلبة التي أحدثها اقتحامُ عطوة مع رجال العائلة للمستوصف مُرددين الشهادتين، لم تكن ليلتي يسيرةً؛ فقد راودتني الكثير من الخواطر عن تفاهة الحياة ومشاكلها، تعجَّبت من عدم إدراكي أن الموت قريب لهذه الدرجة، وكأنه يحدث للآخرين فقط، استرجعت لمحاتٍ كثيرةً من حياتي: ذكرياتي مع أبي وأمي اللذيْن لم تشبعني الحياة منهما، عناقي المطمئن لناجي يوم الحادثة لأخفي الحقيقة عنه، وألبوم صور فرحة بمن فيه، وعراكي الأخير مع نرجس، وسلسلة من الأحضان التي أودعتني إياها فرحة؛ منحتني دفئًا جسديًّا دون أن تدثر روحي، قسوة عطوة وسلبية فرحات التي سلبتني ثقتي في عائلتي، والنوم على فخذ رفعت مُستمعًا إلى قصصه التي لا تنتهي.. دون أن أجرؤ على معاتبته بعد ما فعل بنا، ترددت في أذني الكثير من جُمَلِه المحفورة في ذهني..

"حياتك بين كفتين؛ البصر والبصيرة.. لحظة الموت كفة البصيرة بتطُب، غشاوة البصر بتنجلي، بتتمنى لو كل الناس تيجي تشوف الحياة بعنيك؛ لحظة الموت قادرة تليِّن قلب فرعون وتعلِّمه الدرس متأخر، قادرة تحوِّلك من مِلة للتانية ومن تفكير للتاني، لحظة الموت فاس إبراهيمي قاسي بيهد كل أصنام حياتك، لحظة تجلِّي مهما حاولت تحيد عنها هاتفضل هي الحقيقة الوحيدة الثابتة.. البني آدم الصح هو اللي بيدركها قبل ما يتخلّد في عذاب غفلتها".

أفقت من خواطر نومي المضطرب على صوت أذان الفجر، لم أحب يومًا صوت إمام جامع القرية الذي يضع مكبر الصوت كله داخل فمه مُستعرضًا تشنجات أحباله الصوتية.. ولكن اليوم- لدهشتي- بدا صوتُه بديعًا، تعجبت من تأخُّر أمجد الذي خرج عن الخطة المتفق عليها ولم يأتِ حتى الآن لتبديل الجثتين تمهيدًا لإنعاشي، تيقنت أنه لن يأتي حين اقترب الظهر وبدأ كلام مَنْ حولي عن تفاصيل التحرك إلى المقابر.. هل سيتركني أتحلل حيًّا تحت الأرض؟! ولماذا لم يتدخل ناجي لإنقاذي من مصيري الذي أسير نحوه بلا أدنى مقاومة؟ على مدار الليلة ألفتُ شعور الوهن وضعف التنفس اللذيْن حلَّا بي منذ بدأ مفعول التركيبة في الظهور، كما اعتدت ظلام الغرفة وخنقة الكفن، الأمر الذي لم يمنع خوفي القديم من الحشرات التي توهَّمت بوجودها حولي تُداهم جسدي المشلول وتنخر في ثناياي.. تمنيت أن يسمح لي عجزي الجسدي- الذي منحتني إياه التجربة- بتغيير موضع نومي ولكنه أبى.. بقى سؤال واحد يراودني ويلهيني عن بشاعة التجربة: "كيف أدرك وأشعر بجميع المؤثرات الحسية على الرغم من عجزي التام عن الحركة؟!"، ظللت أرمش بعينيَّ للشعور بالحياة؛ كانت عيني العضو الوحيد الظاهري مني والذي لم يطله تأثير التركيبة.. هل سيأتي أمجد، أم سيكون كشخصية "جودو" في مسرحية صمويل بيكيت الذي طال انتظاره دون جدوى؟!

"مين اللي فك توب الكفن الجواني من على وش يحيى؟!"

هكذا قال فرحات حين وضع كفَّ يده على وجهي ليقرأ عليه الفاتحة؛ فشعر بعظام وجهي قريبةً لا يفصلها عن يده إلا ثوبٌ واحدٌ.. أجابه عطوة دون اكتراثٍ:

- تلاقيه الواد ابن الحانوتي نسي يغطي وشه من جوه؛ أصله كان متلَّبش إمبارح.

ولحسن الحظ.. رفع فرحات ثوبي الكفن الداخليين دون أن يكشف الخارجي؛ حتى لا يعيد دفس القطن في فتحات وجهي.. أين أمجد وناجي الآن؟ فلينقذني أحدهما أو كلاهما قبل أن يحدث ما أخشى التفكير فيه!

شعرت بأيادٍ غليظةٍ تحملني من الفراش الطبي حتى الصندوق الخشبي، ما لبثتُ أن خرجت للنور حتى سمعت صراخ الحريم الذي كان يُخيفني كثيرًا.. إلا أنه هذه المرة أثار سخريتي وتهكمي؛ فلا واحدة من هؤلاء تعرفني من الأساس باستثناء مي التي لم تحبني كثيرًا، ونرجس التي لم أسمع نحيبها فخمنت أن عطوة لم يُعطها إفراجًا استثنائيًّا كما كنتُ أتمنى.. أنبأني ظهورُ الظل وصوت الأذان المرتفع بوجودي داخل المسجد، شعرت بألمٍ جم في فقرات ظهري التي لم تحتمل الاستلقاء على خشب النعش، عرفت أنها النهاية وأن أحدًا لن ينقذني سوى حظي والدعاء؛ لكمني

المـوت في أول جولـةٍ فأسـقطني دون حـراكٍ.. ليبـدأ الحَكـم في العَـد التنـازلي لإعـلان هزيمتـي.

أقيمـت الصـلاة.. بـدأت أحـرك لسـاني بأذكارهـا، وأرمـش متخيـلًا حركاتهـا كأننـي أقـف بينهـم، الآن فقـط أسـتوعب عبارة "صلـوا صـلاة مـودِّع"، أحسسـت بدمعـةٍ صغـيرةٍ تفلـت منـي.. تخيَّلـت أننـي سأشـعرُ بالفخـر حـين يتقطَّـع الأقربـون حزنًـا عـلى فراقـي نادمـين عـلى كل مـا اقترفـوه بحقـي.. ولكـن شـيئًا مـن هـذا لم يحـدث، وتحـوَّل فخـري المتوقّـع إلى كومـةٍ كبـيرةٍ مـن خيبـة الأمـل؛ يحيـى ابـن مريـم مجـرد رقـمٍ جديـدٍ.. عـاش فتألم فـمات، لينضـم إلى أمـمٍ ظنَّـت أنهـا باقيـة ببقـاء الزمـن، الآن سـأرقد مثلهـم تحـت تـراب عـالم كبـير لـن يؤثـر فيـه رحيـلي! أخـبرني جـدي أن يومًـا مـا سينشـغل الأقربـون عنـي، وسـيتجنب الأصدقـاء مجلـسي، ويضجـر الأحبـاء مـن وجـودي.

بعـد انقضـاء صـلاة الظهـر حمـل المُصلـون النعـش؛ ليصبـح في مقدمـة الجامـع أمـام محـراب الإمـام الـذي شرع يـشرح قواعـد صـلاة الجنـازة التـي يتعلَّمهـا الحضـور كل مـرة كأنهـا الأولى!.. صرخـة مدويـة تنطلـق مـن داخـلي: أنـا مـا زلـت حيًّـا.. لا أُرزَق ولكننـي حـيٌّ!

حاولـت إثـارة أي حركـة أو صـوت علَّهـم يتراجعـون عـن إكرامـي كميـتٍ وجـب دفنـه، لم يطاوعنـي أي مـن أعضـائي سـوى جفـوني التـي بـدأَتْ تشـعر بالإرهـاق.. تمكَّنـتُ بعـد عـدة

محـاولاتٍ مــن تحريـك خنـصري الأيمــن، صحيـح أنهـا حركـةٌ قصــيرةُ المــدى والمـُـدة ولكنهـا قشــةٌ يُمكــن أن أتعلــق بهــا.. حاولـت تكـرار الحركـة لأطـرق عـلى خشـب النعـش فغرقـت مُجـددًا في العَجْـز.. فلتوقفـوا مراسـم تشـييعي ولتتوقفـوا عـن تبـادل حمـل النعـش بينكـم، شـعرت ببـطء الجنـازة فتيقنـت مــن أنهــم ســيقضون ليلتهــم يتحدثــون عــن نعــشي الــذي لم يســتطع "الطـيران" كدليـلٍ عــن عصيــاني وفســادي في الأرض.. سـمعتُ همسـهم مـن حـولي؛ فمنهـم مـن يتلـو الفاتحـة ومنهـم مـن يُـردد الشـهادتين، ومنهـم مـن يطلـب حمـل النعـش قائـلًا لمـن يريـد أن يحـل مكانـه "آجِـرْني": أي اتركـه لي ودعني أتقاسـم أجـر التشـييع معـك. هبـط النعـش عـلى الأرض؛ علمـت أن النهايـة قـد حانـت، سـمعتُ سـلامة اللحـاد يُـردد قائـلًا لـرزق المعتـوه بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- يـلا يـا رزق شـيل معايـا.. هـو فـين أسـتاذ ناجـي يدخـل معانــا؟!

سـمعتهم يتسـاءلون عـن ناجـي الـذي اختفـى وسـط الزحام، قـال فرحـات مُستسـلمًا إنـه سـينزل معهـما.. حملنـي ثلاثتهـم، أدخلـوني برفـقٍ داخـل غرفـة اللحـد المُقَامـة تحـت الأرض.. ردد سـلامة بصـوتٍ تزلـزل لـه كيـاني: "بسـم اللـه وباللـه وعـلى ملـة رسـول اللـه.. بسـم اللـه وباللـه وعـلى ملـة رسـول اللـه".

تجلى صوتُ الشيخ عزازي من فوق الأرض، ساعدتني خطبته المعتادة على المرور بهذا الموقف. عدل سلامة التربي من وضع جثماني بحيث أستلقي على جانبي الأيمن ويكون وجهي باتجاه القِبلة.. بدأ رزق في صُنع وسادةٍ ترابيةٍ أسفل وجنتي اليمنى المحجوبة بالكفن، وأهالا التراب على جانبيَّ لئلا أتزحزح عن موضعي، حتى امتلأ أنفي بالغبار وشعرت بألمٍ في عيني.. شرعا في فك أربطة الكفن تاركين فرحات عند قدميّ يُردد ما تيسَّر له من الآيات القرآنية، بدأ رزق يضبط من وضع جسدي للمرة الأخيرة؛ فحرّك ذراعي الأيمن قليلًا لكي لا يتحمل ثقل جسمي كاملًا، وأمسك يمناي أثناء محاولةٍ أخيرةٍ مني نابعة من إرادتي ورغبتي بالبقاء، فحركت أصابعي ليشعر رزق بنجاح محاولتي وصاح قائلًا: "الله".. نَهَرَه سلامة آمرًا باحترام "حُرمة الدفن".. قال رزق مُعترضًا:

- يا عم سلامة...

ثم صمت بإشارةٍ حازمةٍ من سلامة الذي قضى على آخر آمالي في البقاء.. خرج ثلاثتهم من غرفة اللحد الكبيرة نسبيًّا كسائر مدافن العائلة مقارنة بباقي القرية، وكما كان يفعلُ في كابوسي الوحيد: خرج سلامة مُتأخرًا عنهما بعد أن همس في أذني قائلًا:

- افتكر يا يحيى: الله ربك.. الإسلام دينك.. محمد رسولك.

بـدأ في إغـلاق بـاب اللحـد ليظلـم العـالم مـن حـولي تمامًـا.. انتظـرتُ ظهـور الومضـة التـي أراهـا في منامـي فلـم تـأتِ.. سـمعت صـوت سـلامة يقـول لـرزق:

- سِـدّ معايـا التربـة.. وإوعـى تقـول الـلي قولتـه لمـا كُنـا بنعجـن الأسـمنت في دفنـة السـت فرحـة.. الطحاويـة عمَّالـين ينقصـوا يـا غـراب البِـين!

ردّ رزق بلهجتـه المُبهمـة وبصـوتٍ خفيـضٍ لم يسـمعه سـلامة لحسـن حظه:

- هاسِـيب شـوية أسـمنت كـمان عشـان تُـرَب الطحاويـة هاتتفتـح تـاني قريـب.

أوصـد اللحـد ورحـل الجميـع آخذيـن معهـم آخـر أمـلٍ لي في الخـروج، وسـاد السـكون معلنًـا احتضـاري بالإيقـاع البطـيء، تدفـق في عقـلي نهـرُ الأسـئلة التـي لا أعلـم لهـا جوابًـا: أيـن أمجـد الآن؟.. هـل سـأموت جوعًـا أم مـن قلـة الهـواء تحـت الأرض؟.. هـل سـتتزوج مـي مـن بعـدي؟.. كـم سـيصمد جسـمي أمـام غيـاب الأكل والمـاء؟.. ومـاذا سـيفعل ناجـي وعطـوة في غيـابي؟.. هـل سيحسـم الفـزع المعركـة مبكـرًا لينهـي حيـاتي؟.. مـاذا تركـت خلفـي مـن تـراث؟.. متـى سـيبدأ الـدود في التهـام وجبتـه العاجـزة عـن طلـب العـوْن؟.. هـل سـتنجح تركيبـة إيفلـين الثانيـة في إنعـاشي كـما نجحـت الأولى في وأدي؟.. أم سـتؤدي إلى حتفـي؟.. هـل سـتُنشر روايتـي تخليـدًا لذكـراي؟..

هـل سيسـتجيب سـلامة الـتُّرَبي لاسـتغاثتي إذا دبَّـت الحيـاة في جسـدي مـرةً أخـرى أم سـيخاف أن تكـون هـذه روحـي الغاضبـة؟.. هـل كان كابـوسي يسـتحق كل هـذا العنـاء للتخلـص منـه؟.. والأهـم: أيـن أمجـد؟!

مـع الوقـت اعتـدت الظـلام والـبرد وحركـة الحـشرات حـولي، ألفـتُ رائحـة الـتراب الـذي كان يُحيطنـي متسـاقطًا عـلى كفنـي مـن سـقف اللحـد بـين الحـين والآخـر حتـى مـلأ أنفـي، شـعرت بوجـود عظمـة آدميـة صغـيرة أسـفل أذني؛ يبـدو أن سـلامة لم يرهـا مـن الـتراب، جاهـدت وسـاوسي بوجـود ثعابـين وعقـارب تتحـرك مـن حـولي؛ لم أعلـم إن كان وجودهـا حقًّـا أم هاجسًـا أتوهمه..حاولـتُ إلهـاء نفـسي بعـدِّ حبَّـات الحـصى أسـفل خـدي الأيمـن. لم آلـف الوضـع بقـدر مـا حاولـت عقـد هدنـة معـه، كانـت الرائحـةُ بشـعةً، لا أريـد إلا موتًـا سريعًـا بلا معانـاةٍ مُفزعةٍ ولا سـكرات مؤلمـةٍ.. أريـد أن يسـمع الجميـع الصرخـة المدويـة بداخـلي طالبـةً النجـاة، سـأوافق عـلى الحيـاة مريضًـا بهاجـس المـوت فقـيرًا عاجـزًا إن تطلـب الأمـر.. أخرجـوني وسـأعيشُ هائمًـا مثـل رزق؛ ذلـك المعتـوه الـذي لا يعلـم شـيئًا عـن النعمـة التـي يعيـش فيهـا.. أريـد نصـف حيـاة!

بـدأت أشـعرُ بخفـة جسـمي وروحـي معًـا، وتحـررت مـن ضيـق نَفـس الكفـن وبـرودة اللحـد وظـلام القـبر.. ظهـرت الومضـة التـي طالمـا داعبتنـي أثنـاء نومـي وهوَّنـت عـليَّ

كابـوسي الأزلي الـذي لم يتوقـف عـن إفزاعـي وتكديـر حيـاتي، يبـدو أن عـلاج أمجـد قـد نجـح وتحـررتُ مـن كابـوسي.. ولكنـه سـلَّمني لكابـوسٍ آخـر؛ أشـد إيلامًـا وأكـثر واقعيـة!

بـدأ بصيصُ النـور يتسـع حتـى تبـدد الظـلام تمامًـا وأصبحتُ قـادرًا عـلى الحركـة، صـار جسـمي أصغـر حجـمًا.. كنـتُ أقـف عـلى شـاطئ خـالٍ مـن البـشر مياهُـه هادئـةٌ شـديدة الصفـاء تعكـس لـون السـماء الصافيـة، أعكـف عـلى بنـاء قلعـةٍ مصغـرةٍ عـلى رمـال الشـاطئ شـديدة البيـاض، كذلـك كانـت إضـاءة الشـمس شـديدة البيـاض كأننـا نقبـع في الجليـد، سـمعت صوتًـا مألوفًـا تـردد صـداه باسـمي.. اسـتدرت لأجـد أبي؛ بـدا أصغـر سـنًّا ومشـابهًا للحالـة التـي كان عليهـا في صـورة زفافـه عـلى أمـي: أكـثر نحـولًا ويحتـل وجهَـه شـاربٌ كثيـفٌ واكتسـب وجهـه قـشرةً سـمراء مـن أشـعة الشـمس.. لم تمنـع انبعـاث النـور مـن وجهـه، توجَّهـت نحـوه سريعًـا مُحتضنًـا نصفـه السـفلي فنـزل عـلى ركبتيـه ليُعانقنـي عناقًـا تمنيـت ألا ينتهـي.. حملنـي عـلى ظهـره ونظـر إلى نمـوذج القلعـة الـذي بنيتـه، أشـاد بمـا صنعـت يـداي وأخـبرني بأننـي أحتـاجُ بنـاء عمـود إضـافي تحـت سـقف القلعـة حتـى لا تنهـار؛ وضـع بعـض الحـصى الصغـير فـوق القلعـة وداخلهـا كأنهـم الجنـود المفـترض وجودهـم فيهـا.. شرح لي أهميـة حسـاب مقـدار الحمـل الحـي المتمثـل في الأشـخاص، والحمـل الميـت المتمثـل في وزن المنشـأ نفسـه لعمـل الدعامـات المناسـبة حتـى لا يسـبب وزنهـم انهيـارًا أو هبوطًـا مقوّسًـا

للسقف. تنبأ لي بأنني سأصبح مهندسًا أكثر نجاحًا وبراعةً منه، فَرِحت بهذه الإشادة وطلبت منه أن ننزل المياه مرةً أخرى، ظهرت أمي من العدم حاملةً منشفةً لتُخبرني بوجوب ارتداء ملابسي استعدادًا للعودة إلى المنزل.. كان بطنُها مُنتفخًا علامةً على اقتراب نزول حملها، استدرت لأستعطف أبي كي يتركنا على الشاطئ قليلًا، ولكنه اختفى وبدأت أمي في الصراخ مُمسكة بطنها.. ركضت نحوها لأحتضنها وظللت متشبثًا بها ليستمر صراخُها دون أن تُحاول إبعادي عنها.. شعرتُ بسائل الرحم يتسرب منها، أدركت بفطرتي أن هذه علامة على اقتراب الولادة.. حاولت أن أمنعها من السقوط على الأرض ولكن جسمي ذا الخمسة أعوام لم يسعفني فهويت معها.. نظرت أثناء سقوطي نحو موضع بناء قلعتي الصغيرة فلاحظت تغيُّر معالم هيكلها؛ لا أعلم تحديدًا متى تحوَّلت من قلعةٍ إلى شاهد قبر؟!

لم أتوقف عن البكاء حتى احتضنتني فرحة وضمتني بين ضلوعها الهشة.. كان وجهها مشرقًا وفي كامل صحتها، قالت بضحكةٍ مجلجلةٍ:

- يا عبيط ما حدّش بيتعلم سواقة العَجَل صحّ غير لمّا يقع.

ثم صاحت في نرجس آمرةً:

- روحي الدوَّار هاتي قطن وشاش عشان ابن خالِك.

تأملت المكان حولي؛ كنا في حديقة الفاكهة المنعزلة على أطراف أراضينا، أظن أن هذه الأرض قد بارت فيما بعدُ وبنى أبي المستوصف مكانها.. عُدت إلى حضن جدتي ثانيةً واستكملت سيمفونية بكائي.. لم تفهم أن بكائي لم يكن بسبب آلامي الجسدية؛ كان الوجع ألمًا لكرامتي كمراهق لا يستطيع قيادة دراجة كباقي أقرانه، في حين أن أخاه ابن العشرة أعوام يقود دراجته بمهارةٍ شديدةٍ دون سقطةٍ واحدةٍ!

جذبني رفعت من أحضان فرحة منظفًا ملابسي بيدٍ قويةٍ آلمت جسدي، قال لي مُبتسمًا:

- تيجي معايا أوريك حاجة أحسن من العَجَل وشغل العيال ده؟.. ولا هتقعد تعيط زي الولايا!

وضع يده على كتفي وسِرنا وسط الأراضي الزراعية، شرح لي تقسيمة الأرض ومجرى المياه فيها وأنواع المحاصيل وأوقات زراعتها.. هززت رأسي دون أن أكترث بما يقول، أخبرته أنني أشعر بالإنهاك من طول السير، فربت برفق على كتفي دون تعليقٍ.. وصلنا إلى شجرةٍ عملاقةٍ يوجد أعلاها عش مكتظ بالغربان، فقال لي باستمتاع:

- دي شجرة الغربان.. ما حدّش يعرف طريقها وسط الأرض غيري أنا وعمك عطوة، حتى الفلاحين بيوصلوا لها بالصدفة.

لم أرتـح لمنظـر الغربـان بريشـهم الأسـود ونعيقهـم المزعـج وحركاتهـم العشـوائية.. عقَّـب جـدي ضاحـكًا أن الجهلـة فقـط مـن يتشـاءمون مـن تلـك الطيـور؛ فالغـراب كان رسـالةً مـن ربنـا لعبـده قابيـل كي يعلِّمـه الدفـن ويكـرم أخـاه.. قـال مُبتسـمًا إن الغـراب ليـس نذيـر شـؤم، وإنمـا بشـير للراحـة والتكريـم.. التصقـتُ بـه أكـثر وقلـتُ بصـوتٍ متهـدجٍ إننـي خائـفٌ وأريـد العـودة إلى فرحـة.. ردَّ رفعـت بحـزم:

- سِـتك هاتعلَّمـك تكـون بنـي آدم، أنـا هاعلَّمـك تكـون راجـل!

تنصَّـل رفعـت مـن ذراعـيَّ وابتعـد عنـي.. حاولـت اللحـاق بـه ولكـن قبضـة أخـرى أُحكِمَـت حـول سـاعدي الأيسـر بقـوة، التفـتُّ لأجـد عطـوة يُطالعنـي بنظـرةٍ ناريـةٍ، أعـدت النظـر نحـو رفعـت مُسـتنجدًا فلـم أجـده.. دفعنـي عطـوة لأسـقط عـلى الأرض وابتعـد مُشـيرًا للغربـان التـي هبطـتْ مـن فـوق الشـجرة ملتفـة حـولي في دائـرةٍ ضيقـةٍ، كانـتْ أضخـم حجـمًا مـما تخيَّلـت.. رفعـت أجنحتهـا في حركـةٍ جماعيـةٍ وراحـتْ تُحكـم إغـلاق الدائـرة مـن حـولي، اقشـعر بـدني حـين لامسـني ريشـها ووخزتنـي مخالبُهـا، انفتحـت مناقيرُهـا مقتربـةً منـي في نهـمٍ...

أطلقـتُ صرخـةً مُدويـةً لم تنقطـع حتـى توقفـت تلـك اللعبـة في الملاهـي عـن الـدوران، نزلـتُ بصحبـة مـي ومريـم الممسـكتيْن برأسـيْهما مـن الـدوار، كان أمجـد ينتظرنـا بجـوار

اللعبـة يتنـاول إفطـاره.. كنـت في السـنة الثالثـة مـن دراسـتي الجامعيـة بكليـة العلـوم التـي أنجـح فيهـا بمعجـزةٍ لا يعلمهـا إلا اللـه، وافقـتُ بالـكاد عـلى الاشـتراك بتلـك الرحلـة بعـد إلحـاحٍ مــن أمجــد وإقنــاعٍ مــن مــي، ولكــن ابتســامة واحــدة مــن مريـم حسـمت أمـري.. لا أنكـر انجـذابي الشـديد نحوهـا حـين أحسسـتُ أنهـا تُشـبهني؛ تـوفي إخوتهـا الثلاثـة في حـادث انهيـار عقـار كارثي بسـبب مقـاول عديـم الضمـير وموظـف حكومـي مرتـشٍ وجشـع صاحـب العقـار.. كـما كان اسـمها كأمـي فيـما اعتبرتـه إشـارة مـن القـدر، اضطـررت قبـل رحيـلي أن أجعـل ناجـي يُقسـم عـلى ألا يهمِـل مذاكرتـه يـوم سـفري، أخبرتـه أن الثانويـة العامـة تحتـاج إلى ذهـنٍ مُحصَّـنٍ ضـد التشـويش.

كانـت مـي زميلتـي في الكليـة وصديقتـي المقربـة، عرَّفتنـي عـلى مريـم جارتهـا وعرَّفتهـما عـلى أمجـد صديقـي اللـدود، بعـد حادثـة وفـاة والـديَّ لم أشـعر بـشيء تجـاه بـشرٍ سـوى مريـم، حتــى أخــي الــذي حرصــتُ عــلى مصلحتــه إرضــاءً لضمــيري وليـس بدافـع الأخـوة والحـب المطلق.بعـد أن عرفـت مريـم تغـيَّر كل شيء؛ أصبحـت أسـتمتعُ بالأفـلام الرومانسـية وأتـذوق حـلاوة كلـمات الأغـاني، اعتنيـت بمظهـري كـما لم أفعـل مـن قبـل، بـدأتُ التفكـير في مسـتقبلي بعيـدًا عـن شـقة الحُسـين التـي كانـت مُسـتقرًا لأسرتي ومـلاذًا لي ولناجـي مـن بعدهـما.. ولكـن أمجـد تركنـي أحلـم وتحـرَّك لتحقيـق الحلـم كعادتـه؛ نجـح في اصطيـاد مريـم بذكائـه ووسـامته ولباقتـه، لم يحبهـا

ولكنـه لم يشـأ أن تفلـت منـه، ملـك قلبهـا ثـم هجرهـا متعلقـةً بأمـل عودتـه، فعـل كل شيء وتركنـي أسـيرًا لأحلامـي!

لم تحمـل مريـم ضغينـةً ضـد أمجـد.. كانـت كالأطفـال في كل شيء؛ عاملَتـه كصديـقٍ عـلى أمـلٍ أن يعـود إليهـا نادمًا عـلى مـا اقـترف. اقـترح أمجـد ركـوب تلـك اللعبـة الجديـدة التـي تُدعـى "قطـر المـوت".. تشـاءمت فـور سـماعي الاسـم واعتـذرت عـن مرافقتهـم متحججًـا برغبتـي في الراحـة وتنـاول الطعـام، رُحـت أتابعهـم بنظـري وهـم يصعـدون عـلى مـتن ذلـك القطـار المكشـوف الـذي يتحـرَّك بسرعـةٍ عـلى مسـارٍ ملتـوٍ.. جلسـت مريـم ومـي في عربـةٍ واحـدةٍ وخلفهـما أمجـد بجـوار أحـد رفاقنـا في الرحلـة، فتحـت لفـة الشـطائر التـي أعدَّتهـا مريـم، رحـت أقطـع ورق الجرائـد المغلـف للطعـام، لم يكـن هـذا أفضـل طعـام تذوقتـه.. ولكـن يكفـي أنـه كان مـن صنـع مريـم.

لمحـتُ أحـد المهندسـين يركـض تجـاه عامـل تشـغيل اللعبـة وقـال لـه بقلـقٍ:

- مـش قولـت لـك مـا تركِّـش كل العربيـات؟!.. وحطيـت لـك علامـة (×) عـلى العربيـات الـلي لسّـه تحـت التجربـة!

أجاب العامل بعدم اكتراثٍ:

- النهاردة أجازة والدور ده كان زحمة؛ يعني الناس لو كانت شافت عربيات فاضية كانوا هايمسكوا فيا.. سيبها على الله!!

أصابني القلقُ ورحت أتابع ثلاثتهم.. كانت مي تحييني بإشارةٍ من يدها كلما مرَّ القطار بالقرب من مكان جلوسي، أما مريم فكانت تصيحُ وتنظر لأمجد لترى ثباته الذي حاول تزييفه كأنه يركب هذا القطار كل يوم.. ومع زيادة سرعة القطار زاد القلق على وجه العامل، وسمعت صوتًا واضحًا لخلخلة الأجزاء الممسكة لعربات القطار من أعلى.. أمره المهندس سريعًا بإيقاف اللعبة تدريجيًّا حتى لا تحدث إصاباتٌ بفعل القصور الذاتي، حاولت التركيز لأرى أي عربة موضوع عليها علامة من المهندس لاحتمال للسقوط، أدركت بعد لحظاتٍ أنها العربة التي يركبها أمجد.. نهضتُ عازمًا على أن أركض خلفها حتى أمنع ارتطامه بالأرض، لم أخطط لشيء معين سوى محاولة إنقاذه، وأثناء تركي للفافة لمحت خبرًا في المجلة المغلفة للشطيرة: كان نعيًا في صفحة الوفيات تتصدره صورتي وتحتها وصف "المغفور له"!

لم أتذكر بعد ذلك سوى إسراعي لإنقاذ أمجد الذي انخلع عنه حزام الأمان وسقط سقوطًا مدويًا فوقي، بعد سقوطنا علمت أن عربة مي ومريم كانت قيد الاختبار أيضًا؛ أدركت ذلك حين وجدت مي تصرخ باسم صديقتها

بعـد أن ارتطمـت رأسـها بـالأرض مبـاشرةً وسـال دمهـا في كل مـكان!

لم أسـتطع النهـوض برغـم أن أمجـد لم يعـد فوقـي كـما أن الأرض لم تعـد أسـفل منـي؛ لا أشـعر بكتلـة جسـمي عـلى الإطـلاق، اختفـى كل شيء عـلى مرمـى بـصري، لم يعـد هنـاك سـوى النفـق المعتـاد في كوابيـسي، ولكنـه هـذه المـرة كان متوهج الإضـاءة لدرجـةٍ آلمـت عينـي حتـى اعتدتها..أعتقـد أن هـذا هـو الـبرزخ الفاصـل بـين عالمـيْ الأحيـاء والأمـوات كـما قـرأتُ عنـه مـن قبـل، أم أننـي خاضـعٌ لهـلاوس تجربـة الدنـو مـن المـوت. هـل سـتنعقد محاكمـة حسـابي الآن لأعـرف إن كنـت سـأثاب أو أخلـد في عقـابٍ مقيـمٍ؟!..

تبيَّنـتُ أننـي أقـف وسـط النفـق، تسـتقر في نهايتـه البوابـة الحديديـة الكبـيرة الخاصـة بحـوش مدافـن عائلتـي.. لمحـت فرحـة تقـف خلـف البوابـة تُحـاول فتحهـا، بـدأت أقـترب ومـع كل خطـوةٍ كنـت أسـتعيدُ ذكريـاتٍ لم أرغـب يومًـا في اسـتعادتها: هـروبي مـن جلسـات تحفيـظ القـرآن، قبـلاتي ولمسـاتي المُختَلَسـة مـع نرجـس في الحديقـة الخلفيـة للـدوَّار؛ التـي لم تكـن بدافـع غـير شـهوة المراهقـة.. تذكـرت خداعـي لمـي في الكثـير مـن لحظـات زواجنـا، واختـلاس المـواد الكيميائيـة مـن معمـل العلـوم بالمدرسـة..

الحركة تـزداد صعوبـةً ولا أرغـب في تذكـر المزيـد مـن تلـك اللمحـات المخزيـة.. أحسسـتُ أن شرط التقـدم الوحيـد هـو الخـوض في تلـك الذكريـات، أصبحـت قريبًـا مـن البوابـة، أشـارت إليَّ فرحـة بالتقـدم إليهـا؛ وقـف بجوارهـا أبي وأمـي وحسـن ابـن عطـوة وأقـارب رحلـوا قديمًـا لم أميزهـم إلا مـن صورهـم التـي تحتفـظ بهـا فرحـة، بـدت فرحـة أصغـر بكثـير مـما عهـدت، وكان رفعـت عـلى كتفـه مـا يشـبه جسـم طفـل في العـاشرة مـن عمـره الـذي لم أتبـين وجهـه؛ خمنـتُ أنـه أحـد أطفـال العائلـة أو ابـن زوجـة شـكري الـذي مـات بسـبب تخـاذلي عـن عـلاج زوج أمـه مـن الإدمـان.. لمحـتُ خلـف كتـف فرحـة آخـر شـخصٍ كنـت أتوقـع وجـوده في هـذا المـكان ومـع هـؤلاء الأشـخاص: أمجـد!

لم أسـتطع الاقـتراب أكـثر مـن هـذا، رفـض عقـلي تذكُّـر أي خطيئـةٍ إضافيـةٍ، سـأظل عالقًـا في مـكاني هـذا لا أبرحـه حتـى أتراجـع عـن النكـران.. كيـف بلـغ هـؤلاء السـابقون البوابـة؟!.. ليـت هنـاك طريقـة للتقـدُّم غـير هـذا الاعـتراف. تحـرك الطفـل النائـم عـلى كتـف رفعـت فجـأة إلى أعـلى وطـار بعيـدًا، ثـم اختفـى مـن بعـده كل الواقفـين تباعًـا..انتهـاءً بفرحـة التـي اختفـت دون أن تفـارق الابتسـامة ثغرهـا. حاولـتُ التحـرُّك إليهـا فلـم أسـتطع، حاولـت الـصراخ مُسـتنجدًا بهـا لتظـل معـي فلـم يخـرج صـوتي.. اختفـت البوابـة واختفـى كل شيء مـن حـولي وعُـدت إلى ظـلام القـبر مـرةً أخـرى..

أفقــتُ لأجــد نفــسي غارقًــا في بركــةٍ مــن العــرق الغزيــر الــذي بلــل الكفــن، وتســارعت أنفــاسي كأنهــا تتســابقُ عــلى الخــروج، وشــعرتُ بزلــزالٍ أحدثتــه نبضــاتُ قلبــي الــذي أعلــن عودتــه للخفقــان.. كــما أعلنَــت التركيبــة الثانيــة عــن بــدء عمليــة الإنعــاش.

١٠

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ

الأحد 12 فبراير 2006

كـما توقَّـع ناجـي؛ فقـد اقتـصر ثـاني يـوم مـن العـزاء عـلى الأقربـين مـن أفـراد الطحاويـة وعـلى الأقـلاء ممـن فاتهـم الحضـور أول يـوم.. تعجَّـب مـن غيـاب أمجـد ظنًّـا منـه أن اختفـاءه جـزء مـن الخطـة التـي -بالتأكيـد- تسـير عـلى مـا يـرام بعـد أن نفَّـذ دوره فيهـا. اسـتنكر ناجـي حديـث العائلـة فيـما يفـترض أنـه ثـاني يـوم يمـر عـلى وفـاة أخيـه؛ فقـد اقـترح أحدهـم تجديـد حـوش العائلـة ودهانـه وعمـل الأرضيـة ببـلاط باهـظ الثمـن، وافـق الجميـع عـلى الفكـرة وأعلـن عطـوة تبرعـه بنصـف المبلـغ، تناسـوا الحـداد وأخـذوا يتحدثـون عـن أتفـه التفاصيـل في عمليـة التجديـد.. تعجَّـب ناجـي مـن ولعهـم الشـديد بالتفاخـر حتـى في المـوت، ضرب كفًّـا بكـفٍّ دون تعليـق. أعلـن مـؤذن الجامـع القريـب مـن مـكان العـزاء عـن

وجـوب صـلاة المغـرب، تباطـأ ناجـي ولم يلحـق بهـم كعادتـه، ترجَّــل متمهــلًا نحــو عــزاء الحريــم المُقــام في بيــت رفعــت الطحـاوي؛ ذلـك البيـت الشـامخ والـذي كـثر بداخلـه المقيمـون والوافـدون والـزوار، تعـددت اسـتخداماته بـين مسـكنٍ ودوَّار ومـكان لتحفيـظ القـرآن وسرادق عـزاء حريمـي.

وقـف بعيـدًا يتأمـل جـدران البيـت التـي تشـقق دهانهـا واحتلـت العنكبـوت أركانهـا العليـا، نظـر إلى المقاعـد العتيقـة التـي تسـتقبل المُعزيـات؛ نفـس الوجـوه ونفـس الـكلام ونفـس الحـزن المصطنـع.. أشـفق عـلى أرجـل تلـك المقاعـد التـي تصـدر صريرهـا الـذي يشـبه الأنـين حـين تجلـس فوقهـا النسـوة مـن ذوات الأرداف الضخمــة.. أرســل رســالة إلى أمجــد يُطالبــه بالظهـور لحضـور العـزاء حتـى لا يُشَـك في أمرهـم، أخـبره بعنـوان مـوكل قديـم لديـه يعمـل بالتزويـر مُقترحًـا خلـق هويـة جديـدة كليًّـا ليحيـى.

انتظـر حتـى قامـت والـدة مـي لتذهـب إلى دورة الميـاه، ثـم مـال عـلى ابنتهـا، سـألها بصـوتٍ هـادئٍ ناظـرًا في عينيْهـا الحمراويْــن مــن كــثرة البــكاء عــمَّا إذا زارتهــم شــخصيةٌ مهمــةٌ اليـوم.. مسـحت مـي أنفهـا الدقيـق بمنديـلٍ ورقـي وقالـت بصـوتٍ مبحـوحٍ إن جميعهـن أتـين البارحـة، ولا يوجـد في العـزاء غـير قريباتهـا وقريبـات يحيـى.. صحـح لهـا ناجـي قائـلًا: "يحيـى اللـه يرحمـه".. لم تكـد مـي تسـمع جملـة ناجـي حتـى انخرطـت في بـكاءٍ طويـلٍ، لم يشـأ أن يُخبرهـا بخطـة يحيـى في

تزييف وفاته؛ فكَّر في التربح من الموقف قدر الإمكان. جلس على ركبتيه أمام مي، مدَّ يده إليها بمنديلٍ مُعطر، قال لها مُهَدِّئًا إن الحياة كالقطار لن يقف من أجل أحدٍ.. صحيح أنه يسير ناقصًا عربة أو اثنتين.. ولكن يجب أن يُكمِل رحلته، أردف قائلًا بلهجةٍ عمليةٍ:

- تحبي نقسم ولا نسيبها مشاع؟

نظرت له مي نظرةً مُستفهمةً فوضَّح لها مقصده قائلًا:

- تركة يحيى.. ما بين نصيب يحيى في البيت ده والأرض اللي جنب المستوصف، وشقة الحسين اللي أنا عايش فيها وشقة الزوجية.. أنا هاكتب لك تنازل عن العربية وعن أرصدة يحيى في البنك..

عقَّبت مي بلهجةٍ مُتهكمةٍ:

- اتنازلت عنهم عشان عارف إنهم ملاليم؟

تلفت ناجي حوله، وحين تأكَّد من انشغال أعين النساء الجالسات عنه، نظر إلى يد مي اليسرى المفرودة على ركبتها فوضع يده عليها برفقٍ ناظرًا في عينيْها مباشرةً، قال إنه تنازل لتتأكد أنه ليس طامعًا؛ فكل ما يريده أن تكون مرتاحةً.. سحبت مي يدها بهدوءٍ، وقالت بحزمٍ:

- جتة أخوك لسّه بلحمها يا أستاذ ناجي.. ولولا مشيئة ربنا كان زماني أم أولاده.

وقـف ناجـي عـلى قدميْـه قائـلًا بابتسـامةٍ خافتـةٍ إن عطـوة سـيعقد مجلسًـا مصغـرًا للعائلـة، مشـترطًا حضورهـا مـكان يحيـى.. أجابتـه بتعجُّـب أن يحيـى نفسـه لم يحـضر أبـدًا.. ردَّ بهـدوءٍ:

- ما عشان كده لازم تحضري.

سألت مي مُستدركةً :

- صحيح هي فين نرجس؟.. مش شايفاها خالص!

***

كان أنــس يفضِّــل العمــل في منزلـه الفخــم ذي الإضــاءة الهادئـة والأثـاث داكـن اللـون، مـارس عادتـه في تنـاول ″عـين الجمـل″ أثنـاء مطالعتـه لـلأوراق البحثيـة التـي يعمـل عليهـا، كان يحــرصُ دومًــا عــلى ظهــور بــرواز صغــيرٍ أمامــه وســط كومـة الأوراق الموضوعـة أمامـه والتـي يحمـل بعضهـا توقيعـه: ″د. أنـس عـز الديـن″.. اسـتقرت داخـل الـبرواز صـورةٌ نهاريـةٌ لأنـس مـع زوجتـه وابنتـه الوحيـدة داليـا، يظهـر في الخلفيـة حـمَّام سـباحة واسـع خـاص بأحـد الفنـادق الشـهيرة في القاهـرة؛ أقـام فيـه أنـس منـذ فـترةٍ بنـاءً عـلى دعـوةٍ مـن إحـدى شركات الأدويـة لحضـور مؤتمـرٍ طبـي.

لم تكـن داليـا تُشـبه أباهـا بقامتـه القصـيرة النحيلـة وبشرتـه الخمريـة ورباطـة جأشـه التـي لم يفقدهـا في أصعـب أوقـات

حياتـه، ولم تشـبه أمهـا شـديدة البيـاض ذات العينـين العسـليتين والقـوام الممتلـئ عنـد مناطـق الأنوثـة دون غيرهـا وضحكـة طفوليـة لا تُفارقهـا؛ كان يـرى داليـا ناتجًـا أكـثر جـودة ونقـاء مـن العنـاصر المتفاعلـة عـلى الطـرف الآخـر مـن المعادلـة.

كان أنــس يحتفـظ داخـل درج مكتبـه بملـفٍّ طبـي يحمـل اسـم ابنتــه.. اعتــاد مطالعتــه مــن آنٍ إلى آخـر ليذكِّـر نفســه كيـف تحـوَّل مسـار حياتـه كليًّـا؛ تذكـر حـين وُلـدت داليـا وتـم تشـخيصُها بمـرضٍ تجميـلي يُدعـىPlagiocephally ، ويعنـي تسـطُّح عظـام الجمجمـة.. كان يعلـم أنهـا مشـكلةٌ بسـيطةٌ، ولكـن علاجهـا باهـظ التكلفـة ويجـب أن يتـم خـلال السـنة الأولى مـن عمـر المولـود. اقـترح عليـه أخـوه كريـم فكـرة نبـش القبـور، وافـق أنـس عـلى مضـضٍ بعـد تـردد لم يـدم طويـلًا.. اسـتعان كريـم بأحـد أصدقائـه العاطلـين عـن العمـل- ومـا أكثرهـم- في تنفيـذ أول عمليـة. تتابعـت عمليـاتُ المُتاجـرة في الجثـث، وقـد اكتسـبت طابعًـا احترافيًّـا، وفي وقـتٍ قصـيرٍ تضاعـف العاملـون تحـت إمـرة أنـس الـذي اسـتطاع- خـلال زمـنٍ قيـاسي- توفـير كافـة النفقـات اللازمـة لسـفر ابنتـه للعـلاج في ألمانيـا.

أدرك أن الأمـر لم يعـد بخصـوص المـال حـين اسـتمرَّ في عملـه الـسري بعـد شـفاء داليـا، وبعـد نجاحـه في جَنْـي الكثـير مـن الأمـوال التـي تكفـل لأسرتـه مسـتقبلًا كريمًـا؛ لكنـه اسـتمرَّ سـعيًا

وراء التميُّـز حـين وجـد ذاتـه في هـذا العمـل الـذي تفـوَّق فيـه كثـيرًا عمَّــن ســواه.. عمــل بمنتهــى التفــاني والجديــة في هــذا المجـال المشـبوه حتـى كـبرت جماعتـه واتسـع نشـاطها، فآلـت الأمـور إلى مـا أراد.. وأصبـح الأفضـل فيـما يفعـل.

اقتحمـت داليـا غرفـة مكتـب أبيهـا دون اسـتئذانٍ حاملـةً طبقًـا كبـيرًا مـن المكسَّرات المُفضلـة لأبيهـا، ليحتضنهـا الأخير بعد أن يتنـاول منهـا الطبـق ويُجلِسـها فـوق فخـذه الأيمـن، سـألها عـن أمهـا.. أجابتـه الإجابـة التـي توقعهـا: فأمهـا تقـضي معظـم أوقـات راحتهـا في قـراءة الروايـات البوليسـية التـي كان يراهـا مضيعـةً للوقـت، وكانـت تراهـا قاتلـةً للفـراغ، في ظـل غيـاب زوجهـا إمـا في العمـل خـارج المنـزل أو لمواصلـة العمـل بداخلـه.. داعـب أنـس خصـلات شـعر ابنتـه السـوداء التـي ورثتهـا عـن جدتهـا أم أمهـا، والتـي زرعـت داخـل أم داليـا منـذ صغرهـا أن جمالهـا هـو سـلعتها الأغـلى للقفـزة الطبقيـة التـي تتمناهـا؛ رفضــت الكثــير مــن المتقدمــين لزواجهــا؛ لضعــف مســتواهم الاجتماعـي والمـادي، حتـى حسـم أنـس المـزاد عـلى جـمال الابنـة التـي تصغـره بعـشر سـنين، حـين أتى مُسـلحًا بشـهادةٍ جامعيـةٍ مرموقـةٍ وثـروةٍ صغـيرةٍ وطمـوحٍ كبـيرٍ، سـاعده الحـظ حـين مرضـت حماتـه بعـد قـراءة الفاتحـة لتجـده موفـرًا لهـا كافـة أنــواع الرعايــة بمســاعدة زملائــه مــن مختلــف التخصصــات.. ليضـع الأم تحـت ضرسِـه، ويضـع الابنـة عـلى فراشـه.

ظـلَّ يُلاعـب داليـا ويبعـد يديْهـا عـن الأوراق المنشـورة فـوق مكتبـه، سرح في لقاءاتـه الحميميـة القليلـة بأمهـا والتـي كانـت كحياتهـما: فاتـرةً وخافتـةً ومظلمـةً، لا هـدف لهـا سـوى داليـا.. لم تشُـك يومًـا في عـدم خيانتـه لهـا؛ ليـس ثقـةً في ولائـه بقـدر مـا كان الأمـر ثقـةً في تواضـع قدراتـه وضعـف شـهوته التـي لم تتجـاوز كثـيرًا شـهوتها المختونـة.. كان خضوعـه الأعظـم أمـام شـهوة الـثراء؛ الأمـر الـذي جعلـه ينتهـك قَسَـمه الطبـي، مكوِّنًـا عصابتـه الصغـيرة المتخصصـة في نبـش القبـور.

- هو إحنا ما بقيناش نزور جدو ليه؟

قاطعـت داليـا خواطـره، فنظـر إليهـا مبتسـمًا وأشـار بيـده إلى أعـلى قائـلًا بلهجـةٍ حـاول ألا يشـوبها حـزنٌ "أن جدهـا عنـد ربنـا".. سـألته بـبراءةٍ كيـف صعـد إلى السـماء.. ردَّ أنـس موضحًـا أن جسـده لا يـزال عـلى الأرض، ولكـن روحـه صعـدت إلى اللـه؛ بسَّـط عليهـا الأمـر حـين شرح لهـا أن الـروح التـي تجعلهـا تحيـا وتتحـرك وتتنفـس أيضًـا.. سـألته:

- يعنـي جِـدو موجـود لسّـه في بيتـه بـس لـو روحنـا كلمنـاه مـش هايـردّ؟

أخبرهــا بصــوتٍ خفيــضٍ أن جدهــا مدفــونٌ في الأرض كــما أمرنـا ربنـا أن نفعـل مـع المـوتى.. أطلقـت داليـا صرخـةً قصـيرةً فاحتضنهـا أنـس بحنـانٍ طالبًـا منهـا ألا تخـاف عليـه؛ فهـو في مـكانٍ أفضـل الآن، قـال لهـا بحـزن إن الأحيـاء مـن يسـتحقون

الشـفقة لا الأمـوات. قبـل أن تسـأل أسـئلةً أخـرى رنَّ هاتفـه المحمـول معلنًـا عـن اتصال وارد مـن أخيـه كريـم، تنـاول أنـس قطعـةً مـن المكـسرات وردَّ عـلى الهاتـف قائـلًا بفـمٍ نصـف ممتلـئ:

- أيوه يا كريم.. داليا بتسلم عليك، تاخد تكلِّمها؟

أخـبره كريـم بأنفـاسٍ متلاحقـةٍ أن لا وقـت لمثـل هـذا الحديـث المُجامـل، طلـب منـه أن يحـضر سريعًـا.. أنـزل أنـس داليـا مـن عـلى حِجـره واعتـدل سـائلًا كريـم بقلـقٍ عـمَّا حـدث.. ردَّ كريـم بقلـقٍ:

- مـش خـير.. الـواد صـبري ركـب مـع عصـام السـواق وراحـوا مدافـن طحـا؛ عشـان يطلَّـع جثـة الراجـل الـلي مـات في عيـادة دكتـور أمجـد...

قال أنَس بعجلةٍ:

- وبعدين؟

- رجـع العربيـة بعـد خمـس دقايـق مـن دخولـه الـتُّرَب بيترعـش وبيخـرَّف، بالعافيـة عصـام عـرف يربطـه في الكـرسي وجابـه المصنـع.. أول مـا جـه فضـل يتلـوى عـلى الأرض زي مـا يكـون اتلبـس، وبقالـه سـاعة مـا بينطقـش!

***

وضعـت السـيدة أمـل جـارة إيفلـين صينيـة القهـوة أمـام أقـارب أمجـد بابتسـامةٍ سـمجةٍ، لم تكـن تعـرف عـن إيفلـين قبل رحيـل أمجـد سـوى أنهـا ″الخواجايـة″ زوجـة الطبيـب القاطن في الشـقة المقابلـة لشـقتها ويعمـل بالعيـادة التـي تعلوهـا بطابقين في نفـس العقـار.. شـعرت بمسـئوليةٍ تجـاه هـذه الغريبـة فظلَّـت بجوارهـا هــي وبناتهـا المراهقـات للتخفيـف عنهـا ومسـاعدتها في اسـتقبال قريبـات أمجـد وزميلاتـه السـابقات في الدراسـة وإعـداد الطعـام لهـا؛ كعـادة المصريـات في مثـل هـذه المواقـف.. كـما أعارتهـا جهـاز التسـجيل وشرائـط القـرآن لتشـغيلها أثنـاء زيـارة المُعزيـات، كانـت إيفلـين تطفئـه فـور رحيلهـن.

قامـت إيفلـين وصافحَـت أمـل شـاكرةً بلسـانٍ لم يتقـن نطـق العربيـة برغـم فهمهـا للغـة بشـكلٍ تـام.. أدركـت أمـل بفطنتهـا أن هــذا الكهـل والـد أمجـد وأن هاتـين السـيدتين المكلومتـين أمـه وأختـه، كـما لاحظـت أن مصافحـة إيفلـين لهـا مـا هـي إلا طريقـة لإبـداء الامتنـان وإخبارهـا بوجـوب رحيلهـا.

اعتـدل أبـو أمجـد في جلسـته واضعًـا قدمـه فـوق الأخـرى، علمــت إيفلــين أن هــذه الوضعيــة في الجلــوس تعنــي لــدى المصريـين التعـالي عـلى الطـرف المقابـل، ولكنهـا لم تبـالِ بمحاولات حماهــا في اســتفزازها، وفعلــت مثلــه بحكــم تعوُّدهــا عــلى الجلـوس بنفـس الطريقـة فتراجعـت تنورتهـا قليـلًا، نظـرت والدة

أمجـد لزوجهـا لتتأكـد أنـه يغـضُّ بـصره، قالـت لإيفلـين بضجـرٍ بعـد أن اسـتعاذت باللـه:

- إنتي عارفة إن أمجد الله يرحمه اتجوزك من ورانا!

قالـت إيفلـين بلهجـةٍ حاولـت أن تجعلهـا سـليمةً تمامًـا دون وقـوفٍ في وسـط الـكلام مـع ضبـط مخـارج الحـروف أنهـا تزوجتـه أيضًـا دون إعـلام إهلهـا؛ فـرقٌ كبـيرٌ بـين الـزواج في الـسر وبـين اعتبـار هـذا القـرار لا يخـص سـواهما. قـال والـد أمجـد بلهجـةٍ أكـثر عمليـة:

- عـلى الـورق إنتـي وأمجـد مـش متجوزيـن؛ لأن طريقـة جوازكـوا في إنجلـترا مـش معـترف بيهـا في مـصر.. يعنـي إنتـي في نظـر الحكومـة المصريـة سـائحة ألمانيـة مـش متجـوزة.

ردَّت إيفلـين مسـتفهمةً عـن كيفيـة بياتهـما معًـا في نفـس الغرفـة بالفنـدق الـذي نزلـوا بـه في بدايـة إقامتهـا بمـصر؛ برغـم أنهـا تعلـم أن نظـام الفنـادق في مـصر يمنـع غـير المتزوجـين مـن الإقامـة بنفـس الغرفـة. نظَـرَت لهـا أخـت أمجـد مـن أعـلى إلى أسـفل؛ لم تكـن خلقتهـا مليحـةً كأخيهـا، وتذكـرت إيفلـين حـين رأت صـورة عائلـة أمجـد في حافظـة نقـوده، فقالـت لـه مازحـةً إنـه أخـذ حظـه وحظهـا مـن جـمال والديْهـما.. قالـت لإيفلـين بلهجـةٍ مُتهكمـةٍ:

- عشـان أخويـا كان معـاه جنسـية أجنبيـة.. يعنـي كانـوا بيتعاملـوا معاكـوا عـلى إنكـوا متصاحبـين.

بـدا عـدم الفهـم عـلى أم أمجـد فهمسـت لهـا ابنتهـا ببضـع كلـمات علَّقـت عليهـا الأم مُسـتعيذةً باللـه، قالـت لإيفلـين بحدَّةٍ وهـي تضبـط مـن وضـع حجابهـا أن تسـتعد لإجـراء تحليـل DNA في حالـة اكتشـاف حـدوث حمـل؛ حتـى تتأكـد أن الولـد الآتي سـيكون حفيدهـا مـن صلـب ولدهـا.. حاولـت إيفلـين كبـح جـماح غضبهـا، ولكنهـا قالـت بصـوتٍ عـالٍ إنهـا اتفقـت مـع أمجـد عـلى تأجيـل الإنجـاب، ومـن الجيـد أنهـا فعلـت، أشـارت إلى خاتـم الـزواج المسـتقر حـول بنصرهـا الأيـسر وقالـت ببـطء إنهـا ليسـت عاهـرة!.. كادت أخـت أمجـد أن تدخـل معهـا في جـدالٍ حـول معتقداتهـا المتفتحـة تجـاه الجنـس قبـل الـزواج، وعـدم إيمانهـا بنفـس ديـن زوجهـا، ولكـن قاطـع أفكارهـا قَـوْلُ أبيهـا:

- ما حدِّش قال كده يا بنتي.. بس إنتي هنا لوحدك...

قاطعتـه ابنتـه قائلـةً إنهـا مجـرد أجنبيـة في مـصر، ليسـت حاضنـةً لطفـلٍ حتـى تحمـل الجنسـية المصريـة؛ أي أن إقامتهـا سـتنتهي قريبًـا.. لم تـدرِ إيفلـين مـاذا تقـول؛ كان التيـار قويًّـا ضدهـا، سـمعت صـوت جـرس البـاب فتوجَّهـت مسرعـةً لتفتـح للطـارق الـذي كان جُـبران، لأول مـرة في حياتهـا تبتسـم في وجهه؛ رأت فيـه طـوق النجـاة الـذي قـد ينقذهـا مـن أقـارب زوجهـا

الراحــل وســهام كلامهــم. جلــس جــبران وحــاول وضــع قدمًــا فــوق الأخــرى مواجهًــا لأبي أمجــد، ولكــن بدانتــه منعتــه، فتــدارك نفســه قبــل أن يُصبــح مظهــره مُضحــكًا، وقــال:

- أنــا ماحضرتــش القعــدة مــن أولهــا يــا أســتاذ عــمَّار.. بــس خمِّنــت الــلي قولتــوه للدكتــورة..

حاولـت أم أمجـد اسـتمالته، سـألته برفـقٍ إن كان يُرضيـه أن تـأتي "خواجايـة" تـسرق تعـب صديـق عمـره وشـقاه في الغربـة، ذكَّرتـه بفضلـه عليـه بعـد أن كان عاطـلًا لا يفعـل شـيئًا سـوى الجلـوس عـلى المقاهـي.

ثــار جــبران لــدى ســماعه الجملــة الأخــيرة وقــال بصــوتٍ لم يخــلُ مــن حــدَّةٍ:

- أنا ماليش كلام مع حضرتك وهارُد على راجل بيتك..

ثم أردف مُوجهًا حديثه لعمَّار:

- بــص يــا حــاج.. صاحــب عُمــري لــو كان موجــود وســطنا مكانــش هايــرضى مراتــه تتعامــل المعاملــة دي، دكتــورة إيفلــين ليهــا فضــل كبــير في الفلــوس الــلي ابنكــوا عملهــا ســواء بــرَّه أو في مــصر، ولحــدِّ آخــر أيامــه كان بياخــد رأيهــا في حــالات عنــده قدَّامــي.. حــرام يكــون ده جزاءهــا.

اسـتهجنت أخـت أمجـد حديـث جـبران متسـائلةً بحـدة أيـن الحـرام في تطبيـق شرع اللـه في المواريـث.. ردَّ جـبران بهـدوءٍ أنـه

يحترم شرع الله، ولكن هذه الشقة من ممتلكات الدكتورة "إيف"، أردف قائلًا قبل أن يعترض أحدهم:

- أمجد الله يرحمه أول ما رجع من آخر سفرية ليه قال لي أروح أسجِّل الشقة باسم إيفلين بيع وشرا بالتوكيل اللي معايا.

ثم أخرج من جيبه ورقتين ومرَّرهما على الجميع قائلًا إن الورقة الأولى صورةٌ من التوكيل الذي كتبه أمجد له، وأن الورقة الثانية صورة من عقد التمليك المكتوب باسم إيف.. والوثيقتان مسجلتان في الشهر العقاري. أبدت إيفلين دهشتها وقالت أم أمجد بعتابٍ:

- بتستغل التوكيل اللي كان عاملوهلك عشان تدوَّر أملاكه وتوزع فلوسه على مزاجك يا قليل الأصل؟!

ردَّ جبران بهدوء:

- أنا لو كده كنت كتبت باسمها كل حاجة.. أنا ماليش مصلحة، وماعملتش حرف زيادة عن اللي أمجد الله يرحمه طلبه مني..

ثم نظر إلى عمّار، واستكمل حديثه قائلًا:

- بدليل إن العيادة لسّه باسمه، وحضراتكم اللي هاتورثوها مع باقي الأملاك بشرع ربنا؛ الأم ليها التِلت والباقي للأب.

نهض الأب متعصبًا، أشار لأسرته بالقيام وقال ساخرًا:

- اشبعي بالشقة.. دي ما تجيش حاجة في اللي كان مع أمجد الله يرحمه.

عادت الأم للبكاء وتبعتها الأخت بعد تماسكٍ ظاهري أمام إيفلين، قال جبران وهو يصافح عمَّار رغمًا عنه:

- اشبعوا إنتوا بالباقي من فلوسه، عشان هي مش هاتشبع بالشقة بس.. أمجد الله يرحمه زي ما يكون كان قلبه حاسس؛ خلَّاني أكتب بوليصة تأمين على حياته لصالح زوجته، أنا كنت معترض في الأول عشان قيمة الأقساط غالية بس ماكنتش أقدر أرفض له طلب.

وقبل أن يُجادل عمَّار قال جبران بهدوءٍ:

- ولحسن الحظ إن شركة التأمين أجنبية وفاتحة فرع جديد في مصر.. يعني معترفة بجوازهم.

بدت على إيفلين الصدمة الممتزجة بالاطمئنان الناتج عن شعورها بالنجاة، فأردف جبران مُلقيًا قنبلته الأخيرة وحاسمًا الحرب لصالح زوجة صديقه ورب عمله أنه تلقى تحويلًا بنكيًّا منذ أسبوع من أمجد.. وقام بدوره بتحويل الأموال لحساب شركة التأمين بقيمة أول قسط من البوليصة؛ البوليصة التي تبلغ قيمتها عشرة ملايين جنيه.

***

أمـر عطـوة خفـره بإغـلاقِ مُكـبر الصـوت الـذي يـتردد مـن خلالـه القـرآن ليرحـلَ بواقـي المُعزيـن والطحاويـة مـن حديقـة منزلـه حيـث أقيـم ثـاني أيـام العـزاء، وأشـار لفرحـات بالبقـاء قائـلًا لـه إنـه يُريـد حضـوره الـكلام الـذي سـيقوله لزوجـة يحيـى؛ فهـي لا تثـقُ فيـه ولا في ناجـي.. فيجـب حضـور طـرفٍ محايـدٍ لتهدئـة الأجـواء.. سـأل فرحـات بصـوتٍ هامـسٍ:

- إنتـوا قولتـوا لهـا خـبر إن أرض يحيـى هاتخـش كـردون مبـاني؟

نهره عطوة قائلًا:

- إنـت عايـزني أقـول لهـا إن الأرض كـمان شـهر هايبقـى سـعرها أضعـاف دلوقتـي عشـان تمسـك فيهـا؟!

لم يعلـق فرحـات كعادتـهِ حـين يحتـد عليـه ابـن عمـه عطـوة، لحـق بـه مُتجهًـا إلى بيـت العائلـة القديـم المجـاور لـدوَّار عطـوة.. جلسـت مـي ملاصقـةً لأمهـا وجلـس أمامهـا ناجـي وبجـواره فرحـات، وظـل عطـوة واقفًـا، قـال بصـوتٍ مرتفـعٍ وبلهجـةٍ حزينـةٍ:

- الطحاويـة بيخلصـوا.. وعيـالي واحـد مـات عـازب والتـاني مدمـن مراتـه رافعـة عليـه قضيـة حضانـة والتالـت ابـن أمـه يعنـي جـدر مخـوَّخ مـش هايطلّـع زرعـة نافعـة،

مافيـش حـل غـير إن ناجـي يتجـوز ويجيـب حفيـد طحاوي مـتربي صـح.

لم تعلـق مـي ولا أمهـا.. أمَّـن فرحـات عـلى كلام عطـوة بإيمـاءةٍ مـن رأسـه في حـين طأطـأ ناجـي رأسَـه في الأرض.. ليُكمـل عطـوة حديثـه قائـلًا:

- حسـب شرع ربنـا.. تركـة يحيـى هاتتقسـم الرُّبـع لأبلـة مـي والباقـي لناجـي أخـو المرحـوم.. وطبعًـا مـا يرضيـش ربنـا إن أرض الطحاويـة تـروح للأغـراب.

قالت مي بهدوءٍ:

- الأرض هاتفضـل متأجـرة للفلاحـين يزرعوهـا زي مـا يكـون يحيـى اللـه يرحمـه عايـش، ويـوم مـا هابيـع وعـد منـي مـش هابيـع غـير لناجـي أو لحضرتـك.

قـال عطـوة إن وعدهـا ليـس عقـدًا، ومـن حقهـم أن يضمنوا حـق حفيـد الطحاويـة الـذي سـيرث منصبـه.. لا مفـر مـن أن تتـزوج مـي مـن ابـن أخيـه بعـد انتهـاء أشـهُر العِـدة.. صاحـت مـي مُعترضـةً عـلى هـذه الزيجـة، قالـت إنهـا تُفضـل التسـوُّل عـلى الـزواج قـسرًا. لكزتهـا أمهـا في ذراعهـا اعتراضًـا عـلى تصريحها بإمكانيـة تنازلهـا عـن المـيراث، سـألت فرحـات إن كان يُرضيـه تحكُّـم عطـوة في مصـير ابنتهـا.. علَّـق فرحـات بصـوتٍ خافـتٍ:

- الجـواز لازم يتـم باتفـاق الطرفـين مـن غـير ضغـط بفلـوس أو بغـيره..

ثـم عقَّـب حـين شـعر بنظـرات عطـوة تحـرقُ وجهـه أن ناجـي لا يعيبـه شيء، وفيـه الكثـير مِـن يحيـى اللـه يرحمـه.. عـلاوة عـلى أن ناجـي أكـثر مـالًا وأصغـر سـنًّا مـن يحيـى. اسـتمر اعـتراضُ مـي بعبـاراتٍ تخللتهـا بعـضُ الألفـاظ الجارحـة في حـق ناجـي الـذي يصغرهـا بحـوالي خمـس سـنوات، تظاهـر رجـالُ الطحاويـة بأنهـم لم يسـمعوها، حتـى أسـكتتها الأم بصعوبـةٍ بعـد أن وضعـت يدهـا داخـل فمهـا تقريبًـا.. وقالـت لعطـوة بدبلوماسـيةٍ أن يُعطـي ابنتهـا مهلـةً للتفكـير؛ فـدم يحيـى لم يـبرد بعـد! ردَّ عطـوة بحـزمٍ أن أمامهـا أسـبوعًا للتفكـير، طلـب منهـا أن توعِّـي ابنتهـا لمصلحتهـا، أردف بلهجـةِ تهديـد:

- لـولا إننـا بنراعـي شرع ربنـا كُنـا خليناهـا تطلـع مـن غـير فلـوس ولا جـواز، ولـو مـا تعرفيـش الـلي حصـل لنرجـس بنـت أختـي...

أطلقـت فجـأةً أم مـي صرخـةً مُدويـةً، وسـقطت ابنتهـا مغشـيًّا عليهـا.. اتسـعت عينـا ناجـي وسـقط قلبـه في يـده، في حـين كاد قلـب فرحـات أن يتوقـف!.. شـعر عطـوة بيـدٍ غليظـةٍ تُحكـم قبضَتهـا عـلى كتفـه، وصـوتٍ مبحـوحٍ يقـول:

- وزَّعت فلوسي وجوِّزت مراتي لأخويا.. كمِّل كمِّل!

كاد فرحات يتحدث، ولكن يحيى أخرسه قائلًا:

- ده إنتوا كتَّر خيركوا إنكوا ما بيعتوش جتتي!

فـزع الجميـعُ مـن منظـر يحيـى؛ فقـد كان حـافيَ القدمـين مُرتديًـا جلبابًـا شـديدَ القـذارة.. تغـيَّرت هيئتـه كثـيرًا عـما عرفـوه؛ ابيـضَّ جـزءٌ مـن شَـعر رأسـهِ، كـما بُـحَّ صوتُـه وفَقَـد وزنًـا واكتسـب هالـةً مُفزعـةً جعلتهـم يخشـونه كالمـوت.. ألقـى نظـرةً حانقـةً عـلى ناجـي دون أن يتكلـم، وأكمـل حديثـه قائـلًا بصـوتٍ عـالٍ:

- اطلعوا بره كلكوا.. يحيى الطحاوي ما ماتش!

لم يقـوَ أحدُهـم عـلى معارضتـه، حتـى والـدة مـي تركـت ابنتهـا الغائبـة عـن الوعـي وراحـت تركـضُ قـدر اسـتطاعتها خلـف عطـوة وفرحـات، تمهَّـل ناجـي وكاد أن يقـول شـيئًا لـولا إشـارة حازمـة مـن يـد يحيـى جعلتـه يلحـق بالباقـين ويُغلـق البـاب خلفـه. لم يندهـش يحيـى مـن طاعتهـم العميـاء، كان يعـرفُ أن الموقـف صعـب التصديـق وأن هيئتـه البشـعة ومنظـره أكسـباه هيبـةً لم يتميـز بهـا طيلـة حياتـه.. نظـر إلي مـيّ وعـرج نحوهـا بخطـواتٍ قليلـةٍ يجـرُّ قدمـه اليسرى، وقبـل أن يوقظهـا انهـار مغشـيًّا عليـه ليُحـدث سـقوطه صوتًـا عاليًـا تـردد صـداه عـلى المـدى البعيـد، غـاب في غفـوةٍ طويلـةٍ، لم يـدرِ أنـه سـلب أهـل طحـا النـوم؛ بعـد أن وجـدوا في قصـة عودتـه مجـالًا للحكايـات التـي سـتملأ فـراغ الحديـث بمجالسـهم لسـنين قادمـة.

١١

نَصْرٌ بِلاَ غَنَائِم

الأحد 26 فبراير 2006

غـزت أشـعة المصباح الكهربـائي البيضـاء قرنيـة عينـي حـين فتحـت لهـا أبـواب جفـوني بعـد نـومٍ هـادئٍ بـلا أحـلامٍ؛ كعـادتي بعـد الحادثـة التـي مـضى عليهـا أسـبوعان. نظـرتُ إلى العمـود الحديـدي الصـدئ الـذي ظلّـت تُعلَّـق عليـه المحاليـل المتصلـة بجسـدي لمـدة أسـبوع، كانـت ضروريـةً لإعـادة الـدورة الدمويـة إلى قدمـي التـي تخـثَّر الـدم فيهـا؛ لم أعـرف إنْ كان التجلُّـط قـد حـدث بفضـل تركيبـة إيفلـين أم بسـبب التجربـة المُفزعـة التـي مـررتُ بهـا.. تبيَّنـت مـن خـلال نافـذة الغرفـة أننـا في حقبـة غـروب الشـمس؛ كان يومـي دهـرًا طـوال أسـبوعين لم أغـادر فيهـما فـراشي إلا متوكئًـا نحـو دورة الميـاه، لاحظـت بجـوار النافـذة شرخًـا شـديد الاتسـاع.. حـين أسـتعيد قـواي سـأرمم المنـزل مهـما كلفنـي مـن مـال.

لم ترحـل رائحـةُ أبي معـه عـن هـذه الغرفـة؛ طالمـا تخيلتـه طفـلًا نائمًـا فـوق هـذا السريـر، تأتيـه أمـه لتوقظـه كي يذهـبَ إلى المدرسـة، أراه صبيًّا يُخفـي ثيابـه المتسـخة مـن لعـب الكُـرة خلـف خزانـة الملابـس حتـى لا توبخـه فرحـة، يتجسـد لي غلامًـا يُذاكـر دروسـه عـلى ضـوء مصبـاح الجـاز ذي الرائحـة النفـاذة والصـوت المزعـج بـلا تشـجيعٍ مـن أسرةٍ قرويـةٍ لم تُـدرك أهميـة التعليـم، أتذكـر مـا حكتـه لي فرحـة حـين كان شـابًّا يُعـد حقيبـة ملابسـه مُتوجهًـا إلى حـي الحسـين حيـث سيُقيم ليُكمل دراسـته الجامعيـة.. أخبرتنـي أنـه بـكى بـين أحضانهـا كـما لم يفعـل مـن قبـل؛ أدركتُـه ضعيفًـا خـارج وطنـه الأصـلي الكائـن بـين ذراعيْهـا. قصَّـت عـليَّ يـوم إعـلان نتيجـة الثانويـة العامـة وقـراره بـأن يُصبـح مهندسًـا، وقتهـا صعـد أخـوه عطـوة إلى سـطح المنـزل وظـلَّ يبـكي حالـه يومـين مُتصلـين؛ فهـو لم يتـم دراسـته بعـد الإعداديـة، لم يهـدأ حتـى حصـل عـلى وعـدٍ مـن أبيـه بـأن يعهـدَ لـه بالعموديـة مـن بعـده، استعَدتُ حديـث فرحـة عـن ندمهـا حـين عارضـت طلـب أبي بالـزواج مـن أمـي "المصراويـة".. كانـت فكرتهـا عـن بنـات القاهـرة مسـتوحاةً مـن الأفـلام العربيـة وقتئـذٍ؛ فتصوَّرتهـم جميعًـا في هيئـةٍ جامحـةٍ تبحـث بـدأبٍ عـن أي رجـلٍ يمتلـكُ المـال لترمـي نفسـها بـين أحضانـه.. ليتهـا كـرَّرت ذلـك الرفـض حـين صارحتهـا برغبتـي في الـزواج مـن مـي.

أتمنـى أن أجتمـع بالراحلـين ولـو خمـس دقائـق ثـم أمـوت بعدهـا؛ سـأكافئ عينـي برؤياهـم وقلبـي بعناقهـم وأشـبع وروحـي مـن نقـاء أرواحهـم، سأسـألهم...

- إنت بتعيط ولا إيه؟!

اعتدلـتُ في جلسـتي حـين دخلـت مـي الغرفـة مُقتحمـة معهـا خواطـري، كانـت تحمـلُ بحـرصٍ صينيـةً كبـيرةً اسـتقرت عليهـا ثلاثـة أطبـاق مـن الطعـام، لم أسـترد شـهيتي تجـاه الأكل بعـد، ولكنـه بالنسـبة لي كان ضروريًّـا كالـدواء لأسـتردَّ عافيتـي ووزني الـذي فقدتـه بشـكلٍ مريـبٍ وقـت الحادثـة.. نظـرتُ إلى مـي نافيًـا بـكائي، بـررتُ دموعـي بـألمٍ أصـاب عينـي، قلـتُ بلهجـةٍ آمـرةٍ مُغـيرًا الموضـوع:

- وبعد كده لما تشوفيني نايم ابقي إطفي النور!

أبـدت تعجبهـا مـن أوامـري، ذكَّرتنـي بمشـاجراتي معهـا قبـل حادثـة الدفـن؛ حـين كانـت تُطفـئ أنـوار الغرفـة.. أجبتُهـا بتلقائيـةٍ أننـي كنـتُ أخشى النـوم في الظـلام، لكننـي عرفـت أن ثمـة ظلـماتٍ أشـد.. سـألتني بفـزعٍ:

- قصدك ضلمة القبر؟!

- الضلمة اللي جوايا أكبر.

- كنت فاكرة إني عارفاك كويس يا يحيى.

أشـحتُ بوجهـي دون أن أعـترضَ.. مـرَّت دقيقـة مـن الصمت الحَـرِج.. نظـرت إلى صـورة أبي وأمـي المعلقـة في الغرفـة، وقالت:

ـ كان نفسك تودَّعهم بشكل أحسن من كده؟!

قلتُ مُغيراً الموضوع:

ـ سبانخ تاني يا مي؟

سـألتني عـن صحتـي.. أجبتهـا بصـدقٍ أن وجـع قدمـيَّ قـلَّ كثـيراً عـما سـبق، وشـعور باقـتراب الشـفاء يُـراودني، أردفـتُ مقترحًـا النـزول لتنـاول الطعـام معًـا في البهـو.. بـدا عليهـا الفـزعُ وأخبرتنـي بـضرورة راحتـي.. تناولـتُ طعامـي في صمـتٍ، طلبـتُ منهـا أن تـأكلَ معـي ولكنهـا أبَـت، لم أخبرهـا أن آخـر لقـاء لي مـع أبي لم يكـن داخـل السـيارة التـي انقلبـت مثـل أمـي؛ فقـد لامسـتُ عظامـه داخـل كفنـه المهـترئ حـين نجحـت عمليـة إنعـاشي وارتجفـتُ بشـدةٍ داخـل قـبري، أثبتـت التركيبـة الثانيـة نجاحهـا؛ اسـتعدتُ شـعوري بأطـرافي وبـدأت أدخـلُ في نوبـة هلـعٍ تأخـرت كثـيراً؛ انتابـت جسـدي انتفاضـةٌ هائلـةٌ أقـوى مـن المعتـاد؛ كأنهـا تُطهـرني مـن الداخـل مودعـةً جسـدي، اخشوشـن بعدهـا شَـعري وسـمعت صـوت طقطقتـه المُنخفـض، شـعرت بقسـماتِ وجهـي وأسـاريره تـزداد صلابـة، بـدأتُ أشـعر بـألمٍ في كافـة جسـدي خاصـةً فقـرات ظهـري، قـلَّ إحسـاسي بقدمـي اليـسرى.. نزعـتُ الكفـن لتـزداد نفاذيـة الرائحـة البشـعة داخـل أنفـي حاولـتُ الزحـف نحـو بـاب القـبر مُتذكـرًا اتجـاه دخـولي..

اصطكـت يـدي بكومـةٍ مـن عظـام الأولـين المُلتفـة بأقمشـة أكفنـة قديمـةٍ باليـةٍ، والتـي علمـتُ أن عظـام أبي وسـطها حـين سـمعت سـلامة يُخـبر رزق أن مـن حسـن حظـي- كشـخصٍ ميـت- أن تربـة أبي لم تُفتـح منـذ شـهور وأننـي سـأدفن بجـواره. شـعرتُ باشـمئزازٍ قـوي ولكـن رغبـة البقـاء كانـت أقـوى.. يئسـتُ مـن الحركـة التـي أدركـت أنهـا لـن تزيـدني إلا فزعًـا، شـعرتُ بوجـود منفـذٍ صغـير الحجـم عنـد فتحـة اللحـد حـين تـسرَّب منـه الهـواء البـارد، لم أتبـين موقعـه تحديـدًا فاسـتنتجت أن الليـل قـد أغـشى، وأدركـت أن الحكمـة تقتـضي ألا أهـدر طاقتـي في صراخٍ لـن يسـمعه النائمـون.. وحتـى إن سـمعوه لـن يفتحـوا المقابـر ليـلًا وسـيظنون أننـي شـيطان يُريـد الخـروج ليعيـث في حيواتهـم فسـادًا، قـرَّرت انتظـار النهـار ولكـن الليـل أبى أن ينجـلي قبـل أن يفاجئنـي..

سـمعت صـوت خطـواتٍ مُتسـللةٍ في الخـارج، فكَّـرت أن أهتـف بعلـو صـوتي، ولكننـي خفـتُ أن أفـزع السـائر؛ فيصـير لَحْـدي منطقـةً محظـورةً ولا أسـتطيع الخـروج صباحًـا. سـمعتُ دقـاتٍ خفيفـةً عـلى بـاب القـبر وصـوت خـدش لطبقة الأسـمنت الرقيقـة المغلفـة لحـواف البـاب الصغـير، اقتحمتنـي فجـأةً لفحـةٌ مـن الهـواء البـارد؛ تبعهـا دخـولُ نبَّـاش القبـور الـذي لم يُضـع وقتـه مُسـتعيذًا باللـه بصـوتٍ خفيـضٍ وبـدأ يعبـث في كفنـي.. تحركـتُ مُفاجئًـا لـه وأخبرتـه بسرعـةٍ أننـي مـا زلـتُ حيًّـا: لا أسـعى لإيذائـه ولا أريـدُ إلا الخـروج.. انتفـض مُتراجعًـا وراح

يستعيذ بالله، ركض سريعًا لأسمع صوت دوران مُحرك سيارة.. زحفتُ حتى خرجتُ من القبر بهدوءٍ، حاولت أن أستر جسدي بثوب الكفن ولكنه كان يسقط رغمًا عني؛ لم يكن لديَّ من الأعصاب ما يُساعدني على الإمساك به، صممتُ على التحرك على الرغم من غياب شعوري بشقي الأيسر كله، ساترًا عورتي بيمناي ومتسترًا بظلام الليل. كان قفل الحوش مفتوحًا دون آثار كسر؛ يبدو أن هذا النبَّاش يعرف ما يفعله جيدًا ولا يُريد لأحد اكتشاف جريمته. خرجتُ إلى العراء، أردتُ الوصول إلى المسجد حيث ينام رفعت.. أثناء مسيري لمحت رزق المعتوه يسير فناديته بصوتٍ خفيضٍ كي لا يفزع، أقبل مُسرعًا وأبدى سعادته لعودتي، لم يخف ولم يندهش ولم يُطل السؤال، أخرج جلبابًا قذرًا من الكيس الأسود البلاستيكي الذي يحمله دومًا، ألبسني الجلباب- الذي لم أملك الرفاهية للاشمئزاز من رائحته المفعمة بنسائم العَرق والرَّوث- دون كلمةٍ إضافيةٍ.. طلب مني أن أتكئ عليه، اصطحبني مُتجهين إلى البيت حتى لا أموت بردًا.

علمتُ فيما بعد أن ناجي وعطوة وفرحات سمعوا صوت سقوطي أثناء هروبهم من الحالة المشوهة التي كنتُ عليها، عادوا إليَّ مُصطحبين طبيبًا عمل على إسعافي ومداواتي؛ علَّق المحاليل وكتب لي على أكثر من دواء، قال إنني سأحتاجُ وقتًا كي أسيرَ على قدمي اليسرى بشكلٍ طبيعي.. لم يسأل كثيرًا؛ ولم يملك أي من الحاضرين الإجابة.

أنهيتُ طعامي دون أن أتذوقه، بيد أنني تخيلتُ طعمه الرديء كما اعتدته من مي.. كنت أمازحها في بداية الزواج مُعلقًا أنني لن أُسمِّي الله قبل تناول طعامها؛ حتى يموت الشيطان مسمومًا. نهضت سريعًا مفاجئًا مي بخفة حركتي، توجهت للاغتسال بمفردي، لم أغتسل بالماء الدافئ على الرغم من برودة الجو، نظرتُ إلى مرآة الحمام لأطالعَ المسخ الذي صرتُ عليه؛ فقدت الكثير من وزني وبَزَغ السواد والتجاعيد حول عينيَّ التي جحظت مقلتاها فأصبحت أكثر بروزًا، كما اكتسبتُ سمرةً شاحبةً وبحَّ صوتي، وشاب شَعري من عند الفوديْن واخشوشن قليلًا، كما طالت لحظاتُ سرحاني وزاغ بصري قليلًا.

أقامت مي في الغرفة السفلية التي كانت تُقيم بها نرجس قبل أن يسجنها عطوة، كانت تزورها أمها وزوجة عمي بشكلٍ شبه يومي لمساعدتها في الاعتناء بي.. طرقتُ باب الغرفة لأجدها جالسةً بكامل ملابسها على أحد المقاعد اقتربت منها وانحنيتُ برأسي مُستهدفًا تقبيلها على وجنتها؛ فأبعَدَت رأسها عني في فزعٍ.. كرَّرت مُحاولتي فكرَّرت رفضها الناعم لمُلاطفتها، قلتُ بهدوءٍ إن ما كنتُ أخشاه قد حدث.. نظرتْ مُستفهمةً.. قلتُ لها بحسرةٍ:

- إنتي اتغيرتي يا مي؛ بطلتي تقعدي معايا، بطلتي ترتاحي على كتفي، بطلتي حتى تكلميني.

ردَّت مـي باسـتنكارٍ أنهـا تـرد عـليَّ حـين أحادثهـا.. قلـتُ لهـا:

- ردك عليَّـا مـش اهتـمام.. إنتـي طـول عمـرك بتيجـي تنكشـيني وبترغـي معايـا في سـيرة الخلـق.. حتـى لـو كنـت راجـع مـن بـرّه تعبـان ومـش شـايف قدّامـي.

اعتدلـت مـي قائلـةً بلهجـةٍ جـادةٍ إنهـا لا تُصدق عـودتي، وأن عقلهـا تمـت برمجتـه عـلى أنهـا صـارت أرملـة، أردفـتْ مُمسـكةً رأسـها في حـيرةٍ أن جميـع النـاس- باسـتثنائها-صدَّقوا نبأ عـودتي؛ فعـلى مـدار أسـبوعين كانـوا يـدورون القريـة مُردديـن حكايتـي، أوشَـكَتْ عـلى البـكاء حـين قالـت إنهـا لا تُصـدق وجـودي؛ فزوجهـا الـذي دخـل القـبر ليـس نفـس الشـخص الـذي خـرج منـه!.. قلـتُ وأنـا أهـزُّ كتفـيَّ:

- إحساسـك ده طبيعـي، والتجربـة الـلي مريـت بيهـا مـش سـهلة عشـان مـا تغيرنيـش.

- مـش دي المشـكلة.. أنـا حاسَّـاك غريـب، ومـش هاقلـع الأسـود عليـك، ولـو حـدّ مـا يعرفنيـش قـال لي يـا مـدام هاقـول لـه إني أرملـة!

سـألتها مُتهكـمًا إن كانـت تظننـي غريبًـا، وأن جلوسـنا تحـت نفـس السـقف وحدنـا حـرام.. نفـت ادعـائي بهـدوءٍ، قالـت دون

أن تنظـر في عينـي إنهـا ليسـت ناشـزًا؛ فلـن ترفـضَ معـاشرتي إن أصررتُ عليهـا.. صحـتُ فيهـا بغضـبٍ صـادقٍ:

- مـش هاترفضينـي؟!.. بأمـارة مـا إنتـي قاعـدة مـع جـوزك بالحجـاب!

نظـرت لي نظـرةً طويلـةً صامتـةً، فجذبـتُ حقيبـة ملابسـها وفتحتهـا، صحـتُ بلهجـةٍ مقتضبـةٍ:

- لمِّـي هدومـك وحُطـي حجابـك في شـنطتك، أنـا هاتصـل بناجـي ييجـي يوصلـك لأمـك.. والصبـح هاخليـه يمـشي في ورق طلاقـك.

أردفتُ بصوتٍ عالٍ:

- كابوسـك خلـص يـا مـي.. أنـا مـا رضـاش ليـكي تعـاشري راجـل غريـب!

***

انتظـرتُ حتـى انتصـف الليـل، توجَّهـتُ إلى المطبـخ ورحـتُ أعـد طعامًـا كـما اعتـدتُ أن أفعـل منـذ يومـين دون أن أخـبر مـي؛ سـخَّنت رغيفـين مـن الخبـز واضعًـا بأولهـما قطعتـين مـن اللحـم المسـلوق.. وفـردتُ فـوق الثـاني بعضًـا مـن الجُـبن، وجدتُ في الثلاجـة طاجـن ″أم عـلي″ فأخرجتـه لأضعـه مـع الرغيفـين داخـل كيـسٍ شـفافٍ. ارتديـتُ جلبـاب أبي مُغلقًـا جميـع أزراره،

سرتُ أتنشـق هـواء طحـا الـذي اكتشـفت روعتـه مؤخـرًا، لم يطُـل بحثـي عـن رزق المعتـوه كعـادتي حـين أحتاجـه فأجـده سريعًـا.. جلـس هـذه المـرة مسـتندًا إلى عمـودٍ كهربـائي لا يُـضيء إلا نهـارًا لحكمـةٍ لا يعلمهـا أحـد.. لم نتبـادل الحديـث كعادتنـا، أعطيتـه الكيـس ففتحـه مُلتهـمًا محتوياتـه بنهـمٍ جـمٍّ، فـرغ مـن طعامـه نظـر لي وقـال بلهجتـه البسـيطة المُتقطعـة اللدغـاء في أكـثر مـن حـرفٍ:

- بس مش غريب اللي بتعمله معايا ده يا أستاذ يحيى؟

- إيه اللي غريب يا رزق؟

- طـول عمـرك مـش شـايفني؛ زيـك زي أهـل البلـد.. وحتـى لـو سـلمت عليـك كنـت تـدوَّر وشـك الناحيـة التانيـة.. دلوقتـي بقالـك كام يـوم بتنـزل تقعـد معايـا وعامـل لي أكل مخصـوص، وسـاعات بتـاكل معايـا كـمان!

- عشـان إنـت الوحيـد فيهـم الـلي متقبلنـي يـا رزق.. أنـت الوحيـد الـلي شـافني خـارج مـن تربتـي عريـان ومخافـش!

أشاح بنظره بعيدًا، وقال لي دون أن ينظر في عيني:

- أنـا عـارف أصلـك كويـس، وعـارف إن يحيـى الـلي طلـع مـن القـبر أحسـن بكتـير مـن الـلي دخلـه.

قلتُ في حيرةٍ:

ـ طـب أخـلّي النـاس تشـوفني زيـك كـده إزاي؟.. دول بقـوا بيخافـوا يعـدُّوا مـن جنـب البيـت، حتـى مـراتي وأهـلي خايفـين منـي.. وأخويـا بيتعامـل معايـا مـن بعيـد مـع إنـه أكـتر واحـد عـارف الـلي حصـل!

قال رزق بهدوءٍ:

ـ ربنـا إداني بصـيرة مـش عندهـم؛ صحيـح هـو خَـد منـي فلـوس وصحـة وهيبـة وحاجـات كتـير.. بـس إداني الـلي أهـم منهـم كلهـم.

أردف مؤكـدًا أننـي يجـب أن أقـوِّي بصيرتهـم كي أسـتطيع الحيـاة وسـطهم.. أخبرتـه أنهـم لـن يـروا إلا مـا يُريـدون رؤيتـه.. ردَّ بنفـس لهجتـه التائهـة أن الكـذب هـو الحـل؛ يجـب أن أسـتعمي بصرهـم. لم أصـدق أن رزق مـن يُحدثنـي بهـذه الطريقـة، فكَّـرت في كلامـه قليـلًا، لم أسـتوعب معظمـه ولكنني لم أعلـق.. سـمعت صـوت أذان الفجـر مـن المسـجد القريـب مـن المقابـر فقـرَّرت أن أذهـب لأصـلي مـع رفعـت.. طلـب منـي رزق حـين رآني أنهـض مـن مجلـسي أن أبلـغ سـلامه للشـيخ صالـح الكفيـف، وأبلغـه أن صوتـه مليـح في القـرآن عكـس الأذان؛ فليـترك أذان الراديـو.. قلـتُ مقترحًـا برفـقٍ:

- طب ما تيجي تصلِّي معايا وتقول له بنفسك!

أجـاب رزق بضحكـةٍ خفيفـةٍ دون أن ينظـر إلى عينـيَّ مبـاشرةً كعادتـه:

ـ أنا مسيحي يا أستاذ يحيى.

قلتُ مندهشًا:

ـ بس إنت عُمرك ما قولت لحدّ كده.

أجاب بتلقائيةٍ:

وإنت عُمرك ما سألتني، ولا عُمرك صليت الفجر حاضر..

تركنـي وسـار في الاتجـاه المعاكـس لاتجـاه المسـجد؛ ناظـرًا للسـماء يُحدثهـا، ضاحـكًا مـع نفسـه بصـوتٍ عـالٍ وبـكلامٍ كثـيرٍ غـير مفهـومٍ، هائمًـا في ملكوتـه الخـاص.

***

كعـادة المسـجد الصغـير كان الحضـورُ مقتـصرًا عـلى رفعـت والشـيخ صالـح وأحيانًـا مـا كان يـأتي طالـبٌ أو اثنـان في أوقـات الامتحانـات.. مـال عـليَّ رفعـت بعـد أن ختمنـا الصـلاة بالسـلام، قـال "تقبـل اللـه".. أجبتـه "منـا ومنـك بـإذن اللـه"، دعـوتُ بـأن نصـلي الفجـر جمعًـا في الحـرم.. ابتسـم هامسًـا بمـرارةٍ أن أوانهـا قـد فـات عليـه، تعجَّـب كيـف فاتتـه فريضـة الحَـج حـين كان بكامـل صحتـه.. قلـت لـه إن أوانهـا لم يفُـت بعـد.. ردَّ بهـدوءٍ:

ـ صدِّقني فات.. تيجي معايا التُّرَب ولا لسه بتخاف؟

- هانجرب.. بس إيه هايودينا هناك الساعة دي؟!

- فيه شاب مات إمبارح العصر، هانروح نغرس له صبَّار.

سرت بجوار رفعت الذي كان يعرجُ مُتكئًا على قدمه اليمنى، اقتربنا من المدافن؛ تعجبتُ من كوني لا أخشى منظر شواهد القبور كما كنتُ أشعر من قبل.. يبدو أن علاج أمجد قد نجح لدرجة شعوري بالتبلُّد التام تجاه كل ما يتعلق بالموت، أمرني رفعت وهو ينظر أمامه أن أخبر عطوة بوجوب إرسال المال للشيخ صالح بصورةٍ شهريةٍ؛ فالرجل يقتاتُ متعففًا على معونات الناس الأشبه بالصدقة.. والحكومة لا تصرفُ له راتبًا لأن المسجد غير مُقيد بوزارة الأوقاف.

سألته قائلًا:

- أمال هو كان عايش إزاي قبل كده؟

- فرحة كانت بتبعت له فلوس عشان تكمِّل جِميل أبوك عليه.. وعلى فكرة إنت كمان هاتفضل عايش في خير أبوك؛ يا تكمِّل خيره على الناس، يا تتمرمغ في تركة المحبة اللي سابها لك.

- أنا أعرف عن الشيخ صالح إنه كان أزهري لحدّ ما مراته ماتت؛ فاعتزل الحياة واشتغل فِقيه عشان يعرف

ياكل، لحدّ ما أبويا بنى الجامع وخلّاه إمام فيه.. بس معرفش اتعمى إزاي؟

ضحك رفعت وسألني إن كنتُ أعرف "وجيه الرشيدي".. هززتُ كتفيَّ كناية عن الجهل، فأردف قائلًا:

- ده كان وزير أيام عبد الناصر.. عيلة أمه كانت من طحا، ويوم ما خاله مات الشيخ صالح فِرِح، لبس الجلابية النضيفة وإستنى لمَّا الجنازة انفضِّت والوزير راح مع الحرس بتوعه يقرا الفاتحة على خاله..

عقَّبتُ قائلًا:

- كان حاطط عينه على وَهبة قراية محترمة؛ دي باضت له في القفص...

ردَّ رفعت ضاحكًا:

- هي باضت له، بس مش في القفص، الوزير جاله خبر إقالته في التعديل الوزاري وهو في الطريق للمدافن.. الشيخ شاف الموكب بتاعه والفخامة اتربك ونسي السورة اللي كان محضَّرها، ماجاش في باله ساعتها غير سورة آل عمران، اتنحنح وبدأ التلاوة من أول السورة.. وأول ما وصل للآية اللي بتقول: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء" واحد من الحرس خد باله ونبِّه الوزير إنه ممكن يكون

قاصد يلقّح عليه بالكلام.. عمك صالح يسكت؟ أبدًا راح مكمِّل الآية وقايل: "وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".. الوزير برَّق وافتكر الشيخ صالح من إخواتنا إياهم وشمتان فيه عشان كان مربِّي دقنه، وعينك ما تشوف إلا النور.. الراجل حِلِف له بكل أيمانات المسلمين إنه مالوش في السياسة وإن السورة دي هي اللي جت في باله، بس لا حياة لمن تنادي..

ثم أردف ضاحكًا:

- للأمانة الوزير صدّقه بعدها.. بس على ما صدّقه كان الحرس قاموا بالواجب.. كان فيهم واحد إيده قدّك كده، وتحسّه كان واخد أجازة مخصوص لقفا الشيخ صالح، فضل يضرب لحدّ الراجل ما أغمى عليه، صحي لقى نور عنيه اتقطع.

ضحك يحيى كثيرًا، وقال لرفعت:

- بس الناس بتموت كتير ليه اليومين دول، ده المغسل والتربي زمانهم بقوا أغنى من عطوة.

قال رفعت بجديةٍ:

- ما سألتش يعني مين اللي مات!

أجبتُ بصدقٍ:

- يعنـي أبويـا وأمـي ماتـوا، وفرحـة راحـت لربهـا، وأنـا نفسي اتدفنـت وطلعـت.. فكـرك هايفـرق معايـا حدّ؟!

هـزَّ رفعـت رأسـه نافيًـا بحـسرةٍ، قـال إننـي أبـدو كالأحيـاء؛ ولكـن الحقيقـة أننـي مـا زلـت مـوءودًا داخـل قـبرٍ بداخـلي.. قـبرٍ صنعتـه بنفـسي.. ولـن يخرجنـي منـه أحـدٌ سـواي. وصلنـا إلى القـبر المنشـود، ثبتنـا الصبَّـار الـذي أحضرنـاه معنـا في علبـة سـمن مـن الصفيـح الصـدئ، روينـا الصبـار بقـدرٍ مناسـبٍ مـن الميـاه.. سـألت رفعـت بفضـولٍ عـن هويـة المتـوفي.. ردَّ وهـو يتأكـد مـن تثبيـت الصبـار بحـرصٍ:

- عارف أيمن القهوجي؟

هززتُ رأسي قائلًا بزفرةٍ صغيرةٍ:

- أيـوه الـلي كان واخـد صنـدوق نـذور الجامـع دايمًـا لحسـابه؛ مـرة يقـول بنجهِّـز بنـت مـن بنـات البلـد، ومـرة يقـول هانبنـي جامـع جديـد.. وفي الآخـر طلـع بيصرفـه عـلى نفسـه.. يـلا اللـه يرحمـه.

قال رفعت موضحًا:

- مـش هـو الـلي مـات.. أيمـن خلّـِف عيّـل لمـا كنـت إنـت لسّـه داخـل جامعـة.. فاكـره؟

قلت مُسرعًا:

- آه يحيى.. ما له؟

ذكَّـرني رفعـت بهـدوء أنـه أسـماه عـلى اسـمي.. أومـأتُ بـرأسي مُتذكـرًا حـين وُلِـد الصبـي ابـن السـبعة أشـهر وسـعى أبـوه لوضعـهِ في حضَّانــة أطفــال بــأي مستشــفى حكومــي، جئتـه مـن القاهـرة حـين عرفـتُ وذهبـتُ معـه إلى أكـثر مـن مستشـفى قريبـة، وحـين لم يـؤتِ سـعينا ثمـاره المرجـوة طلبـتُ مـن فرحـة أن تسـمح لي ببيـع قطعـةٍ صغـيرةٍ مـن الأرض التـي ورثتهـا كي يدخـلَ حضَّانـة في مستشـفى اسـتثماري.. لم أعـرف حتـى اليـوم الدافـع الـذي جعلنـي أقـوم بـكل هـذه التصرفـات. قـال رفعـت بحـزنٍ:

- فاكـر إنـك جيـت لي يومهـا وأنـت فرحـان، وقلـت لي إن فرحـة إديتـك الفلـوس وهاتخصمهـم مـن مصروفـك عـلى كـذا شـهر؛ عشـان الثـواب يبقـى بتاعـك.. والراجـل سـمّى ابنــه عــلى اســمك. الــلي مــا تعرفــوش بعدهــا إن فرحــة قالــت لعطــوة يتوســط ليحيــى الصغــير عشــان يدخــل الكليــة الحربيــة..

توجَّهنا إلى المسجد عائديْن، أردف جدي قائلًا بحزنٍ:

- زمايلـه الـلي جـم بجثتـه إنهـاردة قالـوا لأبـوه إنـه كان بيتـدرب عـلى القفـز بالمظـلات، فتـح بـاب الطيـارة ونـط، جـه يفتـح البراشـوت...

- ما فتحش.

- شوفت بسيطة إزاي يا يحيى؟.. غلطة بتحصل مرة كل كام سنة ومعمول لها احتياطات كتير.. بس قدر ربنا.

شعرتُ أن رفعت قصد اصطحابي خصيصًا ليوقظ ذلك الجزء الآدمي بداخلي، وليذكرني بما كنتُ عليه قديمًا برغم معاناتي.. سألني بجديةٍ عمَّا أنتوي فعله في المستقبل.. سألته باستنكارٍ عن أي مستقبلٍ يتحدث؛ الناس تخاف الاقتراب مني كأنني الموت، لا أستطيع التعامل مع أحد سوى رزق المعتوه، حتى الشيخ صالح شعرتُ بارتعاش يده اليوم حين صافحته بعد الصلاة. قال رفعت بهدوءٍ:

- يا تنوَّر عقولهم بالحقيقة يا تكدب عليهم.. الحل التاني غلط بس سهل ومضمون.. شوف هُما عايزين يشوفوك إزاي واعمله.

علَّقت قائلًا بحزنٍ:

- أنا خرجت لاقيت نفسي في تربة أكبر من اللي كنت فيها، ربنا إداني فرصة أعيش من جديد.. بس الناس رافضة تديهالي!

سألته متوسلًا أن يعودَ ليعيشَ برفقتي في البيت؛ بدلًا من حياة كل منا وحيدًا.. أجاب بهدوءٍ أن هذا القرار أيضًا أوانه فات. لم أتمالك نفسي، صحت فيه ثائرًا أنه من اختار

هـذه الحيـاة بـلا سـببٍ واضـحٍ؛ فشـخص مثلـه لا يـزال يفقتـد لصحبـة النـاس ويتـألم لموتهـم.. يشـتهي الطعـام ويتفقـد أفـراد عائلتـه مـن بعيـد، سـألته عـمَّا أوصلـه لهـذه المرحلـة.. كـرر قائـلًا بنفـس هدوئـه إن أوان العـودة قـد فـات.. أمسـكته مـن ياقـة جلبابـه لأول مـرة في حيـاتي، صحـتُ فيـه بصـوتٍ تـردد صـداه في الفـراغ حولنـا قائـلًا:

- يـا جـدع حـرام عليـك بقـى أنـا محتاجلـك جنبـي.. أنـا سـاعات باحـس إنـك ميـت زي الجثـث الـلي إنـت دافـن نفسـك بالحيـا في وسـطيهم!

أمسـك يـدي بشـدةٍ وأنزلهـا؛ لم أعتقـد أنـه لا يـزال محتفظًـا بهـذه القـوة حتـى هـذه السـن، قـال مُبتسـمًا:

- أنـا عمـري مـا هاسـيبك.. ولـو فيـه سـبب مخلينـي لسّـه عايـش فهـو أنـت!

قبَّلـت رأسـه مُعتـذرًا، عدَّلـت مـن وضـع جلبابـه وقبـل أن أطلـب السـماح منـه رنَّ هاتفـي؛ كان الرقـم غـير مُسـجل لـديَّ اندهشـت مـن اتصالـه في هـذا الموعـد المتأخـر، أجبـتُ مسـتفهمًا ليأتينـي الـرد مـن الجهـة الأخـرى صـادرًا مـن صـوتٍ أنثـوي وبلهجـةٍ شِـبه عربيـة قائـلًا:

- أستاذ يحيى، أنا دكتور إيفلين مرات أمجد..

أجبتهـا بهـدوءٍ معتـذرًا عـن عـدم حضـوري العـزاء.. أبـدَت تفهـمًا لموقفـي ولوضعـي الحـالي، أخبرتنـي أنهـا أتـت برقمـي مـن جـبران، أبلغتنـي بخـوفٍ شـديدٍ أنهـا آسـفةٌ عـلى مـا حدث.. سـألتها بقلـقٍ عـمَّا تعتـذرُ.. أجابـت بلهجـةٍ مُقتضبـةٍ:

- النسناس مات.

١٢

إيَاب

الإثنين 27 فبراير 2006

على غير المألوف؛ اجتمع خفر عطوة جالسين حول رزق الذي ارتشف رشفةً كبيرةً من كوب الشاي "الخمسينة"، تمهَّل في الشرب منتشيًا بنكهة الشاي الثقيل المُمتزجة برائحة الفحم الذي سُخِّن فوقه البرَّاد، مُستمتعًا بهالةٍ من الأهمية التي اكتسبها مؤخرًا بعد أن أصبح الشاهد الوحيد على عودة يحيى.. تلك الهالة التي ترجمتها نظرات الشغف والفضول في أعين الجالسين حوله، على الرغم من كونِه يحكي نفس الكلام بنفس الأسلوب ولنفس الأشخاص للمرة العاشرة تقريبًا.. اعتدل في جلسته على "الدكة" الخاصة بالخفر التي طالما جلس أسفلها كي يرص فحم النرجيلة التي يشربها الخفر،أكمل حديثه بلهجته الغريبة:

- أنا لمحت أستاذ يحيى خارج من التُربة زحف، خُفت أقرَّب منه في الأول، بس حسيته تايه، كان شكله أطول من الحقيقة، وعنيه كان فيها لمعان غريب، وأنا بلّبسه الجلابية اللي كانت معايا حسِّيت جسمه سُخن مع إن الجو كان تلج.

سأله أحد الخفر بلهفةٍ هل تبادل يحيى الحديث معه.. نظر له رزق بهدوءٍ وسحب رشفةً طويلةً حتى مسَّ التفل شفتيه وقال:

- سألته لو محتاج حاجة.. بص لي باستغراب زي ما يكون مش عارفني، ناديته باسمه عينيه اضيقّت وحسّيته ابتدا يفتكرني، وفجأة مسك دماغه جامد وكان هايقع من طوله فسندته، اتعكز عليّا ومشينا، كنت مرعوب وبترعش بس حسّيت إنه مش هيقدر يئذيني ولا حتى يئذي نفسه.. وفجأة مسك رقبتي وكان هايخنقني وقال كلام غريب مافهمتوش!

شهق الجميعُ في خوفٍ، على الرغم من أنهم سمعوا نفس القصة، وعلى الرغم من أن رزق يغيِّر في تفاصيلها كل مرةٍ عن غير قصدٍ منه؛ فيضيف حدثًا ويقتطع آخر، أردف قائلًا:

- أول ما بدأ يتكلم سألني عن الست فرحة الله يرحمها، ما رديتش عليه، بعد كده سألني عن أموات الطحاوية

واحـد واحـد، قولـت لـه إن الحـاج عطـوة وأسـتاذ ناجـي مسـتنيينه في الـدوَّار القديـم، وصَّلتـه لحـد هنـاك وسـيبته يدخـل لهـم، بعـد كـده كل الـلي في البيـت طلعـوا يجـروا ويصرخـوا!

قـال أحدهـم، والـذي كان موجـودًا مـع عطـوة يـوم إعـلان الوفـاة، طارحًـا سـؤاله عـلى الجميـع:

- بـس إزاي طلـع عايـش ويـوم الغسـل كان قاطـع النَّفـس! والدكتـور صاحبـه ده كشـف عليـه وأكِّـد لنـا إنـه ميـت؟

أضاف زميله الذي كان يتوق لمشاهدة المباراة معلقًا:

- والحانـوتي مـا لاحظـش إنـه فيـه الـروح لسّـه، ولا حتـى عـم سـلامة التربي!

بـدأ وعيهـم كلهـم يتفـق بطريقـةٍ غـير مبـاشرةٍ.. حتـى خـرج شـيخُ الخفـر الـذي كان جالسًـا وسـطهم بالاسـتنتاج الـذي كان دفعهـم إليـه كلام رزق دفعًـا:

- أسـتاذ يحيـى يـا إمـا ملبـوس يـا إمـا وَلي مـن أوليـاء اللـه الصالحـين!

قال أحدهم مصححًا:

- اسمه الشيخ يحيى..

ثم أردف مُفسرًا:

- أنـا شـوفته إمبـارح في زاويـة الشـيخ صالـح، هـو فيـه ملبـوس بيصـلِّي الفجـر؟!

***

خرجـت إيفلـين مـن بوابـة العقـار مُسرعـة، تلفتـت حولهـا حتـى لَمَحَتنـي ألـوِّح لهـا مـن نافـذة سـيارتي المتهالكـة، فتحـت البـاب وجلسـت دون تحيـة، كـررت اعتذارهـا حتـى مللتـه، شرحـتْ لي تفاصيـل التجربـة باسـتفاضةٍ، والنجـاح المؤقـت للتركيبتـين الـذي ظهـر عـلى النسـناس حـين تـم إنعاشُـه بنجـاحٍ صبـاح يـوم تنفيـذ التجربـة؛ الأمـر الـذي شـجَّع أمجـد لتطبيـق التجربـة عـليَّ.. عـلى الرغـم مـن عـدم موافقتهـا وتخوُّفهـا مـن حـدوث أعـراضٍ جانبيـةٍ فيـما بعـد. وقـد حـدث مـا كانـت تخشـاه؛ فبعـد فـترةٍ بـدأت وظائـفُ النسـناس الجسـدية في الاختـلال، وتدهـورت صحتـه سريعًـا، تراجعـت كفاءتـه الحركيـةُ وزاد معـدل النبـض لديـه وفقـد الكثـير من وزنـه في مـدةٍ قصيرةٍ، حتـى انهـار نظامـه كليًّـا مُعلنًـا انسـحابه مـن عـالم الأحيـاء.

حاولـتُ أن أخفـي الفـزع الـذي اخترقنـي كجيـشٍ قـوي يُهاجـم قلعـةً غـير حصينـة.. لم يكـن شـعوري بالهلـع مـن المـوت كالـذي كان يُـراودني قبـل التجربـة؛ ولكنـه كان خوفًـا مـن انتهـاء الأجـل وأنـا عـلى غـير اسـتعدادٍ دون أن أنجـز شـيئًا في حيـاتي، خاصـة حـين أعـادت لي التجربـة الأمـل.. حاولـتُ تغيـير الموضـوع فعزَّيتهـا في أمجـد مُعتـذرًا عـن التأخـير فتقبّلـت

عـذري لعلمهـا بظـروف حادثتـي، سـألتني عـن نتائـج التجربـة فأخبرتهـا باقتضـابٍ أنهـا كانـت جيـدة دون أن أخـوض في أي تفاصيـل مؤلمـة.. تفهَّمـت الأمـر ولم تلـح في الاستفسـار، قـدتُ هائمًـا في الشـوارع التـي نـام معظـم أهلهـا، أخبرتهـا بضحكـةٍ مفتعلـةٍ عـن رغبتـي في دعوتهـا لتنـاول أي مـشروب يُهـدئ مـن توتـر الموقـف.. وافقـت بعـد تفكـيرٍ. تعجَّبَـت مـن النشـاط والحركـة في حـي الحسـين حتـى هـذه السـاعة المتأخـرة؛ كانـت تعلـمُ أن القاهـرة لا تنـام، ولكنهـا لم تتصـور أن الوضـع في الحُسـين بهـذه الحيويـة.. أزحـتُ كـرسي مـن كـراسي مقهـى "الفيشاوي"لأُجلِسـها فوقـه بحركـةٍ لبقـةٍ.. اسـتنكرتها عكـس مـا توقعـت.. طلبـتُ بـرَّاد شـاي خَـرَز بالنعنـاع وطلبـت هـي عصـير ليمـون مثلـج. اقـترب أحـدُ الشـباب الذيـن يتاجـرون في التحـف "الخرتيـة" فألقـى عـليَّ تحيتـه بالعربيـة وقـال لإيفلـين بلباقـةٍ مصطنعـةٍ وبابتسـامةٍ جملتـه الافتتاحيـة الشـهيرة بلهجـةٍ رديئـةٍ:

- Egyptian handmade souvenir?.. It’s the best!

ردَّت عليه إيفلين بعامية جيدةٍ:

- لو عارف أسامي التماثيل اللي بتبيعها هانفَّعك!

تجـاوز الشـاب دهشـته، وراح يـشرحُ لهـا اسـم وقصـة كل تمثـال؛ انتقـل مـن زوسر إلى خوفـو ومـن خوفـو إلى أحمُـس ومـن أحمُـس إلى حـورَس وأمـه إيزيـس.. بـدا عـلى إيفلـين معرفتهـا بـكل مـا قـال وثقافتهـا التاريخيـة التـي أعتقـد أنهـا تتجـاوز

ثقافتي، ابتاعت منه تمثالين بعد فِصالٍ طويلٍ في السعر، رحل وهو يلعن تلك "الخواجاية الأدارجية" وتركني وسط فاصلٍ من الضحك جعلني أتناسى ما مررتُ به.. سألتها وأنا أدفئ يديَّ بكوب الشاي متى تعلَّمَت كل هذا.. ردَّت مُبتسمة وهي تناولني إناء السُّكر أن أمجد لم يصطحبها لمثل هذه الأماكن من قبل؛ فجميع جولاتهما كانت مقتصرةً على الأماكن الباهظة والمراكز التجارية، ولكنها كانت تقرأ وتُشاهد الكثير عن مصر، وموقف "الخرتي" هذا رأته مُمَثلًا في مشهدٍ تلفزيوني من قبل.. أخذت منها السُّكر دون أن أستعمله، أخبرتها أنني لا أضع سُكر على المشروبات الساخنة؛ فقد ورثت هذه العادة من جدي رفعت.

تحدثنا كثيرًا، كنتُ متلهفًا لصحبة آدميةٍ لا تخشاني ولا تُحدثني عن تجربتي الأليمة، اشتقت لعقل يُخاطب عقلي فلا يتوجس مني كالأقربين ولا يُعاملني بعقليات القرويين التي تهابني.. كانت آية في الجمال الشكلي والعقلي، لم أشعر بدفءٍ كهذا منذ أيام الجامعة؛ حين كنتُ أهيم بمريم كالمغفل.

سألتني عن معنى كلمة "الصهبجية" التي كان يُدندنها عازف العود الجالس في بقعةٍ بارزةٍ من المقهى، فأخبرتها أنني أحب هذه الأغنية واهتممت في شبابي بمعرفة تاريخها؛ شرحتُ لها مُستفيضًا معاني كلماتها التي أبدعها صلاح جاهين

ولحَّنها سيد مكاوي، وطلبت من العازف أن يغني "الليلة الكبيرة" لأبرهنَ لها على عبقرية الثنائي جاهين ومكاوي، لم أشعر بنفسي وأنا أدندن معه بصوتٍ مزعجٍ لتضحك إيفلين ساخرةً مني.

مرَّ الوقتُ سريعًا؛ تحدَّثتْ معي عن طفولتها وعن قصتيْ الحب اللتين مرَّت بهما.. حكيتُ لها عن مريم التي تزوجَت ابن خالتها فور التخرج وتعمل الآن موظفةً بإحدى المصالح الحكومية؛ رأيتها مصادفةً بعد أن تغيرت كثيرًا عن صورتها الملائكية لتتحولَ إلى أم كأي أم مصرية لا هم لها إلا بيتها. بدأت الشمسُ في البزوغ فطلبتُ الحساب، اندهشتُ حين أخرَجَت ورقة مالية من حقيبة يدها، رفضتُ مقاسمة الحساب في حزمٍ. لم نتبادل الحديثَ طوال طريق العودة؛ كأننا اكتفينا من حاجتنا إلى الصحبة الآدمية، كانت ظروفنا الحالية متشابهة: فهي غريبة في بلدٍ غريبٍ عنها وأنا غريبٌ في موطني، وفي ذاتي أيضًا!

حَاوَلَت بث الطمأنينة في قلبي؛ فأخبرتني أنها ستقومُ بتشريح النسناس وتُحاول الوقوف على سبب فشل التجربة معه حتى نحاول تفاديها.. لم أرغب في تصديق الأمل الذي زرعته بداخلي، شكرتُها وطلبتُ منها الإسراع في ذلك.. سألتني إن كنت سأعودُ إلى طحا فأخبرتها أنني سأزور شكري ابن عمي أولًا.

***

ابتعتُ لشكري أصنافًا من الفاكهة، وتوجَّهت إلى غرفته في المصحة التي ما زلت أتذكر رقمها.. لم أجده على فراشه فسألتُ عنه إحدى الممرضات التي ميَّزت ملامحها من الزيارة الأولى.. قالت بقلقٍ إن الدكتور نجيب كان يُحاول الاتصال بي منذ أول أمس، ولكن يبدو أن موظف المستشفى الذي أخذ بياناتي قد دوَّن رقمي بالخطأ.. سألتها عن السبب الذي جعلهم يُحاولون الوصول إليَّ.. ردَّت بنبرةٍ خائفةٍ:

- إحنا عارفين إنك مش قايل لحدّ من أهله على موضوع الإدمان ده؛ فحفاظًا على سرية الحالة استنينا إنك تيجي تزوره بنفسك...

قاطعتها قائلًا بصوتٍ عالٍ ذبح الهدوء المسيطر على المستشفى:

- شكري ماله؟!

قالت بصوتٍ خفيضٍ:

- قطَّع شرايينه بالموس أول إمبارح.

***

نظر فرحات إلى الأرض دون أن تكفَّ قدماه عن الاهتزاز، في حين ظلت نرجس صامتةً لا تُبدي أي ردة فعلٍ مُكتفيةً بوقفةٍ غير مستقيمةٍ ونظرةٍ خاويةٍ، كان تأثير الحبس باديًا

عليهـا؛ بدايـةً مـن شَـعرها المنكـوش ووجههـا المنطفـئ وعينيْهـا الذابلتـيْن، مـرورًا برائحتهـا المزريـة وحالـة ملابسـها الرثـة التـي تمـزَّق منهـا مـا تمـزَّق واتسـخ منهـا مـا اتسـخ، وانتهـاءً بصـوتٍ خفيـضٍ ردَّت بـه عـلى دعـوة عطـوة لهـا بالجلـوس مقابلـةً لفرحـات في صالـون بيتـه بعـد أن اتصـل بناجـي ليُخـبره باكتـمال الحضـور.

أتى ناجـي مُتعجـلًا، أخـرج مجموعـةً مـن الأوراق ومررهـا عـلى ثلاثتهـم، وقـال بلهجـةٍ هادئـةٍ وبألفـاظٍ منتقـاةٍ كأنـه كان يتـدربُ عـلى هـذا الخطـاب لفـترةٍ طويلـةٍ:

- طبعًـا مـا حـدّش فينـا فاهـم الـلي حصـل ليحيـى، وكلنـا ملاحظـين تصرفاتـه الغريبـة وكلام أهـل البلـد عنـه؛ الـلي يقـول عليـه وَلِي، والـلي يقـول بيقعـد بالليـل مـع رزق المجـذوب يتكلمـوا للصبـح، والـلي يقـول إنـه بينـزل الـتُّرَب في عـزِّ الليـل، ده غـير طبعًـا مراتـه الـلي طلبـت منـه الطـلاق وقالـت إنـه معـادش جوزهـا.. وواضـح إن كلامهـا صـح، يحيـى مـات واتدفـن خـلاص..

سـأله فرحـات بنـبرةٍ مـترددةٍ كيـف يقـول هـذا عـلى أخيـه، وقـد شـهد بنفسـه عودتـه.. رد عطـوة بهـدوءٍ:

- الـلي عايـش معانـا ده شـبه يحيـى، بـس مـش تصرفـات يحيـى، يعنـي مثـلًا مـن إمتـى وهـو بيحـب يقعـد في طحـا؟.. ومـن إمتـى وهـو بيحـب الـواد رزق؟.. ومـن إمتـى

وهـو بيحـب قعـدة الـتُّرَب وبيصـلي هنـاك؟.. أسـئلة كتـير مالهـاش غـير التفسـير الـلي كلنـا خايفـين نقولـه بصـوت عـالي.

قال فرحات بنفس التردد:

- طب والحل؟

وكأن ناجـي كان ينتظـر هـذا السـؤال فـردَّ بسرعـة كتلميـذٍ نجيـبٍ:

- مـا إحنـا متجمعـين إنهـاردة عشـان الحـل ده؛ دلوقتـي إحنـا أقـرب أربعـة ليحيـى سـواء مـن حيـث صلـة الـدم أو مـن حيـث المعيشـة بحكـم وجـوده دلوقتـي في طحـا، أنـا كان ممكـن أعمـل كل حاجـة لوحـدي بـس عايزكـوا كلكـوا تسـتفيدوا..

بـدا الاهتـمام لأول مـرةٍ عـلى وجـه نرجـس واسـتفسرت عـن نـوع الفائـدة التـي قـد تنالهـا داخـل حبسـها الإجبـاري.. ردَّ عليهـا عطـوة مطمئنًـا أنـه سـيُنهي حبسَـها، وسـتحصل أيضًـا عـلى مبلـغٍ كبـيرٍ تبـدأ بـه حيـاةً جديـدةً، ولهـا مُطلـق الحريـة في مغـادرة طحـا، وإن أرادت الحيـاة في شَـقة الحسـين فـلا بـأس.. قالـت معترضـةً:

- هاقعد مع أستاذ ناجي إزاي في بيت لوحدنا؟

ردَّ عطوة ضاحكًا:

- بسيطة؛ نشيل لقب أستاذ من قبل اسمه.. ونخليهولك "سي ناجي".

أومأ ناجي موافقًا وقال لنرجس بحنانٍ:

- العُمر بيجري يا نرجس، وقطر الجواز قرَّب يفوتنا.. وإحنا أولى ببعض من الأغراب.

لم تبدِ نرجس موافقةً كما لم تُبدِ اعتراضًا واضحًا فعقَّب عطوة قائلًا إن السكوت علامة الرضا.. ثم نظر إلى فرحات مُردفًا:

- وإنت مش عايز تعالج حمزة برَّه مصر؟

ردَّ فرحات لا مُباليًا:

- نفس الكلام قولته ليا بعد البشمهندس أحمد ما مات، وحبيت تاخد أرض زيادة عن نصيبك.. ووعدك كان أمريكاني مالوش قيمة، دلوقتي حمزة كبر ومشكلته كبرت معاه، وعلاجه بقى أصعب.

تجاوز ناجي ذكرى أبيه، وأكَّد لفرحات أن علاج ابنه حمزة سيكون على ضمانته هذه المرة.. طلب منه عطوة أن يسأل عن مستشفيات خارج مصر لكي يذهب معه إلى البنك ويدفع له مقدم العلاج فيها. قال فرحات مُستفهمًا:

- وإيه بقى الحل السحري اللي ظهر فجأة لكل مشاكل الطحاوية؟!

رد عطوة بخبثٍ: ″يحيى″.. شرح ناجي مُفسرًا:

- حادثة يحيى اتوثقت عند الحكومة لمَّا رُحت أبطل شهادة وفاته وأروح السجل المدني أثبت إنه لسّه عايش، ممكن نعمل تقرير طبي نكتب فيه كل الإصابات اللي يحيى سبِّبها لنرجس بتاريخ يكون بعد حادثة الدفن، ده غير طلب مراته للطلاق..

أكمل عطوة وهو يشير بيده نحو الحاضرين:

- ومع شهادة أقرب الناس ليحيى تبقى كملت.

سألت نرجس:

- هي إيه دي اللي كملت؟

ردَّ ناجي بحسمٍ:

- قضية الحَجْر.

***

ساعِدٌ تم تكبيله داخل أصفادٍ لامعةٍ مُحكمةِ الغلق عند رأس فراشٍ ضيقٍ.. جسد أصبح نحيلًا كورقةٍ ذابلةٍ.. وظلي المنعكس على حائط الغرفة خافتة الإضاءة يراقب خطوط رسم القلب الخاصة بشكري؛ كانت تتحرك بإيقاعٍ منخفضٍ مستفزٍّ ولكنه منتظم.. جهاز تنفس صناعي يضخ الأكسجين لشكري، وقد تكاثفت الأبخرةُ على سطح القناع

الشـفاف المتصـل بوجـه ابـن عمـي.. الكثـير مـن الضـمادات المُحيطـة بسـاعده الأيسر غيرالمُصفـد.. كيـس دم كبـير الحجـم يتصـل خرطومـه الرفيـع بذراعـه.

جـاءني الدكتـور نجيـب السـعدني ليُطمئنني عـلى اسـتقرار حالـة شـكري واقـتراب نهايـة غيبوبتـه بفضـل رحمـة اللـه ثـم اسـتعدادهم الطبـي لأي حالـةٍ مماثلـةٍ قـد تحـدث داخـل أروقـة المصحـة، توسَّـل إليَّ ألا أخـبر أحـدًا بمحاولـة شـكري المتهـورة حفاظًـا عـلى سـمعة المـكان، كـما طلـب منـي ألا أتـردد في طلـب أي شيء قـد أحتاجـه أثنـاء بيـاتي معـه.. صافحتـه وعـاودت الجلـوس بجـوار الفـراشِ خائضًـا في شـطرٍ مـن ذكريـاتي مـع شـكري الطحـاوي قبـل أن يتحـول إلى هـذا المسـخ المسـتكين أمامـي..

سرحــتُ في أول مــرةٍ يــرى فيهــا القاهــرة بعــين المقيــم لا الزائـر؛ تلفـت حولـه مراقبًـا جميـع الأماكـن والوجـوه بانبهـارٍ واضـحٍ، حـاول حفـظ الطـرق والحـارات والأزقـة والاختصـارات المختلفـة، أبـدى امتنانـه لموافقتـي عـلى إقامتـه معـي أنـا وناجـي في شـقة الحسـين، انبهـر مـن منظـر الدراويـش الهائمـين يحملـون البخـور ويطلبـون المـدد مـن ابـن بنـت النبـي، أخـبرني بحـماسٍ أنـه سيُصلي كل فروضـه في مسـجد سـيدنا الحسـين لتحـل عليـه البركـة فضحكـت في سري قائـلًا: "كان غـيرك أشـطر". كان يحمـل حقيبـة ملابـس ثقيلـة مكتظـة بملابسـه وجـواب تعيـين في إحـدى

المدارس الحكومية بشهادته الأزهرية من معهدٍ قريبٍ من طحا، استقرتْ فوق ذراعيه "مشنة" فلاحي لم أعرض عليه حملها؛ كانت مكتظةً بطعامٍ أشرفت فرحة بنفسها على إعداده؛ كانت فترة امتحانات ناجي في الثانوية العامة ولم نكن قد زرنا طحا مُنذ زمنٍ. بدأت أتلو عليه القواعد التي تعلَّمتها في وقتٍ طويلٍ؛ لتكون دستورًا له يُساعده على التأقلم سريعًا مع الحياة في العاصمة:

١. حاول التخلي عن لهجتك القروية، وملابسك كذلك، في أسرع وقتٍ ممكنٍ.. ولا تتلفت حولك كثيرًا.

٢. تجنَّب الذهاب إلى بعض الأماكن؛ كمحطات القطار يوم الخميس، ومجمع التحرير يوم الأحد، ومباريات الأهلي والزمالك، وأماكن تحرُّك المواكب الرئاسية.

٣. لا تركب سيارات الأجرة؛ فالحافلة ستنقلك إلى أي مكان دون التهام نصف راتبك في المشوار الواحد.

٤. إذا سألت عن عنوان مكانٍ معينٍ ثلاث مرات وتلقيت ثلاث إجابات مختلفة.. فجميعهم على خطأ.

٥. يجب أن تعتاد الزحام، وأن تذوب فيه تمامًا.

٦. لا تتعجب من سرعة خطوات "المصراوية" في السير؛ فهذه طبيعتهم التي ستشعرك كأنهم يهربون من شيء ما لا يعرفه أحد.

٧. لا تقـع في حـب أول فتـاة تقابلـك؛ فمعظمهـن يتلهفـن للـزواج مـن المغفلـين أمثالـك.

كان شـكري ذكيًّـا بمـا يكفـي لينفـذ كل التعليـمات المذكـورة، وكان قرويًّـا بمـا يكفـي ليغفـل القاعـدة الأخـيرة؛ جـاءني بعـد أسـبوعين مـن امتهانـه لتدريـس اللغـة العربيـة مصارحًـا بمشـاعره تجـاه إحـدى طالباتـه مـن ذوات العـودِ النحيـل "الفرنسـاوي" الـذي لم يجـد لـه مثيـلًا في طحـا، كان أكـبر منـي في السـن ولكنـه كان يُعاملنـي كمرشـده في "البَنْـدَر" بحكـم خـبرتي ودخـولي الجامعـة..

أدهشـني إصراره عـلى الـزواج مـن هـذه الطالبـة دون غيرها، اقترحـت عليـه الانتظـار والتكتـم عـلى رغبتـه إلى أن تنتهـي محبوبتـه مـن الدراسـة الثانويـة؛ حتـى لا يؤثـر عـلى تقدُّمهـا في التعليـم، وحتـى لا تسـوء سـمعته داخـل المدرسـة. سـاعده حـماس أهـل العـروس طمعًـا في ثروتـه ورغبتـه المسـتعرة في الـزواج عـلى إنهـاء شـقته الجديـدة بسرعـة.. سَـانَدتَه أمـام العائلـة في طحـا؛ لم يكـن وقـوفي مـع شـكري حبًّـا لـه قـدر مـا كان رغبـةً في رحيلـه مـن شـقة الحسـين، ونكايـةً في عطـوة الـذي خـاب ظنـه في خلفتـه باسـتثناء حسـن الـذي بـدأ يديـر تجارتـه آنـذاك.. وقـد كان.

تذكـرتُ بدايـة معرفتـه بصاحـب عمارتـه الجديـدة واعتيـاده عـلى جلسـات "الحـظ" التـي كانـت تُقـام كل أسـبوع فـوق

سـطح العقـار، بـدأ يفقـد بريـق عينيْـه وإحمـرار وجنتيْـه، كـما فقـد بعضًـا مـن وزنـه وظهـر عليـه الإرهـاقُ الدائـم، لم أره كثـيرًا بعدهـا كـما انقطـع عـن أهلـه في طحـا، لم أعـرف متـى بـدأ تحديـدًا إدمانـه لذلـك المسـحوق الأبيـض اللعـين الـذي دمَّـر حياتـه كليًّـا...

استفاق شـكري مـن غيبوبتـه وبـدأ يغمغـمُ بكلـماتٍ غـير مفهومـةٍ، حاولـتُ تهدئتـه وضغطـتُ عـلى جـرس الاسـتدعاء المثبـت أعـلى الفـراش لتـأتي إحـدى الممرضـات ناظـرةً نحـو الأرقـام الموجـودة الجهـاز وطمأنتنـي عـلى سـلامة شـكري. قرابـة الفجـر كان قـد اسـترد وعيـه تمامًـا وبـدأ ينـوح بصـوتٍ متهـدجٍ قائـلًا:

- محمـد مـات بسـببي يـا يحيـى.. ده أنـا كنـت بعتـبره عيـل مـن عيـالي!

واسـيته بهـدوءٍ محـاولًا ألا أشـعره بفاجعـة مـا اقترفـه، قلـت لـه إن تلـك الحادثـة كان مقـدرًا وقوعهـا قبـل أن يُولـد الولـد مـن الأسـاس، وأن عمـره قـد انتهـى.. ثـم اسـتدركتُ متسـائلًا:

- إنت عرفت إزاي إنه مات؟!

ردَّ ببصرٍ زائغٍ:

- أمـه جـت قالـت لي الـلي حصـل، وجابـت لي المـوس معاهـا عشـان أخلَّـص نفـسي وأخلَّصهـا.

أومـأتُ بـرأسي متأسـفًا؛ اسـتنتجت أنهـا أضمـرت كرههـا لـه أمـام العاملـين في المصحـة حـين أتتـه، ولم يفتشـها أحدهـم ظنًّـا منهـم أنهـا زارتـه لتطمـئن عليـه وتقـف بجـواره في محنتـه. أطلقـتُ لسـاني عليهـا بالسـباب.. قاطعنـي شـكري قائـلًا:

- حقهـا.. السـت ممكـن تسـتحمل أي خسـارة إلا الضنـا، ولـو جـت تـاني هاخـد منهـا المـوس وهاكـرر الـلي عملتـه برضـه!

حاولـتُ تهدئتـه دون أن أخـبره بوفـاة أخيـه حسـن وجدّتـه وبحادثتـي، ودَّعتـه دون أن أتمنـى لـه الشـفاء؛ فلـم أعلـم إن كان يتـألم بسـبب تعافيـه مـن الإدمـان أم بسـبب عقـدة الذنـب، أم بسـبب جـراح يـده!

قُـدت سـيارتي هائمًـا أقـاوم رغبـةً شـديدةً في النـوم، النـاس يسـعون عـلى رزقهـم وأنـا أسـعى نحـو سريـري الـذي اشـتقتُ إليـه، نجـوتُ بأعجوبـةٍ مـن الاصطـدام بسـيارة نقـل كبـيرة.. لا أعـرف كيـف يسـمحون لهـم بالسـير وسـط المدينـة دون الالتـزام بالطـرق الخارجيـة المرسـومة لهـم، سـمعت مؤخـرًا أن إحـدى هـذه السـيارات قامـت بدعـس النصـف السـفلي لطفـلٍ صغـيرٍ مـما اضطـر أهلـه لإجـراء عمليـة بـتر لقدميْـه...

لا أعلـم مـن أيـن ظهـر هـذا الكلـب الأسـود الـذي تفاديتـه بصعوبـة وسـط سـباب السـائقين مـن حـولي!

نظـرتُ إلى هاتفـي لأجـد مكالمتـيْن فائتتـيْن مـن لطفـي أبـو الخـير؛ صاحـب دار النـشر الـذي كنـتُ أريـد العمـل لديـه.. مـع رسـالةٍ منـه تُطالبنـي بمعـاودة الاتصـال بـه لأمـرٍ ضروري، لـن أتصـل بـه ليُسـمعني كلامـه المحفـوظ عـن ركاكـة أسـلوبي الأدبي وضرورة وجـود بصمـةٍ أدبيـةٍ تجعـل مَـنْ يقـرأ كلـماتي يعـرف هويـة كاتبهـا دون أن يـرى اسـمي. عُـدت إلى المنـزل خطـر لي أن أسـتحم قبـل النـوم ولكـن طاقتـي لم تسـعفني؛ لأنـام بملابـسي الداخليـة قبـل أن أكمـل ارتـداء ملابـس البيـت.

نمـت كأهــل الكهــف دون أن أقلــق مــن ســباتي العميــق لحظــة؛ حتــى بــرودة الجــو لم تعــد تمنــع عــن عينــي النــوم، اسـتيقظت ليـلًا عـلى صـوت هتـافٍ مُزعـجٍ، وضوضـاء ناتجـة عـن الطَـرْق العـالي المسـتمر عـلى بـاب البيـت، هبطـت السـلم مُسرعًـا دون أن أعـي مـا يحـدث أو أحـاول فهمـه، ركضـتُ نحـو البــاب ناســيًا أننــي لا أرتــدي ســوى ملابــسي الداخليــة، أردت فقــط أن أعــرف طبيعــة الكارثــة التــي حلّــت أثنــاء نومــي.. فتحــت البــابَ لأجــد الكثيريــن مــن أهــل البلــد ومــن أبنــاء عائلتــي، ينظــرون لي باحــترامٍ وهيبــة بالغــين عــلى الرغــم مــن منظــري الهــزلي ووجهــي المنتفــخ، احتــل رزق بــؤرة التجمُّــع، أشـار للنـاس كي يحملـوني عـلى أكتافهـم، ثـم رفـع يديْـه عاليًـا وقـال بصـوتٍ عـالٍ دون أن يفقـدَ لهجتـه المختلـة: "مـدد يـا شـيخ يحيـى مـدد!" لـيردد الباقـون في صـوتٍ واحـدٍ:

- "مدااااد"

١٣

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ سَرَابًا

الجمعة 3 مارس 2006

بعد أيامٍ من الاعتكاف داخل مسكني، لا أفعل شيئًا سوى الدعاء بأن ينتهي هذا الكابوس المُقيم.. كان لا بد من الخروج لصلاةِ الجمعة. فكَّرت أن أمكثَ في البيت ولكن طَرَقات أهل طحا على بابي كانت كفيلةً بإلغاء هذه الفكرة؛ كانوا ينشدون المسير معي إلى الجامع، وكما توقعتُ لم أرَ رزق معهم؛ يبدو أن أحدًا سواي لم يعرف ديانته الحقيقية.. أو بمعنى أدق لم يهتم بالسؤال أصلًا، لا أظن أن هذه الأمور تحتلُّ حيزًا في وجدانه؛ فهو هائمٌ في ملكوته بعيدًا عن تفاصيل النسك والعبادات..

طلبتُ منهم بهدوء ألا يحملوني كما فعلوا يوم تنصيبي.. كما حاولتُ أن أبعدَ يدي اليمنى عن شفاهُم.. فأطاعوا. كانت الخُطبة عن الطاعة، أو بمعنى أصح طاعة أولي الأمر

مـن الحُـكَّام؛ فحاولـتُ الاسـتفادة مـن النصـوص المذكـورة بعيـدًا عـن تأويلهـا الـذي لم يـلاقِ قناعـة لـديَّ ولا حتـى لـدى الخطيـب الـذي طفـق يُـردد مـا كُتِـب أمامـه في ورقـةٍ لا يعلم مَـن كتبها إلا اللـه.. وعـلى العكس كان معظـم المُصلـين؛ الذيـن كانـوا يأخذون كلام الخطيـب والتفسـيرات القائمـة عـلى اجتهـادٍ شـخصي كأنهـا نـصٌّ دينـي. شـتَّ عقـلي بعيـدًا عـن الخُطبة وعـن نظـرات الناس الهائبـة المُصوبـة تجاهـي، تمنيـتُ حينهـا أن تنشـق الأرضُ مـن تحتـي أو تحملنـي الريـاحُ بعيـدًا.. زاغ بـصري وتحوَّلـت الخطبـة في أذني إلى مجـرد غمغـماتٍ غـير مفهومـةٍ؛ سرحـتُ قليـلًا في إيفلـين وتقسـيمات جسـدها البديعـة... اسـتعذت باللـه سريعًـا لخـوضي في مثـل هـذه الخواطـر داخـل بيتـه، اسـتعدت حديثـي مـع رزق منـذ يومـين حـين اسـتدعيته ليأتينـي منفـردًا كي أسـأله عـن تبريـرٍ مناسـبٍ لفعلتـه التـي كانـت بمثابـة منحـةٍ ممـن لا يملـك لمـن لا يسـتحق أمـام مـن لا يفقهـون، عكَسَـت تصرفاتـه عقـلًا واعيًـا ليـس معتوهًـا بشـكلٍ تـام كـما يظـن الجميـع، نبَّهتـه أن مشـكلته الأساسـية في النطـق لا الإدراك.. لم يُعلـق عـلى النقطـة الأخـيرة وأخـبرني بلهجتـه الغريبـة أنـه لم يفكـر كثـيرًا فيـما اقـترف ولا يعـرف الدافـع الحقيقـي وراء تصرفاتـه؛ خاصـةً أنـه -بالفطـرة- لا يؤمـن بالأوليـاء، كنـتُ أعلـم أن مـا فعـل هـو السـبيل الوحيـد لـكي يتقبلنـي أهـل البلـد وسـطهم مـرةً أخـرى؛ حتـى يتناسـوا حادثتـي بالتدريـج ويُعاملـوني بشـكلٍ أقـرب للطبيعـي.. شـكرته عـلى نُبـل غايتـه في حمايتـي منهـم ولكـن

الوسـيلة سـتجعلني أحتـل بـؤرة اهتـمامٍ لا أتحملهـا، وسـأكونُ مُطَالبًـا بالكـذب عـلى النـاس طـوال الوقـت وادعـاء مـا ليـس بيـدي.. نصحنـي أن أكتفـي بالصمـت وأن أسـتغل مكانتـي التـي زرعهـا بداخلهـم فيـما ينفـع.

أعـددتُ لـه قـدرًا مـن الطعـام، اقـترح عـليَّ إقامـة ضريـحٍ خـاص بي وصومعـةٍ أعتكـفُ بداخلهـا فضحكـتُ ورفضـتُ رفضًـا قاطعًـا؛ لأن في هــذا التــصرُّفِ مبالغــةً قــد تضعنــي في خانــة الخارجـين عـن القانـون.. عزمـتُ عـلى الاكتفـاء بالصمـت دون السـعي لاكتسـاب مكانـةٍ أعـلى، ودون محاولـة إنـكار ادعائهـم.

حاولــتُ أن أدعــو اللــه في الســجدة الأخــيرة كعــادتي، لم أعـرف مـاذا أطلـب منـه.. كيـف أطلـب وأنـا لا أعلـم عِلتـي مـن الأسـاس. كان سـجاد الجامـع فخـمًا مُعبقًـا برائحـة مميـزة للفـرشِ الجديـد.. تذكـرت السـجاد البـالي في زاويـة الشـيخ صالح، والـذي طالمـا التصقـت رمالـه بجبهتـي أثنـاء السـجود.

قُضِيَـت الصلاة، التفـتُّ إلى الخلـف بعـد السـلام مُتعجبًـا في قـرارة نفـسي مـن ذلـك العـدد المهـول الـذي يُطالعنـي مُنتظـرًا منـي مـا ليـس بيـدي، كيـف لـكل هـؤلاء أن يسـيروا وراء كلامٍ قالــه شــخصٌ معتــوه؟!.. كيــف يصنعــون منــي إلهًــا دون أن ينالهـم منـي مـا يفيـد أو يُـؤذي؟.. ككُفـار الجاهليـة يعبـدون تمثـالًا نحتـوه بأيديهـم، وإن كان مـن العجـوة أكلـوه بعـد أن يصنعـوا مـا هـو أكـبر منـه مُعتقديـن أن بيـده الحـل والخـلاص،

يتركـون مـا هـو حقيقـي ونافـع سـعيًا وراء خرافـةٍ وسرابٍ لا يملـك مـن أمرهـم ولا مـن أمـره شـيئًا!

سرتُ ببـطءٍ وسـط نظراتهـم، مـال عـليَّ أحدُهـم فجـأةً وقـال بحزمٍ:

- عم منصور بتاع الرُّخام عايزك ضروري يا مولانا..

نظرتُ له مستفهمًا، فقال بنفس اللهجة الجادة:

- ليك عنده أمانة لازم تاخدها بنفسك.. تعالَى لوحدك.

***

نجحـت إيفلـين في الحفـاظ عـلى هدوئهـا أثنـاء جلوسـها مقابلـةً لمكتـب وكيـل النيابـة الـذي كان حريصًـا عـلى التعامـل معهـا بشـكلٍ قانـوني صرفٍ بحُكـم جنسـيتها، اسـتجوبها بشـكلٍ مبـاشرٍ قائـلًا:

- بعـد حادثـة العربيـة الـلي جـوزك اتـوفى فيهـا يـا دكتـورة سـألنا حضرتـك إذا كنتـي حاسـة إن في الموضـوع شـبهةً جنائيـةً..

ردَّت إيفلـين بهـدوءٍ أنهـا لا تـزال عنـد رأيهـا: فلـم تسـمع من أمجـد يومًـا عـن وجـود عـداوةٍ أو خصومـةٍ بينـه وبـين أي أحـدٍ.. قاطعهـا وكيـلُ النيابـة قائـلًا إنـه حـين سـأل أهـل أمجـد كان لهـم رأي آخـر؛ لم يسـتبعدوا أن تكـون الحادثـة مُدَبـرة طمعًـا

في الاستيلاء على ثروته التي كوَّنها خارج مصر، علاوة على طبيعة مهنته التي تفرض عليه التعامل مع أشخاصٍ غير أسوياء نفسيًّا.. نظرتْ إيفلين أمامها دون أن ترد فأكمل الوكيلُ حديثه:

- بصراحةٍ أنا كنت مؤيد لرأي حضرتك في إن الحادثة قضاء وقدر.. لحدّ ما جالنا اتصالٌ من مجهولٍ خاف ييجي يُدلي بأقواله في تحقيقٍ رسمي.. قال إنه جاركوا وشاف من بلكونته عربية واقفة مستنية أمجد، أول ما اتحرك العربية دي اتحركت وراه.

وضع أمامها الورقة التي تم فيها تفريغُ المكالمة، والتي وصف فيها المُتَّصِل نوع السيارة ولونها بمنتهى الدقة، أخبرته أنها لا تقرأ العربية جيدًا. حاولت الحفاظ على هدوئِها واستفسرت عن السبب الذي دفعه لاتهامها دون غيرها.. أجاب بلهجةٍ جادةٍ أن بوليصة التأمين هي السبب؛ كونها المستفيدة الأساسية من وفاة أمجد.. ردَّت إيفلين بلهجةٍ جادةٍ أنها لن ترد إلا على اتهامٍ رسمي، وفي حضور المحامي الذي وَكَّلته.. قاطعها وكيلُ النيابة قائلًا بلهجةٍ خبيثةٍ:

- قصدك المحامي اللي جبران جابهولك.. مش جبران ده برضه كان التمرجي بتاع أمجد؟

ردَّت إيفلين بغضبٍ:

- تلميحك مرفوض.

- أقول لك أنا التلميح المقبول: الاتصال المجهول ده لوحده مش دليل كافي، ومش دليل أصلًا.. بس بعد الواقعة أهل جوزك اشتبهوا في إن الحادثة بفعل فاعل؛ بناءً على شكوكهم تجاهك وبناءً على المكالمة المجهولة..

أخرج ورقةً أخرى من وسط الملف الموضوع أمامه، وأكمل قائلًا:

- وعشان نتأكد طلبنا التقرير الفني من إدارة المرور؛ الخبير اكتشف إن سلك الفرامل بتاع العربية كان مقطوع قبل ما تتحرك، وطبعًا اللي قطعه حدّ مستفيد من الوفاة؛ استفادة تمنها عشرة مليون جنيه!

ردَّت إيفلين بنفس الهدوء مؤكدةً أنها لم تكن تعرفُ موضوع البوليصة قبل وفاة زوجها، طلبت منه أن يستجوبَ جبران لأنه كان الموكَّل بهذا الأمر من أمجد، قالت بتهكم أنها ليست مجنونةً كي تقتلَ زوجها الذي ستفلس بعد رحيله؛ لأنها لم تجد في مصر العمل المناسبَ تخصصها.. قال وكيلُ النيابة:

- بس على الورق إنتوا مش متجوزين.

شَرَحَت له إيفلين أن إجراءات الزواج في المجتمعات الغربية أسهل كثيرًا مما يتم في مصر؛ فأمجد تقدَّم لها بشكلٍ

مفاجئ في حفلٍ صغيرٍ وسط مجموعةٍ من الأصدقاء، وافقَت وتم الاحتفالُ واستكمالُ المراسم البسيطة، وبعد أيامٍ وقَّع كلاهما على مجموعةٍ من الأوراق لضمان حق كل طرف دون توثيق الزواج نفسه في أيٍّ من السفارتين المصرية أو الألمانية.. عقَّب وكيلُ النيابة أن هذا سبب أدْعَى لكي تقتله من أجل أمواله؛ فعَلاقتهما غريبةٌ ليست زواجًا تقليديًّا.. ردَّت إيفلين متعجبةً من طريقة تفكيره، قالت إن من فقدته كان زوجها وليس خليلها، وأن بقاءها معه أهم من أي مالٍ، أنهت حديثها محاولةً الحفاظ على رباطة جأشها:

- أمجد كان حب حياتي.

نظر وكيلُ النيابة في الورق أمامه، قال بلهجةٍ خبيثةٍ:

- أصل تحريات الشرطة مكتوب فيها إنك كنتي سهرانة في الحُسين لحدّ الفجر مع يحيى الصديق الأقرب لأمجد؛ "حُب حياتك"!

***

انتظرتُ حتى انفضَّ الجمْعُ وسألتُ أحدَ فلوله عن مكان "منصور" هذا؛ فوصفَ لي المكان وعرض عليَّ القدومَ بصحبتي، ولكن نظرةً رادعةً مني جعلته ينسحبُ. اتبعتُ وصفَه لأجدَ مسكنًا صغير الحجم على طرف البلد، كان البابُ مفتوحًا وعتبته منخفضةً عن الأرض حوالي مترين..

ولكننـي حـين دخلـتُ شـعرتُ بانتقـالي إلى عـالم آخـر؛ كان الهـواء مُفعـمًا برائحـةِ البخـور، بـاردًا كأنـه يصـدرُ مـن مُكيـف هـواء خَفِـي، تـسرَّب إلى أذني صـوت "نجـاة الصغـيرة" المُنبعـث مـن مُسـجلٍ قديـمٍ، كـما رأيـت مخطوطـاتٍ كثـيرةً تُزيِّـن جـدران المـكان أعتقـد أن كاتبَهـا منصـور نفسـه الـذي لم يرفـع رأسَـه نحـوي وظـلَّ مُنهمـكًا في نحـت قطعـةٍ مـن الرخـام الصلـب.. كان عجـوزًا نحيـلًا أصلـع الـرأس يرتـدي نظـارةً سـميكةً، ذكَّرتنـي هيئتُـه إلى حـدٍّ كبـيرٍ بالراحـل نجيـب محفـوظ.. قـال بصـوتٍ هـادئٍ دون أن ينظـرَ نحـوي وهـو يُشـير إلى ركـنٍ في صومعتـه رُصَّـت فيـه قطـعُ الرخـام المُسـتطيلة فـوق بعضهـا:

- أمانتك هتلاقيها وسط الشغل ده.. طلَّعها وخدها.

لم أفهـم قصـده حتـى اقتربـت وبـدأتُ أدقـق النظـر في القطـع التـي كانـت ملفوفـةً في ورق جرائـد، حتـى وجـدت رخامـةً تحمـل اسـمي.. عقَّـب مُبتسـمًا:

- امسـكها باليمـين بـس يـا يحيـى، ربنـا يجعلـك مـن أهلـه.. مـا تقلقـش أنـا عاملهالـك مـن رُخـامٍ خفيـفٍ.

فزعـتُ حـين تخيلـت أن هـذه الرُّخامـة سـتثبت يومًـا مـا فـوق قـبري.. أشـار لي بالجلـوس عـلى مقعـدٍ خشـبي بـالٍ وقـال:

- عرفـت إنـك طلعـت عايـش واتدفنـت بالغلـط وأنـا في نـصِّ الشـغل، فكمِّلـت الاسـم والديباجـة وسـيبت تاريـخ الوفـاة

لتقديـر ربنـا. تعـرف إني مـا بحبّـش الأعـمال الناقصـة؟.. رُخامتـك دي تـاني عمـل ناقـص أعملـه في حيـاتي.

سـألته بفضـولٍ عـن العمـل الأول الـذي لم يُكملـه.. ردَّ بتلقائيـةٍ:

- رُخامتـي يـا ابنـي.. أنـت فاكـر إني هاسـيب نحَّـات غـيري يشـتغل عـلى قـبري!

أخـرج لفافـةً جلديـةً بصعوبـةٍ مـن درج مكتبـه وفـك اللفـة ليكشـفَ عـن قطعـة رخـام مُبهـرة المنظـر، طـرق عليهـا قائـلًا بفخـرٍ:

- دي حتـة "كريـم مارفيـل" مـش موجـودة في بلـدك كلهـا.. مـش سـايب مـكان لتاريـخ الوفـاة، يبقـوا ينحتـوه بقـى عـلى أي رخامـة صغـيرة ولا عنهـم مـا نحتـوه.

نهـض بصعوبـةٍ وأحـضر "سـبرتاية" وبـدأ في إعـداد القهـوة بمنتهـى التـأني.. لم يسـألني عـن كميـة السُّـكر التـي أفضِّلهـا ووضـع لكليْنـا نفـس المقـدار.. شـعرتُ أنـه يشـتاقُ إلى حديـث البـشر، قبـل أن يُكمـل كلامـه قاطعـه اقتحـامٌ مفاجـئٌ للبيـت بواسـطة شـخصٍ لم أعرفـه، بـدا لي أن كليْهـما يعـرف الآخـر، سـبَّه منصـور سـبةً لا تتـلاءم مـع سـنه ولا هيبتـه، ولكـن الرجـل قابـل السـبة بضحكـةٍ سـمجةٍ، عـدَّل مـن بدلتـه الرخيصـة التـي

اختلف لونها عن لون البنطلون، قال بعدما صافح منصور باحترام وصافحني بهيبةٍ مصطنعةٍ:

- عايزك في طلب مستعجل يا عم منصور.. محتاجين يافطة مستطيلة من أغلى نوع رخام عندك، لازم تخلَّصها قبل افتتاح المصنع.

سأله منصور مُتهكمًا:

- وطبعًا عايز نكتب عليها اسم المحافظ عشان هايفتتح المصنع؟!

لم يلحظ الرجلُ السخرية وأمَّن على حديثه قائلًا:

- هاتكتب الديباجة المُعتادة، وإن الافتتاح تم في عهد السيد الرئيس والسيد المحافظ والسيد رئيس المجلس المحلي.. بس أهم حاجة تنحت اسم الريِّس كويس وبخط كبير، عايزينه يفضل موجود على طول، ما يبوظش من خربشة العيال الصغيرة على الرخام.

ردَّ منصور ضاحكًا:

- يا ابني هو الريِّس نفسه ضامن يكمِّل في مكانه عشان أضمن لك يافطته تفضل مخلدة؟!

لم يرُد الرجل وترك مبلغًا من المال ملفوفًا في ورقةٍ فوق مكتب منصور، خرج يضربُ كفًّا بكفٍّ مُتحسرًا على عقل منصور "المغيب".. لم يعترض الأخير، وضع المالَ في

جيبه وغمغم قائلًا لنفسه: ″ما حدِّش هايسلم من خربشة العيال″. غرق في نوبة ضحك لم أرَ داعيًا لها، والتفت إليَّ متسائلًا بنفس اللهجة الرصينة عن شعوري تجاه ″الهوجة″ الحاصلة في البلد بسببي.. أجبته بصدقٍ أنني لا أريد سوى أن أعيش في حالي؛ فلا أنا مُختل عقليًّا ولا ملبوس بالجن ولا ولي من الصالحين، ولكن الناس مُصِرون على وضعي في أي قالب يُلائم معتقداتهم.. هزَّ رأسَه متفهمًا دون تعليقٍ وقال مُغيرًا الموضوع:

- أنا كنت نحَّات مشهور في القاهرة زمان، وكان عندي معرض خاص بأعمالي.. أيام ما كانت القاهرة قاهرة بجدّ، وكان الناس عندها ذوق حقيقي؛ كانت كل شِلة فيها النحَّات والعازف والشاعر..

سألته مبتسمًا:

- والمثقف؟

أجاب:

- كلنا كُنا مثقفين.. الطالب الجامعي وقتها كان له قيمة حقيقية.

أبديت حسرتي مُترحمًا على أيام المَلَكية.. سألني بلهجةٍ صعبةٍ:

- هي الملكية خلصت؟!

ظننتُ أنه فقد الشعور بالزمن كدأب الشيوخ، كدتُ أعيد عليه التاريخ بداية من عام ١٩٥٢.. أشار لي بيده كي أتوقفَ؛ فهو يذكر كل ما حدث كأنه البارحة، أردف وهو يصب القهوة في فنجاني أولًا:

ـ أنا قصدي إن كل اللي حصل للملكية إنها اتنقلت من باشا لباشا جديد.. كمُسَمى خلصت، بس الإقطاعية لسّه عايشة لحدّ دلوقتي؛ مش الإقطاعية دي يعني احتكار الرزق لمجموعة قليلة؟!

أجبته بإيماءةٍ من رأسي، فأكمل حديثه قائلًا:

ـ آهه ده بقى سِلو بلدنا؛ أي حدّ عايز يحكم بيجيب صحابه ويعاملوا الشعب كأنهم فلاحين في عِزبة أبوهم.. بس زمان السرقة كانت بشياكة أكتر، زي ما تقول كده الحرامي كان مستحمي وبيسرق بالشوكة والسكينة.

ضحكت من تشبيهه، وسألته- بشكلٍ عابرٍ- عن رأيه في طريقة حُكم الجماعات الجهادية؛ ردَّ ساخطًا:

ـ ألعن وأضل سبيلا؛ دول كانوا السبب اللي جابني هنا.

تذوقت قهوته التي أيقظت جميع حواس تذوق الجمال بداخلي.. ارتشف بدوره رشفةً طويلةً، أشار إلى لوحةٍ ورقيةٍ مُعلقةٍ على الحائط أمامنا خطَّ عليها بيده اقتباسًا عن ابن

سـينا: ″بُلينـا بقـومٍ يظنـون أن اللـه لم يهـدِ سـواهم″.. وأكمـل حديثـه قائـلًا:

- مــن حــوالي تلاتــين ســنة.. خمســة منهــم دخلــوا عــليَّ المعـرض بتاعـي كـسروه فـوق دماغـي، قـال إيـه أنـا كافـر وبعمـل أصنـام، حسِّـسوني إني تاجـر آلهـة والمشركـين بييجـوا يحجّـوا في المعـرض عنـدي!.. خـسرت كل فلـوسي وصاحبـة العـمارة الـلي كنـت مأجـر فيهـا خافـت منهـم وطردتنـي؛ فرجعـت طحـا إيـد ورا وإيـد قـدّام.

اندهشت أنه من أبناء طحا.. أومأ برأسهِ مؤكدًا، وأردف:

- كانــت غلطتــي مــن الأول إني بعــت أرضي عشــان أعــرف أعيـش في مـصر.. بـس النـاس هنـا اسـتحملوني وسـاعدوني أبنــي البيــت ده، واحــد فيهــم اقــترح عــليَّ شــغلانة رخــام المدافـن ده.. اتفقـت مـع مَحْجَـر رخـام أنـزل لـه كل كام شـهر أجيـب الكميـة الـلي هحتاجهـا، ولمَّـا كـبرْت وحركتـي قلَّـت شـباب البلـد بقـوا بيجيبـوا الرخـام بـدالي.. وأهـي بـتُرزق.

لم أكــن أرغــب في الإدلاء بــأي حديــثٍ، كنــت أســتمتعُ بمشـاهدته والاسـتماع إليـه.. سـألته عـن إمكانيـة عودتـه إلى القاهـرة بنفـس المهنـة الحاليـة بعـد أن صار مُحترفًـا فيهـا.. قـال وهــو ينظــرُ إلى أعــلى:

- هـو العُمـر باقـي فيـه كام يـوم أجـرب فيهـم؟.. أنـا ماعنديـش رفاهيـة المحاولـة والفشـل يـا يحيـى. بعديـن النـاس في القاهـرة مـش مهتمـين بالدفـن زي الأريـاف.. هنـاك بيهتمـوا أكـتر بفشـخرة العـزا، وحتـى الـلي مهتـم بيطلـب يتدفـن في القريـة الـلي اتولـد فيهـا.. إنمـا النـاس هنـا بيقدسـوا المـوت، حتـى لـو بيعصـوا رب المـوت.

لم أفهـم جُملتـه الأخـيرة؛ فـشرح لي بعـض العـادات الخاطئـة البعيـدة عـن الديـن والتـي يُمارسـها أهـل الميـت بعـد رحيلـه.. بـدا الإنهـاكُ واضحًـا في عينيْـه فاسـتأذنتُ منـه كي أرحـل.. أصرَّ ألا أغـادر قبـل أن يُرينـي دفـترًا كبـيرًا فتحـه قائـلًا:

- أول مـا جيـت اشـتريت الدفـتر ده وكنـت باخـد فيـه بيانات كل ميـت بالتواريـخ، في الأول أهـل البلـد عشـان يشـجّعوني خلُّـوني أعمـل رُخـام لأهاليهـم الـلي ماتـوا بتواريـخ قديمـة، هاتلاقينـي عامـل جـزء خـاص لعيلتـك عشـان هُـما أصـل البلـد..

كانـت الأسـامي مكتوبـة في صـورة قائمـة طويلـة، ومـسرود أمامهـا مـكان الدفـن بالتحديـد وتاريخـه.. طالعـت أسـامي الطحاويـة سريعًـا، وكـما توقعـت؛ فلـم أكـن أعـرف معظمهـم.. شـعرت بغصَّـةٍ في حلقـي حـين لمحـتُ اسـم فرحـة مُسـتقرًّا بـين اسـم حسـن واسـمي... ولكـن مهـلًا!

عـدتُ بنظـري إلى منتصـف القائمـة حـين اسـتوقفني آخـر اسـم توقعـتُ وجـوده.. صحـتُ مُسـتهجنًا في منصـور وأنـا أنظـر إلى الدفـتر:

- المرحوم رفعت صادق الطحاوي؟!

١٤

دَعْنِي أَخْدَعْكَ..

الجُمعة 3 مارس 2006

لم أعـرفْ مـاذا أفعـل بعـد أن خرجـتُ مـن بيـت منصـور مطعونًـا بصدمتـي، حملـتُ قطعـة الرخـام المنحـوت عليهـا اسـمي بعـد أن رفـض بقاءهـا لديـه؛ وكأنـه يرغـبُ في تذكـيري أننـي مـا أزال مـوءودًا حتـى وإن لامـس النـورُ وجهـي ثانيـةً. ذهبـتُ إلى مسـجد الشـيخ صالـح فوجدتـه نائمًـا بمفـرده عـلى بسـاط الزاويـة، خشـيتُ أن أخرجـه مـن قيلولتـه للحصـول عـلى إجابـةٍ قـد تُجهِّـز عـلى مـا تبقَّـى مـن حيـاتي. لم أجـد مـلاذًا سـوى بيـت العائلـة؛ سـأمكثُ داخـل صنـدوق الصـور الخـاص بفرحـة الـذي أخفيـتُ أمـره عـن أخـي.. سـأحيا بـين ثنايـا ذكريـاتي يـوم أن كان لي أحبـاء حقيقيـون، بعيدًاعـن طمـع عطـوة ومكـر ناجي ومشـاكل إيفلـين وعقـلي الـذي اسـتُهلك بـين رَحَـى الحيـاة..

"الكـوارث كعربـات القطـار يجـرُّ بعضُهـا بعضًـا".. كانـت هـذه أول جملـة تخطـرُ عـلى ذهنـي حـين دخلـت المنـزل لأجـد ناجـي وعطـوة جالسـيْن في حجـرة اسـتقبال الضيـوف ومعهـما ضابـط برتبـةٍ صغـيرةٍ يبـدو عليـه الحَـرج.. أخـبرني عطـوة أن الضابـط ذهـب إليـه حـين أتى إلى البيـت ولم يجـدني، اسـتنتجتُ أن ناجـي أدخلهـما البيـت بمفتاحـه.. كنـتُ قـد نسـيتُ أن فرحـة كتبـتْ لـه نصيبًـا مماثـلًا لنصيبـي في البيـت.

تجاوزتُ دهشتي وقلتُ موجِّهًا حديثي إلى ناجي ضاحكًا:

- شـفت منصـور ابـن المجنونـة؟.. بيقـول إن رفعـت ميِّـت بقالـه أكـتر مـن عشريـن سـنة!

نظر ناجي إلى الأرض دون ردٍّ، وقال عطوة بلهجةٍ هادئةٍ:

- اسمه جدك رفعت.. الله يرحمه ويحسن إليه.

لم أعـرف مـاذا أفعـل، خـرج فزعـي مـن هـول الفكـرة في صـورة اعـتراضٍ صـارخٍ؛ أمسـكت بملابـس عطـوة، صحـتُ فيـه كـما لم أفعـلْ مـن قبـل.. اعتـذر ناجـي للضابـط عـن تـصرفي.. أصرَّ عطـوة عـلى رأيـه حـين أخـبرني أن منصـور ليـس مُخطئًـا وأن قـبر جـدي موجـودٌ منـذ زمـنٍ بعيـدٍ، وأنـه جعـل منصـور يكتـب اسـم رفعـت عـلى الرخـام المُثبـت عـلى شـاهد القـبر بعـد وفاتـه بفـترةٍ طويلـةٍ تشـجيعًا لـه، ولهـذا السـبب لم يُذكـر اسـمه ضمـن ورثتـي رغـم أن الـشرع يُتيـح لـه نصيبًـا في تركتـي!

طلـب منـي ناجـي تأجيـل النقـاش في هـذا الموضـوع فوافقـتُ مـن بـاب المجـاراة؛ لمعرفـة سـبب اقتحـام ثلاثتهـم لمسـكني دون إذنٍ، وبعـد رحيـل الضابـط سـأعرفُ لمـاذا زعمـوا وفاتـه. صافحتهـم بـبرودٍ، وحـين اسـتفهمتُ عـن سـببِ الزيـارةِ غـير المرغـوبِ فيهـا.. أجابنـي الضابـطُ قائـلًا:

- المفـروض فيـه أمـر ضبـط وإحضـار لحضرتـك، بـس احترامًـا للحـاج عطـوة جيـت لوحـدي.. ده غـير إننـا عارفـين حساسـية موقفـك في طحـا دلوقتـي، وإن بقـى ليـك أنصـار كتـير ممكـن يعملـوا قلـق مالـوش لـزوم.. فحبيـت أرافقـك للنيابـة بشـكل ودي.

سـألته دون أن أفقـد هـدوئي عـن التهمـة الموجهـة لي.. ردَّ بلهجـةٍ حـذرةٍ أن الأمـر مجـرد اسـتجوابٍ بسـيطٍ بخصـوص مقتـل الدكتـور أمجـد عـمَّار.

لم يـرد أحدنـا؛ لجمـت الدهشـةُ أفواهنـا، أطلقـتُ سُـبة بذيئـةً علامـةً عـلى اعـتراضي عـلى فكـرة "قتـل" أمجـد مـن الأسـاس.. فأشـار لي ناجـي مُحـذرًا واعتـذر للضابـط الـذي تعمَّـد تجاهـلي وطلـب مـن ناجـي أن يُحـضر موكلـه الآن للمثـول أمـام وكيـل النيابـة المُكلـف بالتحقيـق. لم ألمـه عـلى مناداتي بضمـير الغائـب بعـد مـا تلفظـتُ بـه، قلـتُ لناجـي قاصـدًا الضابـط بحديثـي أننـي سـأصعدُ لتغيـير ملابـسي، فتحـتُ خزانـة ملابـسي فوجـدتُ عبثًـا واضحًـا بمحتوياتهـا؛ توجَّهـت عينـاي سريعًـا نحـو

أثمـن مـا فيهـا ليتحقـقَ أسـوأ كوابيـسي: فقـد اختفـى صنـدوقُ جـدتي فرحـة!

***

بعـد قرابـة السـاعة مـن الأسـئلة المعتـادة التـي لم تتطلـب تدخـل ناجـي، اعتـدل وكيـلُ النيابـة في مجلسـهِ وقـال بلهجـةٍ جـادةٍ:

- حضرتك كنت متغيب فين وقت حادثة أمجد؟

ابتســم ناجــي.. وضحكــتُ بصــوتٍ عــالٍ دون أن أبــالي بنظراتـه المحـذرة، قلـت وسـط ضحـكاتي إن لـديَّ أغـرب حجـة غيـاب في التاريـخ: كنـتُ ميتًـا!.. ردَّ الوكيـلُ بخبـثٍ قائـلًا:

- أو كنت عامل نفسك ميت.

تدخَّل ناجي مشيرًا إليَّ بالصمت:

- مـوكلي اتـضرر نفسـيًا وجسـديًا مـن حادثـة الدفـن الخطـأ الـلي مثبتـة في الـورق الـلي قدمتـه لحضرتـك.. مُسـتحيل حــدّ يدّعــي المـوت كحجـة غيـاب، خصوصًـا إن كل الـلي حواليـه كانـوا متأكديـن إنـه ميـت فعـلًا، أنـا نفـسي عملـت إعـلان وفـاة وبـدأت في إجـراءات تسـليم التِركـة.

ألقـى وكيـلُ النيابـة بعـضَ الأسـئلة الروتينيـة، قبـل أن يُعـاود هجومَـه مُسـتفهمًا بمكـرٍ عـن علاقتـي بإيفلـين.. أخبرتـه بصـدقٍ

عن الصداقة الحديثة التي نشأت بيننا بحُكم الظروف الصعبة التي مرَّ بها كلانا؛ فقد هجرني جميعُ من حولي- حتى زوجتي التي طلبت مني الطلاق- وهي منبوذة من أهل زوجها في بلدٍ غريبة عنها.. تحدَّث وكيلُ النيابة مُحاولًا تقليد طريقتي في الإجابة عليه كأنه يُكمل ما أريد قوله:

- ووحيدة.. وهاتصرِف قريّب بوليصة تأمين بقيمة عشرة مليون جنيه.

ردَّ ناجي أن أملاك عائلة الطحاوي من الأملاك تتجاوز هذا الرقم بكثير.. قلتُ بتلقائيةٍ أنني لا أهتم بالأموال؛ خاصةً بعد حادثة الدفن الخطأ التي جعلتني لا أريد من البشر سوى أن يتركوني لحالي.. سألني:

- تفتكر موضوع البوليصة ده لعبة من إيفلين وجبران عشان يستفيدوا من قتل أمجد؟

- أمجد كان قايل لي قبل ما يسافر إنه خايف على إيفلين لأنها ما تعرفش حدّ في مصر.. فمش بعيد يكون عمل كده عشان يحميها.

تجاهل الوكيل صوت طَرَقاتٍ عاليةٍ على الباب واستمرَّ في استجوابه لئلا يفقد لحظة المواجهة، قال بصوتٍ عالٍ:

- طب ما يمكن إنتوا التلاتة متفقين على...

قاطعه اقتحام شخصيْن للمكتب عرفتهما بسهولةٍ دون أن أعرفَ السبب الذي جمعهما: أولهما كان لطفي أبو الخير صاحب دار النشر التي رفضت التعامل معي فيما سبق، والثاني كنتُ أعرفه من شاشات التلفزيون؛ كان معاذ عصفور المحامي المعروف بلسانه السليط، ذاع صيتُه بعد أن خاض أكثر من حربٍ مع شخصياتٍ شهيرةٍ، وبعد أن تصدَّى للكثير من قضايا الرأي العام كقضايا الفنانين والإعلاميين ورجال المال. قال معاذ بلهجةٍ معتذرةٍ:

- آسفين على طريقة الدخول يا محمود بيك.. بس أكيد حضرتك مش هاتقبل بالمهزلة اللي بتحصل دي. نظرتُ إلى لطفي مُستفهمًا فأومأ لي مُهدئًا وأخبرني همسًا أنه كان يُحاول الاتصال بي ليُخبرني.. أردف معاذ قائلًا:

- حضور أستاذ ناجي مع أخوه باطل.

بدا على وكيل النيابة الاهتمام فنظرتُ له نافيًا هذا الادعاء، وتدخَّل ناجي صائحًا بغضبٍ أنني موكله منذ سنوات، وأنه المسئول عن النظر في كل ما يخصه. قال لطفي بصوتٍ هادئ:

- ويا ترى هاتقف معاه برضه في القضية اللي جاية؟!

ثم وجَّه حديثه لي لينقذني أخيرًا من براثن الحيرة:

- أخوك المُبجل رافع عليك قضية حَجْر يا يحيى.

نظـرتُ إلى ناجـي مُسـتفهمًا عــن جدية هــذا الحديــث فأجابنـي بصمـتٍ ألحقـه بطأطـأة رأس.. اسـتغل معـاذ الموقـف وقـال لوكيـلِ النيابـة بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- واضـح إن كـده التوكيـل أصبـح باطـل، أسـتأذن حضرتـك لـو حابـب تحقـق مـع أسـتاذ يحيـى دلوقتـي هاحـضر معـاه التحقيـق بشـكل ودي، لـو لازم ورق يبقـى نأجـل التحقيـق.

لم أرد أن أضـع نفـسي في موقـف المتهـم، فقاطعتـه قائـلًا إن التحقيـق أوشـك عـلى الانتهـاء، وأن تغيـير المحامـي لـن يُغـير حرفًـا مـن أقـوالي.. سـأل وكيـل النيابـة معـاذ مُبتسـمًا:

- بــس إيــه سر اهتمامــك المفاجــئ بيحيــى الطحــاوي؟.. حسـب معلومـاتي هـو شـخص بسـيط، مـش مـن نوعيـة الزبايــن الــلي حضرتــك بتفضلهــا.

هزَّ لطفي رأسه نافيًا وقال:

- بسيط؟!أسـتاذ يحيـى أهـم كاتـب في دار النـشر بتاعتـي، وكـمان هايكـون الواجهـة القادمـة لقنـاة ″الـروح″ المملوكـة لرجـل الأعـمال سـامح أبـو خاطـر.

***

لم أمتلـك رفاهيـة رفـض العـرض المُقـدم مـن معـاذ، لم تكـن قـوة العـرض في مقابلـه المـادي ولا المعنـوي فقـط.. ولكـن في

توقيت طرحه؛ فقد انتظر حتى انهارت أساساتُ ثقتي في جميع مَن حولي.. اجتمعنا بعد انتهاء تحقيق النيابة معي، والذي صممتُ أن أحضره منفردًا. جلستُ مع معاذ ولطفي بأحد المقاهي الباهظة، أو كما يقولون "كافيه"، في المعادي، تبادلا العزف على نغمة "إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها"؛ فحدَّثني أحدهما عن ضرورة استغلالي للحادثة قبل أن ينساها الناس، وأكّد آخر على أهمية ظهوري بالشكل الأنسب الذي ينتظره الجماهير التي ألَّهتني، تكلما عن أهمية الثروة بالنسبة لشخصٍ وحيدٍ مثلي، وكيف ستمكِّنني من ملء حاجتي للوَنَس، قضى معاذ على آخر خط دفاع لشعور الرفض بداخلي حين ذكر نماذج خدعت الناس بكامل إرادتهم الحرة؛ فهم يبحثون عمن يبيعُ لهم الوهم، أخبرني أن أسهل طريقة لحل مشاكل الناس أن أكونَ السبب فيها.. فإن لم أخدعهم احتقروني لصالِح غيري وألقوا بعقولهم تحت قدميْه كي يزيدهم جهلًا.

استشفَّ معاذ الموافقة من صمتي، فسلَّمني مبلغًا من المال وقال إنه مُقدم بسيط مقابل عملي كخبير "روحاني" في قناة الروح التلفزيونية، وأعطاني مهلة بضعة أشهر كي أعد نفسي لتلك التجربة، طلب مني أن أقرأ في مجال الروحانيات والخوارق وأن أدرس نفسية الناس، ووعدني أن المحطات التلفزيونية ستذكرني وأن الجرائد ستكتب عن حادثتي وتنشر شائعاتٍ جمَّةً بخصوص حقيقتي. تركني مع

لطفــي متعلــلًا بانشــغاله، ظننــت أن لطفــي يريــد الاســتفادة مــن اســمي وشــعبيتي البســيطة وينــشر روايتــي التــي رفضهــا فيــما ســبق، ولكــن اتضــح لي أنــه يطمــع فيــما هــو أخطــر؛ طلــب منــي إعــداد مســودة كتــابٍ عــن حادثتــي، وســيقوم بــدورِه بتكليــف أحــد العاملــين في الــدار بصياغتــه أدبيًّــا، طلــب منــي أن أخــبر النــاس أن عــودتي لم تكــن محــض صُدفــة.. أعطــاني رقــم أشــهر بائــع كتــب في ســور الأزبكيــة وطلــب منــي أن أذهــب إليــه بتوصيــةٍ منــه، وأن أســتزيد مــن الكتــب التــي ســتنفعني وتجعلنــي أقــدِّم محتــوى مكتوبًــا ومرئيًّــا مبهــرًا للنــاس. أبــدى دهشــته مــن سرعــة موافقتــي عــلى كلا العرضــيْن كالمُخَــدَّر، لم أخــبره أن دهشــتي كانــت أعظــم!

***

أوشــكتْ شــمسُ هــذا اليــوم الطويــل عــلى الغــروب، ولكــن حماسًــا غــير مــبررٍ مــلأني بعــد لقــائي بذينــك الشــيطانيْن، حاولــت الاتصــال بخالــد عــلى رقمــه الــذي طلبتــه منــه يــوم أودعنــا شــكري المصحــة فلــم يــرد، هاتفــت صاحــب العقــار الــذي كان يُجالســهما وطلبــت منــه عنــوان خالــد فأمــلاه عــليَّ، ونصحنــي أن أؤجــل زيــارتي لــه للصبــاح.

انطلقــتُ بســيارتي نحــو ســور الأزبكيــة ناشــدًا بائــع الكتــب الــذي أوصــاني بــه لطفــي وأثنــاء قيــادتي اتصلــت بإيفلــين وســألتها عــن كتــب أمجــد في مجــال الطــب النفــسي.. ردَّت أنهــا تحتفــظ

بجميع الكتب والمراجع الخاصة به، طَلَبَت أن تكون زيارتي لها صباحًا حتى تتجنب كلام الناس.. ضحكتُ ساخرًا من الطبع المصري الذي اكتسبَته سريعًا بعد وفاة أمجد.. لم تُبادلني الضحك وأخبرتني بتجهمٍ أن أهل أمجد اتصلوا بها صباحًا لإخطارها بضرورة إخلاء العيادة من متعلقات أمجد الشخصية.. عرضتُ عليها مساعدتي فَقبَلَت العرض، وأخبرتني أنها وجدتْ شيئًا في العيادة قد يُثير اهتمامي! وضربتْ لي موعدًا في اليوم التالي لأنقلَ معها محتويات العيادة إلى شقتها؛ وآخذ منها ما أرغب من الكتب.. أدهشني ترحيبُها المُطلق بفكرة عملي في الكذب على الناس؛ كانت تراه عقابًا مُستحقًّا لهم بسبب جهلهم ووضعهم لي في مكانةٍ أكرهها. طلبتُ منها أن تبحث على الإنترنت عن اسم "سامح أبو خاطر" وتزوِّدني بكافة المعلومات عنه وعن نشاطاته التجارية.

كان سور الأزبكية عالمًا خاصًّا، تشعر أنه دولة داخل الدولة؛ فما بين بائعي كتبٍ نادرةٍ وقديمةٍ وبين شبابٍ مُتحمسين يجتذبونك نحو مكتباتهم الجديدة الواسعة محاولين إغراءك بأسماء كتبٍ جديدةٍ ومشهورةٍ، وبين أصحاب مطابعٍ يُجاهرون علنًا بتزوير الكتب الجديدة لبيعِها بسعرٍ أرخص، وبين شيوخٍ عُجُز يعرفون محتوى كل المطبوعات التي يُتاجرون فيها.. وقفتُ أبحثُ عن رجلي المنشود دون جدوى. سألت أحد الشباب عنه فأجابني أنه

محبـوسٌ منـذ شـهرين، سـألتُ آخـر فـردً بأنـه قـد قبـض عليـه منـذ شـهر.. علمـت أنهـم يُحاولـون تضليـلي وأننـي يجـب أن أصـل إليـه بنفـسي.

"اتفضـل اقعـد يـا أسـتاذ يحيـى.. ده لطفـي باشـا أبـو الخـير بنفسـه مـوصي عليـك!".. هكـذا بـدأ الرجـلُ تحيتـه بعـد أن أعيـاني السـبيل إلى متجـره، اسـتغرقني البحـثُ عنـه الكثـير مـن الوقـت والجهـد والمـال والأكـثر مـن عبـارات "وربنـا أنـا مـش بوليـس!".

كانـت مكتبتـه- عكـس توقعـي- صغـيرة مُتربـة أقـرب إلى الكشـك الكبـير، وبرغـم هـذا ظهـرت هيبتـه واضحـة عـلى وجوه جميـع مـن حولـه، جـذب مقعـدًا خشـبيًا مفككـة أقدامـه ومسـحه بيـده مرتـين وأشـار إليَّ كي أجلـس عليـه، ابتسـم محييًا ليكشـفَ عـن أسـنان صفـراء تتوسـطها سـنٌّ ذهبيَّـةٌ كبـيرةٌ، طلـب مـن صبـي المقهـى المجـاور لمكتبتـه كوبـين مـن الشـاي الثقيـل دون أن يمنحنـي فرصـةً للاختيـار أو الرفـض، عرفـت أن اسـمه المسـتعار "أبـو دنيـا"، وأننـي كان يجـب أن أسـأل عنـه مُسـتخدمًا هـذا الاسـم إذا أردت وصـولًا سريعًـا لمكتبتـه.. قلـتُ لـه بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- أستاذ لطفي فهِّمك المطلوب منك ولا أشرح تاني؟

- مـش حضرتـك عايـز كتـب عـن الجـان والسـحر والعيـاذ باللـه؟

وصل صبي المقهى بكوبي الشاي سريعًا، كان منظرهما شديد القذارة مما جعلني أقرر عدم الشرب معه.. فاجأني أبو دنيا بالتقاطهِ كوبيْ الشاي، وقد بدأ يرتشفُ منهما بمفرده واحدًا تلو الآخر دون أن يدعوني إلى تناول أحدهما، تجاوزتُ فظاظته وقلتُ مُحذرًا:

ـ كُتب أصلية يا أبو دنيا، بلاش كُتب مضروبة.

وضع كوب الشاي الأول الذي أنهاه سريعًا، واقترب مني مثيرًا اشمئزازي برائحة فمه البشعة، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

ـ إنت مش قدّ الأصلي يا يحيى أفندي.

فتحت عينيَّ على آخرهما، وتناسيتُ أنني في منطقته ووسط رجاله، وضعتُ سبابتي أمام عينيْه قائلًا بلهجةٍ صارمةٍ:

ـ إنت ما عيشتش ربع اللي أنا عيشته ولا شُفت حاجة من اللي أنا شوفتها تحت، لمَّا تبقى تتدفن في التراب يومين وترجع قادر تقف على رجليك.. ساعتها ابقى اتكلم عن اللي أنا قده واللي أنا مش قده!

حاول إخفاء فزعه من حديثي ولكن قشعريرة بدنه ونحنحته قبل الردِّ أفشلا محاولته، استغللتُ تفوقي النسبي عليه وأردفتُ قائلًا بلهجةٍ آمرةٍ:

- وعايـز كتـب عـن حـوادث غريبـة شـبه حادثتـي، وكتـب عـن فـن الخـداع السـحري، ولـو عنـدك حاجـة عـن راسـبوتين يبقـى حلـو أوي.

لم أنتظـر موافقتـه، انتزعـت كـوب الشـاي الثـاني مـن يـده قبـل أن يلمـسَ حافتـه بشـفتيْه، أنهيتـه كلـه عـلى مـرةٍ واحـدةٍ محـاولًا إخفـاء الألم الـذي أحدثتْـه سـخونته داخـل جـوفي.. أخرج ورقـةً وقلـمًا وكتـب فيهـا قائمـةً طويلـةً مـن الكتـب وأعطاهـا إلى أحـد صبيانـه آمـرًا إيـاه بإحضـار هـذه الكتـب مـن داخـل المكتبـة، وإنْ وجـد عجـزًا يعوضـه مـن أي مكتبـة مجـاورة، كـما أمـره بتجميـع الكتـب داخـل صنـدوقٍ كبـيرٍ ووضعـه في حقيبـة سـيارتي.. شـكرته دون أن أفقـد لهجتـي الجـادة، وأخبرتـه أن حسـابه مـع لطفـي وليـس معـي، فوافـق عـلى مضـض.

لاحظـتُ أن سـيارتي صـارت باليـةً حـين أدركـتُ أن لـديَّ الكثـير مـن مـال العربـون الـذي يُمكـن دفعـه كمقـدَّم لأقسـاط سـيارة أحـدث؛ سـيارة تسـتطيع تحمُّـل وزن صنـدوق الكتـب الثقيـل دون أي ضرر يلحـق بمكونـات "العفشـة".. سـيارة تُثـير إعجـاب إيفلـين وفريـق العمـل الـذي سـيكون تحـت إمـرتي، سـيارة تليـق بالشـخص الـذي سـأكونه أمـام محبينـي ومريدينـي. اتصلـت بإيفلـين لتُجيبنـي بقلـقٍ أن المعلومـات عـن هـذا "السـامح" ليسـت كثـيرة: فهـو شـاب في منتصـف العقـد الرابـع مـن عمـره، يمتلـك مصنعًـا هائـلًا للأسـمنت الـذي ينـوي

احتكار صناعته واستيراده قريبًا، يمتلكُ أكثر من قناةٍ رياضيةٍ واجتماعيةٍ من بينها قناة "الروح" التي تنتجُ برامج عن تفسير الأحلام وعلوم الفلك وخلافه من المصنفات الرخيصة رديئة الصناعة، وهناك شائعةٌ عن امتلاكه لدار "بصيص" التي يُديرها لطفي وجريدة أخرى تحمل نفس الاسم من الباطن.. قلقتُ كثيرًا حين أخبرتني أنها لم تجد له أي صورةٍ معاصرةٍ؛ فأحدث صورة مُلتقطة له كانت أثناء بداية عمله التجاري في بداية التسعينيات!

***

طال انتظاري أمام باب خالد، طرقتُ بابَه مرارًا وتكرارًا، ولكن صوت الأغاني كان أعلى من صوت استئذاني، بعد دقائق من الانتظار الغاضب هدأت الموسيقى فأعدتُ طرقاتي على باب خالد الذي ظهر بوجهٍ عابسٍ؛ لم يكن مرتديًا سوى ملابسهِ الداخلية التي كشفت عن زيادةٍ واضحةٍ في وزنه، حاول احتضاني ولكنني أبعدتُ ذراعيْه عني باشمئزازٍ مُستنكرًا رائحة الخمر التي تفوح منه؛ توقفت عن شربها بعد ما حدث لشكري، وتُبت عنها نهائيًّا بعد الحادثة. وجدتُ على مائدته الكثير من الطعام وكأسيْن بهما بقايا خمر، كما لمحتُ ملابس أنثوية ملقاةً بإهمالٍ على الأرض في الطريق المؤدي إلى حجرة النوم.. قلتُ له ساخرًا:

- خمـرة وحريـم وطبـق فاكهـة كبـير؟.. مـش ناقصـك غـير جـوز عبيـد يهـووا عليـك وتبقـى كافـر رسـمي!

ضحـك في خجـلٍ مصطنـعٍ، اسـتفسر باهتـمامٍ عـن حالـة شـكري الصحيـة.. اختـصرتُ عـلى نفـسي الكثـير مـن الحَـكي وأشـفقتُ عليـه مـن سـماع تفاصيـل مؤلمـةٍ قـد تفسـد حالتـه المزاجيـة؛ فأخبرتـه أنـه في خـير حـال وسـيخرج مـن المصحـة قريبًـا.. علـم أننـي أكـذب فتركنـي أسـتمر في خداعـه؛ كأننـا عقدنـا اتفاقًـا صامتًـا عـلى هـذا، سـألته عـن سـبب زيـادة الـوزن وتوقفـه عـن الذهـاب إلى جلسـات "الحـظ" لخدمـة السـكارى فأخـبرني أنـه عـرف طريقًـا جديـدًا للـمال.. نهضـتُ دون إذنٍ أطالـع مكتبتـه الكبـيرة التـي تحتـل جـزءًا كبـيرًا مـن بهـو شـقته الصغـيرة؛ أدركـتُ أنـه عـلى درجـةٍ عاليـةٍ مـن الثقافـة والاطـلاع.. كانـت المكتبـةُ منظمـةً برغـم الـتراب المتكـوم عليهـا؛ خصـص فيهـا قسـمًا للفلسـفة، وآخـر لعلـم الاجتـماع، وقسـمًا أصغـر للعلـوم الطبيعيـة والميتافيزيقـا.. لم ألمـح كثـيرًا مـن كتـب الأدب العـربي؛ فقـط روايـة واحـدة تحمـل اسـم الكاتـب "فـؤاد الغربـاوي".

أخـبرني أنـه سـيتوجه إلى المطبـخ لتحضـير القهـوة.. رافقتـه متسـائلًا في قـرارة نفـسي عـن المصـدر الحقيقـي للنعمـة التـي ظهـرت آثارهـا عليـه.. بـدأ يحـكي- كأنـه قـرأ أفـكاري- ناظـرًا إلى سـطح القهـوة أثنـاء غليانهـا:

- أنــا اكتشــفت إن أي حاجــة في مــصر ممكــن تخــسر إلا الســمسرة..

علَّقت ساخرًا:

- ودي اكتشفتها وأنت بتتسطل في أنهي قعدة؟

ضحك وأردف بجديةٍ:

- إنــت بتقــول فيهــا؟.. وغلاوتــك يــا أبــو يحيــى ده الــلي حصــل؛ كنــت قاعــد مــع رجــل أعــمال لسّــه راجــع مــن بــرَّه وبــادئ اســتثمار في مــصر، الراجــل بعــد مــا اتســلطن حــكى لنــا عــن مشــكلة عنــده مــع الجــمارك الــلي جايبــة منــه عيــال؛ خصوصًــا إنــه لسّــه جديــد عــلى الشــغل في مــصر، افتكــرت إن ابــن عمــي في الجــمارك كلِّمتــه طلــع مالــوش في الشــغل الشِّــمال.. بــسّ إداني معلومــة مهمــة بِعتهــا للراجــل..

صــبَّ القهــوة في فنجانــين، وأكمــل حديثــه أثنــاء خروجنــا مــن المطبــخ:

- قلــت للراجــل يعمــل جمعيــة خيريــة باســم حــدّ بيثــق فيــه، ولتكــن المــدام بتاعتــه مثــلًا، ويبتــدي يجيــب بضاعتــه مــن بــرّه تحــت اســم الجمعيــة وســجلاتها، وبشــوية فلــوس صغيريــن اللعبــة بتمــشي مــع الموظفــين، وكلــه برعايــة مؤسســات الدولــة.

قلـت بجديـةٍ إن بعـد فـترة قصـيرة سـتنتهي هـذه النفحـة التـي أخذهـا مـن رجـل الأعـمال، وسـيعود تابعًـا لمزاجـه.. ردَّ بـلا مبـالاةٍ:

- ما تخلص.. الفلوس معمولة عشان تتصرف.

ثم أردف ضاحكًا:

- بـس تعـرف يـا طحـاوي إن أول واحـد اخـترع فكـرة الفلوس ده كانـت دماغـه عاليـة وسـارحة منـه لبعـد البراميـل؛ راح طبـع ورق وفهِّـم النـاس إنـه قـادر يشـتري الأكل والـشرب والبـشر.. لأ والمغفلـين صدَّقـوا إن سـعادتهم في شـوية الورق دول وبقـوا يحاربـوا بعـض عليهـم!

- طــب والــلي يجيــب لــك مصلحــة فيهــا "شــوية ورق" كويســين؟

- أنـا عايـز أفضـل في الضِّـل، صحيـح الفلـوس رجَّعتنـي أدوق متعـة الحيـاة.. بـس مـش عايـز أدوق عذابهـا ولا أتمرمـغ في تـراب التفكـير!

وعدتـه بـأن يظـل مخفيًّـا عـن الأنظـار، حكيـت لـه بإيجـازٍ عــمَّا مــررتُ بــه خــلال الأيــام المنصرمــة، شرحــت لــه بإيجــازٍ الخطـة التـي رُسِـمت لي لتحقيـق أنسـب اسـتغلال لحادثتـي.. وبعـد تفكـيرٍ لم يـدم طويـلًا سـألني عـن المطلـوب منـه.. كانـت مهمتـه سـهلة: عليـه أن يجلـب فريـق عمـل صغـير السـن عـلى

قـدرٍ ملائـمٍ مـن التعليـم والتفكـير الإبداعـي؛ يقـوم بمطالعـة الكتـب التـي ابتعتهـا مـع اقـتراح كتـب أخـرى ومتابعـة بعـض الأفـلام الوثائقيـة ومقاطـع الفيديـو والبرامـج الأجنبيـة المُشـابهة لمـا سـنقدمه مـن محتـوى يهـدف للتلاعـب بعقـول النـاس، تحمَّـس حـين ذكـرتُ لـه الراتـب الـذي سـيتقاضاه كرئيـسٍ للفريـق، ووعـدني بجلـب الأشـخاص المطلوبـين بأبخـس الأثمـان.

تركتـه مـع وعـدٍ بلقـاءٍ قريـبٍ، عزفـتُ عـن التفكـير في أي شيء أثنـاء رحلـة عـودتي إلى طحـا، وَعَـدتُ نفـسي- كالعـادة- بحـمَّامٍ دافـئ يزيـحُ عـن كاهـلي إرهـاق اليـوم الطويـل، كنـت أعـرفُ جيـدًا أننـي لـن أسـتحمَّ إلا حـين الاسـتيقاظ كعـادتي، لم أرغـب في التفكـير أو تذكُّـر أيٍّ مـن أحـداث اليـوم.. ولكـن هاجسًـا في عقـلي ألـحَّ عـليَّ بالذهـاب إلى المقابـر بحثًـا عـن قـبر جـدي، وجدتـه أقـصى حـوش "آل الطحـاوي" كـما وُصِـف في دفـتر منصـور النحَّـات، عـلى نـور القمـر بـرز اسـم جـدي فـوق الرخامـة.. اسـوَدَّ العـالمُ أمامـي وطغـى ظـلام قلبـي عـلى الموجـودات مـن حـولي، ركعـتُ عـلى ركبتـيَّ أمـام اسـم جـدي المنحـوت مُسـتندًا بجبهتـي عـلى الرخامـة البـاردة التـي لم تشـعر بالنـار المُسـتعرة داخـلي، ارتجـفَ جسـدي حزينًـا خائفًـا دون أن تخـرج لي دمعـةٌ.. صرتُ ببسـاطةٍ عاريًـا في هـذه الحيـاة، إن جـاز التعبـير عنهـا بهـذا اللفـظ الظـالم لمـا أراه فيهـا، ليـت الطفولـة ترجـعُ يومًـا؛ كنـتُ أرتمـي في حضـن الكِبـار محتميًـا

مـن مخـاوفي.. لم أتوقـع أننـي سـأصيرُ يومًـا بـلا كبـارٍ، وسـأصبح أنـا أكـبر مخـاوفي!

خَفَـت نـورُ القمـر حـين حجبـه ظِـلٌّ طويـلٌ تكـوَّن أمامـي، حجبـت ملامحـه- التـي أعرفهـا تمامًـا- المكتـوب عـلى الرخامـة، نظـرتُ لصاحـب الظـل غـير مُصـدِّق، شـعرتُ أن عقـلي يعبـثُ بي ككُـرةٍ مـن المطـاط، ابتسـم رفعـت في هـدوءٍ وقـال بلهجتـهِ الساخرةِ المعهـودة:

- إوعى تغمِّي قلبك وتصدَّقهم يا ابن أحمد الطحاوي!

١٥

دَعْنِي أَنْخَدِعْ!

الجمعة 3 نوفمبر 2006

أتميـزني وسـط زحـام البـشر المُلتفـين حـولي؟.. ليـس مـن الطبيعـي هـذه المـرة ألا تعرفنـي؛ فأنـا الآن "الشـيخ" يحيـى الطحـاوي مُقـدم برنامـج "المـوءود"؛ البرنامـج الأشـهر عـلى الساحة. قـد يكـون شَـكلي تغـيَّر بعـضَ الـشيء؛ بعـد أن نبتـت لحيتـي الشـائبة قليـلًا لتُضفـي علـيَّ المزيـد مـن وقـار العلـماء بنـاءً عـلى اقـتراح سـامح أبـو خاطـر. لم أسـلك أيًّـا مـن تصرفـات "المشـايخ"؛ فلـم أحمـل السِّـبحة ولم أردد الأذكار بـين اللحظـة والأخـرى.. كنـتُ أرى في الأمـر حرمانيـةً زائـدةً عـن احتـمالي. مـرَّت ثمانيـة شـهور عـلى تحالفـي مـع ذلـك الشـيطان، ودخـول عـالم الرأسـمالية مـن البـاب الكبـير. بـدأ عـرضُ برنامجـي منتصـف شـهر مايـو المُنـصرم؛ في البدايـة تباينـتْ ردودُ أفعـال النـاس عـلى المحتـوى الـذي لم يكـن واضحًـا، ولكـن المشـاهدين

حسَّنوا منه حين رسموا لنا الطريق لخداعهم؛ في البداية كانت تأتيني الأسئلةُ والمداخلاتُ الهاتفيةُ بخصوص تجربتي مع الوأد، فخصصت ثلاث حلقات لهذه التجربة غافلًا جزء مرضي النفسي وتجربة أمجد؛ ذكرت أنني تعرضتُ للعنة من أحد الجان الذي جعلني أبدو ميتًا في عيون الناس وما أنا من الراحلين، وأنني وجدتُ طاقةً نورانيةً تحت الأرض أخبرتني أن اللعنة لن تمسني بضرٍّ لأن أجلي لم يأتِ بعد، وأن القبر قد فُتِح وحده دون أن ألمسه؛ فثمة طاقةٌ شعرتُ بوجودها جعلت مني شخصًا آخر، أو بمعنى أدق كيانًا آخر.. كذبة تبدو سخيفةً، ولكن الأسخف أن هناك من صدَّقها!

استهلكتني تلك الحلقاتُ الكثير من الجهد والحركات التمثيلية التي درَّبني عليها أخصائي تمثيل أمريكي أحضره لي سامح خصيصًا، أخبرني فيما بعد أن قصتي حقَّقت أعلى نسبة مشاهدة في تاريخ البرامج التلفزيونية. لم تتأثر نسبة مشاهدات البرنامج- عكس باقي البرامج- بحلول شهر رمضان ومسلسلاته التي تخطف المتابعين. مع الوقت أدركت قيمة شهور الإعداد التي قضيتها معتكفًا مع فريق العمل الذي أعدَّه خالد، الذي اكتشفت فيما بعد أنه مُصاب بالحرج الاجتماعي، كنا نسهر طويلًا عاكفين على القراءة والبحث في كافة الأمور التي قد نُمتَحن فيها أثناء بث البرنامج على الهواء.. تطلَّبت الكتب التي أتيت بها من الأزبكية الكثير من الوقت والجهد لقراءتها وتفسيرها، كما جاء أعضاءُ

الفريـق ببعـض الكتـب "السـحرية" الأخـرى التـي اعتقـدوا أنهـا مهمـة؛ فطالعنـا كتبًـا مثـل: "اسـم اللـه الأعظـم" و"شـموس الأنـوار" و"سـحر الكهـان" و"الفتـوح الربانيـة"، ونسـخة لم نعلـم مـدى صحتهـا مـن "شـمس المعـارف الكـبرى". سـاعدتنا تلـك الكتـبُ والمخطوطـاتُ وغيرهـا في مباحـث مختلفـةٍ عـلى إدراك المدخـل السـليم لعقـول النـاس، وكيـف نجعلهـم يبتلعـون الخرافـة ويعتنقـون في الخـدع.

ارتفعـت قيمتـي الماديـة والمجتمعيـة؛ بـدأ النـاس يطلبـون حضـوري في المناسـبات والعزائـم المختلفـة بمقابـلٍ مـادي لتحـلَّ عليهـم بركتـي المزعومـة، أصبحـتُ شـخصيةً عامـةً مطلـوب رأيهـا في كافـة الأمـور الدينيـة والدنيويـة، يجـب أن أبتسـمَ دائمًـا وأظهـر ودودًا، طالتنـي حمـلاتُ هجـومٍ مكثفـةٌ ولكـن أصواتهـا كانـت خفيضـةً، جاءتنـي مكالمـةٌ وحيـدةٌ مـن طليقتـي مـي لم أردَّ عليهـا لانشـغالي في العمـل، نجحـت عَلاقـات سـامح أبـو خاطـر في وأد كل الأصـوات المعارضـة لمـا أفعـل.. فيـما عـدا صحفيـة كهلـة تُدعـى "تهـاني درويـش" تُرسـل خلفـي الكثـيرَ مـن الصحافيـين الشـباب لالتقـاط أي غلطـةٍ أرتكبهـا، ومـن ثـم تكبيرهـا وتحويلهـا إلى زلـة.

مـع الوقـت اعتدنـا اسـتلهامَ محتـوى الحلقـة مـما يشـغل بـال العامـة؛ فـذاك رجـلٌ يؤمـن بالأبـراج يُوحـي إلينـا بتخصيـص حلقـةٍ عـن الفلـك، وتلـك ربـة بيـت شـاهدتْ حلـمًا سـخيفًا

تسـعى لتفسـيره، وفتـاة تسـأل عـن الجاثـوم الـذي تشـعر بلهيـبِ أنفاسـهِ ليـلًا، وطالـب يسـأل عـن كيفيـة تقويـة الذاكـرة مـن أجـل امتحانـات الثانويـة.. إلى آخـره مـن طلبـات العـوام الذيـن يبحثـون عـن العَـرَض مُتناسـين الـمَرَض. أدركـتُ أننـي حـين وافقـت عـلى عـرض سـامح قـد انطبقـت عـليَّ جملـةُ العبقـري عبـد المنعـم مدبـولي حـين قـال: "كنـتُ مغفـلٌ". انتهيـتُ مـن تصويـر الحلقـة قبـل الأخـيرة مـن الموسـم؛ والتـي كانـت عـن القريـن.

حـين انتهيـت مـن التصويـر قوبلـت- كالعـادة- بتصفيـقٍ عاصـفٍ مـن جميـع العاملـين في الأسـتوديو الواسـع المُزيـن بالعديـد مـن التحـف القديمـة مُفزعـة المنظـر؛ لم أعـرف يومًـا إن كان تصفيقُهـم لنجـاح مـا نُقدمـه مـع النـاس، أم مجـرد خـوفٍ منـي وتجنُّـبٍ لـردود أفعـالي التـي تفزعهـم حـين لا يسـير العمـل كـما ينبغـي. لكـن خالـد وقـف متجهـمًا في زاويـةٍ مـن "البلاتـوه" دون أن يُصفـق أو يقـترب لالتقـاط الصـور التذكاريـة معـي كالباقـين. مـن سياسـات البرنامـج التـي وضعتهـا مـع خالـد في البدايـة ألا نقـوم بعمـل أي خـدع صريحـة عـلى الهـواء أو ادِّعـاء أيـة قـدرات خارقـة لتجنـب قضايـا الدجـل؛ اكتفيـتُ بعمـل مثـل هـذه الخـدع في صومعتـي التـي اتخذتهـا في قريـة "طحـا" تاركـين الدعايـا لأفـواه النـاس والشـائعات المُتناقلـة التـي تُحيـل أي موقـف عـادي إلى حـدثٍ خـارقٍ للطبيعـة! توجَّهـت سريعًـا نحـو غرفتـي لتغيـير الملابـس، كانـت- عـلى رغـم صغـر حجمهـا-

أفخـم غرفـة في الأسـتوديو، لم أضـع فيهـا إكسسـوارات وتحفًـا مماثلـة لتلـك القابعـة في خلفيـة برنامجـي؛ لم أشـأ أن أصـدق أكاذيبـي التـي أبيعهـا للنـاس، دخـل الفـرَّاش بعـد اسـتئذانٍ ونحنحـةٍ واضعًـا كـوب اليَنسـون أمامـي بيـدٍ مُرتعشـةٍ، حيَّـاني بلقبـي الجديـد "مولانـا"، مـال عـلى أذني هامسًـا لأومـئ لـه بـرأسي، تـردَّد في الخـروج مـن الغرفـة حتـى أعطيتـه ورقـةً مـن فئـة المائـة جنيـه شـقَّت البسـمة عـلى وجهـه ونـثرت الدعـاء عـلى لسـانِه. مـا أعظـم أن يؤمـن بـك الأتبـاع؛ وقتهـا تكـونُ أموالـك مجـرد نفحـة رضـا يُمكـن الاسـتغناء عنهـا...

اقتحـم خالـد غرفتـي دون اسـتئذانٍ، صـب جـام غضبـه عـليَّ مُعلنًـا اسـتقالته مـن البرنامـج، حاولـتُ تهدئتـه ففشـلت، كان سـخطه عـلى محتـوى برنامـج "المـوءود" يتزايـدُ يومًـا بعـد يـومٍ؛ بـدأ بسلسـلةٍ مـن الاعتراضـات عـلى الحلقـة التاليـة لحلقـات حادثـة وفـاتي، وتزايـد مـع حديثـي عـن تفسـير الأحـلام وأمـور الفلـك، وتعاظـم بعـد حلقـة اليـوم.. لم أسـتطع فهـم اعتراضـه عـلى مـا أعددنـاه واتفقنـا عليـه معًـا.. نظـرتُ إليـه مليًّـا؛ حاولـت تفـرُّس سـبب اعتراضـه، طلبـت منـه بلهجـةٍ خانعـةٍ أن يجلـس لأحـاول إرضـاءه.. جلـس نصـف جلسـةٍ عـلى المقعـد المقابـل لمقعـدي المسـتقر أمـام مـرآة التسريحـة، منتظـرًا منـي أن أبـدأ الحديـث.. تعمَّـدت اسـتفزازه قائـلًا:

- مالك اليومين دول يا خالد.. تحب أقوم أرقيك؟

- إنت هاتبيع لي بضاعتي يا يحيى، ده إحنا دافنينه سوا!

حاولت تهدئته وامتصاص غضبه؛ فضحكتُ متسائلًا عمَّا إذا كان يعرفُ القصة التي زُعِم أن هذا المثل الشعبي قد جاء منها.. لم يرُد فأكملت حديثي ساردًا أصل المثل كما حُكِي لي:

- بيقول لك زمان كان فيه إتنين صحاب بيسافروا بالحمار بتاعهم من بلد للتانية، كانوا بيحبوه وبيعتمدوا عليه في كل حاجة وسموه "أبو الصبر".. مرة وهما مسافرين الحُمار وقع مات منهم؛ فدفنوه زي ما يكون صاحبهم بالظبط وقعدوا جنب قبره يعيَّطوا، وكل ما حدّ يسألهم يقولوا له: "أبو الصبر مات.. اللي كان بيهوِّن علينا السفر ويشيل حمولنا مات!" الناس افتكروهم بيتكلموا على وَلي عنده كرامات وبدأوا يعيَّطوا معاهم ويطلبوا البركة من "الشيخ" أبو الصبر. بنوا خيمة حوالين القبر، شوية والخيمة بقت أوضة والأوضة بقت مقام.. وفي مرَّة اختلفوا وهمَّا بيقسِّموا فلوس صندوق النذور اللي في المقام؛ فواحد منهم قال لصاحبه هاشتكيك للشيخ أبو الصبر...

قاطعني خالد قائلًا بفهمٍ:

ـ فطبعًا التاني قال له: "أبو الصبر مين؟.. ده إحنا دافنينه سوا!".. بس ماخدتش بالك يا طحاوي إن في حكايتك الناس طلعت في الآخر ماشيه ورا حُمار!

ضحكتُ ضحكةً مفتعلةً وابتلعتُ الإهانة مطمئنًا إياه أننا لن نصدق كذبنا، ولن نأكلَ في نفس المكان الذي نُخرج فيه فضلاتنا، طلبت منه الاستمرار معي حتى الحلقة القادمة التي ستكون آخر حلقة في الموسم سنين؛ هدم أساسات الوعي لدى الناس، وضربهم في آه.. أخبرني أن ما نفعله بمثابة مَوْضِعِ اللَبِنَة الذي يتمم للنظام الحاكم هيكل الأمية والجهل الذي يشيده منذ زمنٍ، واختتم حديثه بلهجةٍ عمليةٍ قلما أسمعها منه قائلًا إنه خرج عن اعتزاله الدنيا وعن باقي مبادئه بسبب المال ليس إلَّا.. كان تلميحُه واضحًا فأجبته أنني لن أستطيعَ أن أزيده من المال؛ فهو يقبضُ أضعاف طاقم العمل كله ويكاد راتبه يقترب من راتبي، ولكن إسرافه في الإنفاق على ملذاته التي أدمنها يخل بتلِّ الأموال التي يتقاضاها.. صرخ فيَّ أنه ليس مدمنًا؛ فلا هو يحك أنفه ولا يتهرَّش أمامي!

نهض غاضبًا معلنًا انتهاء الحوار، اتصلت على الفور بجبران الذي صار سائقي الخاص وأحد أهم مساعديني، طلبت منه مراقبة خالد وإرسال سائق سيارتي الأخرى كي يُقلني من الأستوديو. نظرت إلى صورتي مع خالد وطاقم

العمـل الأسـاسي أيـام الإعـداد لهـذا البرنامـج؛ كـم تغـير شـكله وازداد وزنًـا عـلى وزنـه، كـما زاد لمعـانُ بشرتـه السـمراء التـي كانـت خافتـةً باهتـةً فيـما مـضى. كـدتُ أغـادر الأسـتوديو قبـل أن أصطـدم بمعـاذ عصفـور الـذي حمـد اللـه أنـه لحـق بي قبـل أن أغـادر، عاتبنـي سريعًـا عـلى تجاهـل اتصالاتـه، أخـبرني أن قضيـة الحَجْـر المرفوعـة ضـدي سـيتم النظـر فيهـا بعـد غـدٍ ويجـب أن أجلـس معـه غـدًا للاتفـاق عـلى صياغـة المرافعـة المُثـلى للـرد عـلى حجـج أهـلي الكثـيرة، أخبرتـه بحـزمٍ أننـي في غنـى عـن مرافعتـه.. وليَقـضِ اللـهُ أمـرًا كان مفعـولًا؛ فأنـا لـن أحـضر الجلسـة مـن الأسـاس!

***

فـور وصـول خالـد إلى مقـر جريـدة "شـمس مصر" اسـتقبلته تهـاني درويـش رئيسـة التحريـر بنفسِـها، أدخلتـه مكتبهـا وسـط زحـامٍ مـن الصحافيـين الشـباب الذيـن يُدركون-بحكـم عملهـم- أهميـة خالـد كونـه ذراعَ يحيـى الطحـاوي الأيمـن وأهميـة انضمامـه إلى معسـكرهم في تحقيـق مسـعى رئيسـتهم في تقـصِّي حقيقـة المـوءود.. اندهـش خالـد مـن الشـهرة التـي ذاق طعمهـا لأول مـرةٍ في هـذا المـكان؛ فدائمًـا مـا ينـصرف النـاس عنـه لصالـح نجـم العـرض الأول: يحيـى.

طلبـت تهـاني مـن سـكرتيرها الشـخصي إحضـار أي مـشروبٍ يطلبـه خالـد، وأن يجلـب لهـا جهـاز التسـجيل الخـاص بإجـراء

الحـوارات الصحفيـة.. التقـط خالـد قلـمًا وورقـةً مـن فـوق مكتـب رئيسـة التحريـر، كتـب رقـمًا منـاولًا الورقـة إلى تهـاني التـي اندهشـت حـين عرفـت ثمـن رأس يحيـى الطحـاوي، وبعـد تفكـيرٍ قصـيرٍ أبـدت موافقتهـا ليعدهـا خالـد بتسـليم رأس حليفـه السـابق عـلى طبـقٍ مـاسِي.

وكأن تهـاني كانـت تنتظـرُ هـذه اللحظـة بفـارغ الصـبر؛ فأخرجـتْ ورقـةً ملخصـةً فيهـا أهـم الحـوادث التـي وقعـت عقـب ظهـور يحيـى عـلى السـاحة: بدايـة مـن خـبرٍ صغـيرٍ عـن حادثـة دفنـه بصـورةٍ خاطئـةٍ، مـرورًا بإعلانـاتٍ ترويجيـةٍ لكتابـه وبرنامجـه التلفزيـوني الـذي يعـرف فيـه معلومـات عـن المتصلـين دون أن يتحدثـوا مـع فريـق الإعـداد، وانتهـاءً بالـكلام المنشـور عـن قدراتـه غـير العاديـة التـي يظهرهـا داخـل صومعتـه في طحـا، وكيـف جعلـت النـاس يظنـون أنـه ولي صالـح.. وعدهـا بإخبارهـا الحقيقـة وراء أغـرب الشـائعات التـي طـاردت يحيـى، شـغَّلت المُسـجِّل ونظـرت في الورقـة التـي أمامهـا وقالـت:

- عـلاج شـاب مـن مَـسِّ الجِـن، عمـل أحجبـة محبـة، فرقـة الكـورة الـلي كسـبت النهـائي بعـد زيارتـه للنـادي، اسـتعادة صنـدوق النـذور المـسروق مـن مسـجد قريتـه، إعطـاء دور بطولـة للفنانـة نانـا الحفنـاوي برغـم إن المخـرج كان رافضهـا وشـايفها أكـبر مـن الـدور بعـشر سـنين.. إزاي عمـل كل ده؟!

اعتدل خالد في جلسته وبدأ يسترسلُ في حديثه قائلًا:

- بالنسبة للبرنامج.. فالإنتاج كان موفر لنا موظفين بيشتغلوا في شركات المحمول بياخدوا الأرقام ويجيبوا لنا بيانات أصحابها قبل ما يحيى يكلمهم، والخط اللي مش متسجل على الكنترول ما بيدخلوش على الهوا من أساسه.. تفسير الأحلام والأبراج بيكون اجتهاد وذكاء شخصي من يحيى؛ كده كده فيه حقايق ثابتة في حياة كل واحد وصفات مشتركة لكل الناس.. بيلعب عليها لحدّ المتصل ما يفضح أي جزء من شخصيته، ما تنسيش إن في الشهور اللي فاتت يحيى بقى عنده مخزون ثقافي كبير في مجالات زي الفراسة وعلم النفس وتفسير الأحلام، ده غير ذكائه الشخصي وتأثير التجربة اللي مرّ بيها عليه.

أشارت إليه أن يستمرَّ في الحديث، فأردف قائلًا:

- موضوع المَسّ ده كان مجرد شاب فقير مصابٍ بالصَّرع، حدّ من فريق الإعداد عرض عليه تحمل إنتاج البرنامج لتكلفة العلاج كاملة مقابل إن أول ما تيجي له النوبة يكلم الطحاوي ويتقابلوا في الصومعة ولمّا النوبة تخلص يخرج هو وأهله يدعوا ليحيى ويحكوا لكل الناس عن اللي حصل، الناس هناك مؤمنة بيحيى فوق ما تتخيلي، فإيمانهم بيخليهم يصدّقوا كل حاجة.

وما حـدّش طلـب مـن يحيـى أحجبـة محبـة غـير شـاب اسـمه جـورج، بـس أقنعـه إن البنـت الـلي عينـه عليهـا مـش هاتسـعده في حياتـه.

- مسيحي راح لدجَّال مسلم؟!

- الجهل مالوش دين.

- واقتنع؟

- مـا بتشـوفيش الطحـاوي في صومعتـه بيكـون عامـل إزاي؛ غـول بعيـد عنـك، أنـا نفـسي سـاعات بأصدقـه.. بـس موضـوع الفنانـة ده بقـى اتحـلّ مـن فـوق؛ يحيـى كلـم سـامح أبـو خاطـر وقـال لـه إن الموضـوع ده هايفـرق معاه وهايشـهره في وَسَـط مهـم، وفجـأة المخـرج اتغـير ونانـا بقـت البطلـة!.. وفيـه حاجـات بقـى لسّـه مـا فهمتـش عملهـا إزاي.

لم تخـبره أنهـا سـتحذف الجـزء الـذي تحـدَّث فيـه عـن سـامح أبي خاطـر.. وسـألته باهتـمامٍ:

- زي موضوع فريق الكورة؟

هزَّ رأسه نافيًا وقال بحيرةٍ صادقةٍ:

- ده ممكـن يكـون حـظ.. بـس أنـا قصـدي عـلى الحادثـة الـلي شـهرته مـن الأسـاس؛ لمـا الدكتـور وكل النـاس قالـوا إنـه ميِّـت ودفنـوه.. إزاي رجـع تـاني؟!

***

دخلـتُ جريـدة "شـمس مـصر" وسـط دهشـةٍ ورهبـةٍ مـن جميـع العاملـين بهـا، لم يجـرؤ أحـدٌ عـلى اعـتراض طريقـي، فكَّـر السـكرتير في النهـوض كي يسـبقني إلى مكتـب تهـاني محـذرًا، ولكـن إشـارةً واحـدةً مـن إصبعـي منعتـه وجعلتـه يُؤْثـر السـلامة.. اقتحمـتُ غرفـة المكتـب والتقطـت أذنـاي جملـة خالـد "كل النـاس قالـوا إنـه ميـت ودفنـوه.. إزاي رجـع تـاني؟!".. لم يكـن خائفًـا مـن "الشـيخ الطحـاوي" بقـدر فزعـه مـن رؤيتـه في هـذا الموقـف مـن قِبَـل "صديقـه" يحيـى.. نهـض مناديًـا باسـمي فـأشرتُ إليـه بـأن يصمـتَ ويجلـسَ، كذلـك أشرت لتهـاني أن تفعـل، جذبـت أقـرب مقعـدٍ وجلسـت معهـما قائـلًا:

- عايزة تعرفي رجعت إزاي يا مدام تهاني؟!

قالت تهاني مُعترضة:

- آنسة من فضلك.

نظرتُ إليها من أعلى إلى أسفل وضحكتُ قائلًا:

- حلـو ده.. نسـيب الـسر الـلي محـيِّر سـبعين مليـون نَسَـمة ونشـوف الهانـم مـا اتجوزتـش ليـه!

سـألني خالـد عـن سرِّ عـودتي بتحـدٍّ واضـحٍ مُتناسـيًا موقفـه الضعيـف المُتخـاذل.. جذبـتُ جهـاز التسـجيل مـن يـد تهـاني عَنـوةً، اعترضـتْ عـلى فعلتـي ولكنهـا تجنَّبَـت لمـسي.. وضعـتُ

المسجل في جيبي بمنتهى الهدوء، قلتُ بعد أن اتسعت عيناي ونظرتُ إلى خالد:

- جاي أنقذك من نفس مصيري اللي حوَّلني للشيء اللي قدَّامك..

بدت الحيرةُ على كليهما، أكملتُ حديثي بعد أن أدركتُ أنني قد ظفرت بكامل الاهتمام:

- جِن كافر مطرود من عشيرته؛ أقنع قريني إنه يخليني أبان ميت للناس وأنا واعي للي بيحصل ومش قادر أغيَّره.. لعنني بأقذر لعنةٍ ممكن حدّ يتلعنها، ولولا رحمة ربنا مكانش زماني وسطكوا.

ضحك خالد قائلًا إنني قلتُ نفس الحديث الكاذب في البرنامج، قال لي: "إلعب غيرها يا شيخ".. رددتُ بجديةٍ دون أن أرمش:

- أنا مش جاي ألعب، وكنت بحاول أفهِّمك قبل ما تسيبني وتمشي...

نهضتُ من مكاني، لمحتُ تهاني تتراجع في مجلسها خائفةً، أمسكتُ بكتفيْ خالد قائلًا بجدية:

- أنا عايز ألحقك؛ نفس الجن بيحاول يقنع قرينك إنه يكرر نفس اللعنة عليك، وتقريبًا قرينك وافق!

ضحك خالد وردد كلامًا من نوعية أنه لن يشتري الوهم، وأن بضاعتي صارت خاسرةً.. لم أرد. استغلَّت تهاني صمتي وعلا صوتُها مُنادية العاملين بجريدتها الواقفين خارج غرفة المكتب مُترددين بالدخول.. لم أبدِ أي ردة فعل.. هددتني إن لم أرد لها جهازها وأرحل فستطلب لي الشرطة فابتسمت لها بهدوءٍ.. نظرتُ إلى خالد الذي لم ينبس حرفًا منذ دقائق، تصبَّب عرقًا مُمسكًا موضع قلبه يُحاول الاستنجاد من شدة الألم فخرجت صرخاتُه فحيحًا، ظل هكذا حتى انقطع نفسُه.. وسقط على الأرض في الحال.

١٦

كُلُّ حُلَفَائِكَ..

الأحد 5 نوفمبر 2006

نظـرتُ لسـاعة يـدي الباهظـة منتظـرًا إيفلـين في المطعـم الـذي اعتدنـا اللقـاء فيـه مـن آنٍ إلى آخـر، كـم تطـورت عَلاقتنـا سريعًـا بعـد العمـل معًـا، سـاعدتني معنويًّـا وعلميًّـا في تكويـن شـخصيتي الجديـدة التـي أُخفيهـا الآن خلـف نظـارةٍ سـوداء أطالـع مـن خلفهـا الجالسـين داخـل المـكان؛ كان عددهـم غـير كثـيرٍ بحكـم التوقيـت الـذي جـاوز الظهـر قليـلًا، كـما لعـب غلـو المـكان عامـلًا مُسـاعدًا في خلـوه. في بدايـة شـهرتي كان اللقـاء يتـم في أماكـن عاديـة؛ فـلا نسـتطيعُ إتمـام جُملـةٍ واحـدةٍ دون مقاطعـة المتطفلـين الذيـن يطلبـون منـي البركـة أو التقـاط الصـور التذكاريـة أو استشـارة في أيٍّ مـن مشـاكلهم البغيضـة.. تلـك التـي تُشـبه رائحـة أنفاسـهم وعَرَقهـم المكتـوم حـين تداهمنـي أثنـاء تقبيلهـم لي بـلا داعٍ. أثـار تقبيـل الرجـال

وعناقهـم الطويـل لبعضهـم البعـض اندهـاش إيـف في بدايـة تعرُّفهـا عـلى طبائـع المصريـين حـين أقبلـت أول مـرةٍ بصحبـة زوجهـا السـابق.

لمحتهـا خـلال واجهـة المطعـم الزجاجيـة تُحاسـب سـائق السـيارة الأجـرة وتُجادلـه في قيمـة التعريفـة؛ أعتقـد أنهـا ورثـت هـذه العـادة مـن أمجـد الـذي كان يكـره أن يطلـب النـاس أكـثر مـن حقهـم. طلبـتُ مـن النـادل قائمـة الطعـام، نظـر كلٌّ منـا في خاصتـه.. بـدأتُ مؤخـرًا أنظـر إلى الرقـم المقابـل للصنـف قبـل معرفـة مكوناتـه؛ فـإذا كان السـعر كبـيرًا لفـت انتباهـي إلى الخانـة المقابلـة. لم تفتـح إيـف القائمـة الموضوعـة أمامهـا مـن الأسـاس، طلبـتُ لكلينـا نفـس الوجبـة، سـألتها عـن الأكلات في بيئتهـا الأم فجاءتنـي إجابتُهـا مُقتضبـةً؛ لم أعـرف إن كان لجهلهـا بالمطبـخ الألمـاني، أم لقلـة مأكولاتـه وضعـف جودتهـا. حاولـتُ ثانيـةً إبعـاد دفـة الحديـث عـما تنشـد فلـم أفلـح.. عاجلتنـي بحديـثٍ غاضـبٍ قائلـةً بصـوتٍ حاولـتْ خفضـه إنهـا تتعجَّـب مـن عـدم مبـالاتي وفتـوري التـام تجـاه قضيـة الحَجْـر؛ التـي سـينطق الحُكـم النهـائي فيهـا بعـد قليـلٍ، سـألتني عـن السـبب الحقيقـي وراء عـدم حضـوري الجلسـة في المحكمـة، لم تنتظـرْ إجابتـي؛ اتهمتنـى بالسـلبية والتقاعـس.. لم أحـاول الدفـاع عـن نفـسي.. أخبرتنـي أننـي أدمنـتُ الشـعور بـدور الضحيـة التـي لا تُريـد التمـرد عـلى الظلـم الواقـع عليهـا؛ ليظـل حجـة تُـبرر بهـا جميـع إخفاقـات الحيـاة.

نظرتُ مباشرةً إلى عينيْها وقلتُ مُبتسمًا:

ـ تعرفي إنك لما بتكشَّري عليّ بتكوني حلوة؟

أشـاحت بوجههـا في الجهـة الأخـرى دون أن تـرد، فقلـتُ مُـبررًا:

ـ مـش هـاروح أقـف قـدام عيلتـي في المحاكـم، وبالـذات ناجـي؛ مهـما عمـل هايفضـل أخويـا.. بعديـن عارفـة الصحافـة لـو شـمِّت خـبر زي ده ممكـن يحصـل إيـه؟

اسـتمرَّ تجاهلهـا، فأردفـتُ قائـلًا إن الفضيحـة سـتصل إلى شاشـات التلفزيـون؛ سـينتهز المتربصـون بي مـن المنافسـين الفرصـة لعمـل حلقـاتٍ كاملـةٍ عـن القضيـة مُسـتضيفين أقـاربي في برامجهـم.. سـألتني عـمَّا سـأفعل إن خـسرتُ القضيـة وخسرت معهـا كل أمـوالي.. قلـتُ لهـا بهـدوءٍ:

ـ معـاذ عصفـور قـال لي إنـه- عـلى سـبيل الاحتيـاط- قـدر يسـتغل ثغـرة في حـصر ممتلـكاتي، وجـاب لي شـيك بتاريـخ قديـم عشـان أكتبـه باسـم أي حـدّ بأثـق فيـه يقـدر يرجعـه لي بعـد القضيـة لـو خـسرت كل حاجـة.

سـألت إيـف بقلـقٍ عـن اسـم المسـتفيد مـن الشـيك.. فأجبتُهـا مُبتسـمًا أنـه مكتـوبٌ باسـمها.. حاولـت إخفـاء ابتسـامتها الخجولـة، تسـاءلت بلهجتِهـا المكـسرة:

ـ للدرجة دي وثقت فيّا؟

ـ للدرجة دي حبيتك.. حبيتك عشان إنتي الأنثى الوحيدة اللي ما بكونش مصطنع معاها؛ ما بفكّرش في كلام أضحكك بيه، ولّا بأحكي مواقف من خيالي تبيّن لك رجولتي.. ما بحاولش أكون حدّ تاني.

ضَحكتُ في خجلٍ قائلًا:

ـ أقول لك على سرٍّ؟.. أنا عُمري ما شفطت كرشي وأنا معاكي!

ضحكت ضحكة طويلة بادلتها بأخرى، كانت على علمٍ بحبي لها منذ اليوم الذي جعلتها تُرافقني إلى طحا؛ حاول بعضُ النسوة مضايقتها بنظراتهن وكلماتهن الجارحة التي قيَّمت إيف من ملابسها الضيقة وشَعرها الأحمر فاتح اللون الذي يلمع كخيوط الشمس وقت الشفق. اصطحبتها إلى المنزل غير عابئ بنظرات البعض، تجنَّبت دعوات قريباتي كي أزورَهن، كما حذرتُ إيف من التعامل مع إحداهن بشكلٍ مباشرٍ؛ فقد تعلَّمت من زواجي الأول قيامهن ببعض الأعمال والأحجبة السحرية التي يعكفون على دسِّها في الطعام أو الشراب المُقدم أو بين ثنيات الملابس والأثاث، أدخلتها غرفة النوم التي ورثتها عن أبي، وأطلعتها على أعظم ممتلكاتي: صندوق العطور الذي أحتفظ به منذ وفاة أبي وأمي، أحتفظ داخله بزجاجاتِ العطر التي كان يستعملها كل أحبائي الراحلين فأستنشقها حين أشتاق إليهم.

سألتني إيف عن نتائج التركيبة التي وضعتها لخالد في مشروبه أثناء وجوده في الأستوديو، أخبرتها أن مفعول التركيبة بدأ في الميعاد الذي كنتُ أرغبُ فيه تمامًا.. فحملتُ خالد مُسرعًا بمعاونة السكرتير داخل سيارتي مُقْنعًا تهاني أنني سأتوجه به إلى أقرب مستشفى، تعمَّدت أن أصطحبها معنا في السيارة. أخبرتُ إيفو أن حسابها لوقت بداية عمل التركيبة الثانية كان دقيقًا إلى حدٍّ كبيرٍ؛ فحين أدركتُ أن لحظة الإنعاش اقتربت.. توقفت على جانبِ الطريق، أمسكتُ برأس خالد الساكن تمامًا، لم أعبأ بصرخاتِ تهاني الآمرة بأن أسرع نحو المستشفى.. تلوتُ عليه بعض الكلمات المنمقة المختلطة ببعض آياتٍ من القرآن، أعدتُ كلماتي عليه ونوَّعت في نبرة صوتي وأدائي، ازداد الجوُّ سخونةً وتصبَّبت جبهتي عرقًا بعد أن تعمَّدت إطفاء مكيف هواء السيارة وإغلاق الشبابيك.. بدأت التركيبة الثانية تُظهِر كراماتها على خالد الذي ارتجف رجفةً أعرف أعراضَها جيدًا مذ أن راودتني تحت الأرض.. استجاب خالد للتركيبة وعاد مفزوعًا لاهث الأنفاس. صرخت تهاني كاشفةً عن أسنانٍ صفراء وبَدَأتْ تستعيذُ بالله مما رأتْ، طلبت مني العفو على افترائها في حقي.. أشفقتُ عليها، ولكن وجب عليَّ أن أتقن دور الشرير الذي أحببته؛ قلتُ بلهجةٍ رصينةٍ مُهدئًا من روْعها إنه لم يمت في الحقيقة؛ فلَعْنته أعمت بصيرتنا عن حياته كي يواجه مصيرًا

مُشـابهًا لمـا واجَهتـه، لعنـتُ اسـمًا مـن أسـامي زعـماء الجـان أمامهـا حتـى أُطعمهـا كذبتـي.

ضَحكـَت إيـف، حاولـت الأكل بشـهيةٍ متناسـيةً القضية التي ننتظـر معرفـة الحُكـم فيها؛ وعـدني معاذ أن يتصـل بي فور النطق بـه.. أخبَرَتنـي بقلـقٍ أن بحثهـا عـن عـلاج مـن آثـار التركيبـة لا يـزال جاريًـا.. قلـتُ لهـا إننـي أثـقُ في نجاحهـا تمـام الثقـة؛ وإلا مـا أعطيـتُ التركيبـة لخالـد مُعرِّضًـا حياتـه للخطـر، فكـرتُ قليـلًا ثـم سـألتها عـن أحـلى بلـد زارتهـا في حياتهـا.. أجابتنـي أن الهنـد كانـت الأجمـل، سـألتني نفـس السـؤال.. خجلـتُ مـن إخبارهـا أننـي لم أغـادر مـصر طـوال عمـري؛ فأجبتُهـا مراوغًـا:

- أحلى مكان زرته؟.. عينيكي طبعًا.

ضحكـت قائلـةً إننـي تعلَّمـتُ المُجامـلات والتملُّـق عـلى كِـبر.. لم أردّ، فكـرتُ قليـلًا ثـم قلـتُ مُفاجئًـا:

- أنـا بقـالي فـترة بفكـر أهاجـر بـرَّه مـصر، وبـدأتُ إجـراءات لكـده فعـلًا؛ عايـز أبـدأ حيـاة جديـدة مـع نـاس مـا تعرفنيـش ولا تعـرف حكايتـي.. تحبـي تهـربي معايـا؟

***

اعتـاد معـاذ العمـل تحـت أسـوأ الظـروف والخـروج منتـصرًا مـن أضيـق الثغـرات بأضعـف حجـج التي-غالبًـا- لا يُصدقهـا طفـل، ولكـن القانـون لا يعـترف إلا بالمسـتندات التـي قـد تدعـم

أو تهدمُ منطق القضيـة.. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي يرفـضُ فيهـا المـوكل الحضـور أو حتـى مسـاعدة الدفـاع عـلى تقديـم البراهـين اللازمـة لإبطـال الادعـاء. وقـف ناجـي في فخـرٍ طفـولي كالتلميـذ الـذي أفحـم أسـتاذه؛ تذكَّـر لحظـة تقدُّمـه للتدريـب والعمـل في مكتـب معـاذ وسـط مئـات غـيره مـن الطامحـين في وظيفـةٍ مـع واحـدٍ مـن أشـهر محامـيي مـصر، طالمـا رأى ناجـي في معـاذ عصفـور إلهامًـا لمـا يُريـد أن يكونـه؛ فعصفـور لُفِـظَ من سـلك القضـاء ليعـود إلى منظمـة العدالـة أقـوى مـما كان؛ مرتديًا روب المحامـاة.. تمـر الأيـام ويتألـق في زيِّـه الجديـد، يذيـع صيتـه فيخشـاه الجميـع متجنِّبـين بـذاءة لسـانه الطعَّـان الـذي يتلفـظ بألعـن الألفـاظ، وعقلـه المنتبـه للكثـير مـن ثغـرات القانـون.

كانــت غرفــةُ الجلســة السريــة بســيطةً قليلــة الأثــاث.. ووقـف أمـام القـاضي كلٌّ مـن ناجـي وعطـوة ونرجـس في جهـة، ومعـاذ عصفـور مـع أحـد مسـاعديه في جهـةٍ أخـرى، كان مصـير القضيـة واضحًـا في عيـون جميـع الواقفـين، لدرجـة أن سـاعي المحكمـة أدرك وهـو يضـع القهـوة الخاصـة بالقـاضي أن الكفـة سـتميل نحـو الطحاويـة حـين رأى نظراتهـم، وقارنهـا بالقلـق البـادي عـلى مسـاعد معـاذ الـذي كان يقضـم أظافـر يـده. تقـدَّم ناجـي بالمذكـرة الـوارد بهـا كل مـا يُقـوِّي ادعـاءه بعـدم أهليـة يحيـى للتـصرُّف في ممتلكاتـه؛ بدايـةً مـن شـهادته بحُكـم كونـه أخ المُدَّعـى عليـه والأجـدر بالتـصرف في أملاكـه، مـرورًا بشـهادة كل مـن عطـوة الـذي حـضر ليؤكـد شـهادته شـفهيًّا، وشـهادة

فرحـات الـذي رفـض المجـيء مُكتفيًـا بالتوقيـع عـلى مـا كتبـه ناجـي، وشـهادة نرجـس مُرفقًـا معهـا تقريـرًا طبيًّـا للإصابـات التـي أحدثهـا يحيـى بجسـدها مثبتـةً بتاريـخ بعـد حادثـة الدفـن، وبعـض شـهادات أهـل القريـة الذيـن أقـرُّوا بأنهـم يسـتمدون البركـة ويلتمسـون الفـرج مـن يحيـى أثنـاء مكوثـه في صومعتـه، إضافـة إلى بعـض حلقـات برنامجـه التـي يقـرُّ فيهـا بنفسـه بالواقعـة المؤلمـة التـي حدثـت لـه وكيـف أثَّـرت عليـه وعـلى نظرتـه للأمـور الدنيويـة.. طعـن عصفـور في كل الشـهادات لأن أصحابهـا منتفعـون مـن الحَجْـر وخاصـة ناجـي، واضعًـا خـبر اقـتراب غلـو سـعر الأرض أمـام عـين القـاضي.. ولكـن ناجـي الطحـاوي حسـم القضيـة سريعًـا واضعًـا اسـمه وسـط محامـي الصـف الأول في مـصر؛ فأخـرج شـهادةً مكتوبـةً بخـط يـد الضابـط الـذي أقـرَّ فيهـا أنـه حـين أتى المنـزل وجـد يحيـى يسـأل عـن جـده الـذي تُـوفي منـذ زمـنٍ بعيـدٍ مُتحدثًـا عنـه بصيغـة الأحيـاء!

طلـب ناجـي الإذن لدخـول الصحافيـة تهـاني درويـش التـي أخبرتـه بـأن لديهـا مـا تُـدلي بـه في القضيـة، فوجـئ بدخـول تهـاني بصحبـة فرحـات وبعـض مـن الأقـارب ليحيـى وأهـل طحـا في منظـرٍ أثـار غضـب القـاضي.. أصرَّ عـلى طردهـم لـولا أن مسـاعد معـاذ عصفـور أكَّـد لـه متوسـلًا أن وجودهـم سـيُحول مجـرى القضيـة.. شـهد جميعُهـم برجاحـة عقـل يحيـى الـذي لم يسـأل أحدهـم مـالًا ولم يأخـذ إن عُـرِض عليـه، بـكى فرحـات

مُذكرًا عطوة وناجي من جزاء شاهد الزور عند ربه، لاعنًا المرض والعَوَز الذي أحوجه إلى القدوم على مثل هذه الفعلة، ترحَّم على المهندس أحمد رفعت الطحاوي الذي كاد أن يظلم أولاده لصالح أخيه؛ وكأن الزمنَ يُعيد نفسه ويختبره من جديدٍ.. فرفض هذه المرة الفشل في الاختبار، أخبر القاضي أن العُمر لم يعد فيه وقتٌ للاستغفار والتكفير عن ذنبٍ بهذا الحجم. بحركةٍ خفية وضعت تهاني ورقةً صغيرة الحجم في يد نرجس في ظل دهشة الأخيرة.. عادت الحياةُ إلى معاذ الذي استغلَّ الموقف وسأل القاضي سعة الصدر لسماع المزيد من الشهادات.. طلب ناجي من تهاني مُترجيًا أن تسرد على القاضي ما توصَّلت إليه من خلال تحقيقاتها الصحفية المستمرة عن يحيى؛ فردَّت بصدقٍ أنها وجدت في يحيى قدراتٍ تفوق البشر، وأنها تختلفُ مع طريقته في العمل ولكنها تؤمن مطلقًا بأنه شخصٌ على قدرٍ كافٍ من رجاحة العقل والكفاءة المُطلقة لإدارة أملاكه، لم تذكر تفاصيل الموقف الأخير الذي جمعها به ولكنها لمحت إليه تلميحًا لم يستوعبه خيالُ القاضي.

جاءت الضربةُ الأخيرةُ حين احترق معسكر ناجي بخيانةٍ من نرجس؛ التي بكت معترفةً أن يحيى ضربها لسببٍ وجيه تتمنى أن يسامحها الله عليه، وأن الضرب تم قبل حادثة دفنه عكس المذكور في التقرير الطبي. فتح ناجي أزرار بدلته وعدَّل قليلًا من وضع رابطة عنقه لأسفل.. جفَّ

ريـقُ عطـوة ولم يجـد مـا يقولـه.. أصرَّ ناجـي عـلى ادعائـه الـوارد في مُذكرتـه الورقيـة مُحكمـة الصياغـة.

طلــب القــاضي مــن الجميــع الخــروجَ، وقــد بــدا عليــه الضجـرُ مـن الطريقـة التـي انتهـت إليهـا الأحـداثُ؛ فقـد أخـذت وسـتأخذ الكثـير مـن وقتـه، فهنـاك تـلٌّ مـن القضيـة التـي نظـر فيهـا قبـل هـذه، وتـلٌّ مماثـلٌ بعدهـا تحتـل أرقامـه "رول" الجلســة. انتهــى القــاضي مــن النظــر في مســتجدات القضيــة سريعًـا، واسـتدعى ناجـي وعصفـور عـلى انفـرادٍ، أعلـن عليهـما مـا آل إليـه قـرارُه وارتـاح إليـه ضمـيرُه في تحقيـق العدالـة: فقــد حكمــت المحكمــة- بعــد الاطــلاع عــلى الأوراق وســماع الشـهادات ومـا إلى ذلـك مـن ديباجـة النطـق بالحكـم- ببطـلان دعـوى الحَجْـر المُقامـة مـن ناجـي الطحـاوي عـلى أخيـه يحيـى الطحــاوي، وتكليــف الأول بأتعــاب المحامــاة.

***

أمــرتُ جــبران أن يســتقل ســيارة أجــرة تُعيــده إلى منزلــه بعـد أن ابتـاع لي زجاجـة ميـاه معدنيـة وبعضًـا مـن الحبـوب المُسـكنة لتقـاومَ آلام ظهـري التـي حلَّـت بي بعـد الحادثـة ولم أعتــدْ عليهــا بعــدُ، كــما لم أعتــد ضعــف بــصري الــذي صعَّــب عــليَّ القيــادة ليــلًا. توجَّهــتُ إلى ترعــة القريــة حيــث أقــضي أمســياتي مؤخــرًا؛ تجنُّبًــا لصحبــة النــاس، ومــلاذًا يحمينــي مــن الهـلاوس المتعلقـة بظهـور جـدي رفعـت- الـذي بـدأتُ أعـترفُ

برحيلـه- في محيـط المقابـر. وجـدتُ مـلاذي المزعـوم في صفحـة المـيـاه الصافيـة؛ ألقـي فيهـا الحـصى وأشـاهد اختفاءهـا تاركـةً خلفهـا موجـاتٍ اهتزازيـةً يقـل ترددهـا في ثـوانٍ حتـى يختفـي، ليعـود سـطح المـاء أملـس كـما كان. شـعرتُ بحركـةٍ مـن خلفـي، لم أعبـأ بهـا كـما اعتـدتُ مؤخـرًا ألا أهـاب ولا أبـالي لأي خطـرٍ بـشري مُحتمـلٍ؛ فقـد تولَّـدت عنـدي هالـةٌ مـن الرهبـة التـي تقينـي شرَّ هـؤلاء.. ألقيـتُ الحجـر في المـاء لأسـمعَ صـوت رفعـت الـذي افتقدتـه يقـول:

- طـول عمـرك غشـيم وبترميهـا غلـط؛ ميِّـل إيـدك عـلى جنـب وارميهـا بعـرض الترعـة؛ بحيـث تمـشي أكـبر مسـافة مُمكنـة في الهـوا.. عشـان الزلطـة تدخـل الميـة وتطلـع كـذا مـرة.

نظـرتُ إليـه دون أن أردَّ، حاولـتُ التفكـير في شيءٍ آخـر يصرفنـي عـن تلـك الحالـة الذهانيـة التـي تُطـاردني؛ سرحـتُ في أحـداث اليـوم حـين جـاءني اتصـالُ معـاذ عصفـور المنبهـر بمـا حـدث داخـل قاعـة المحكمـة.. أظـن أنـه قريبًـا سـيُصبح مـن دراويـشي وسـيكف عـن امتصـاص خُمـس ثـروتي أتعابًـا لـه. قلتهـا لـه ولخالـد مـن قبلـه: "أهـم شيء هـو إيمـان مـن حولِـك بـك.. فـإذا آمنـوا أصبحـوا خاتمًـا في إصبعـك تحركـه كيفـما تشـاء، وصـاروا مُريديـك وطـوع كلمتـك ورهـن أقـل حركـة تصـدر عنـك".

حدَّثني عصفور عن الانقلاب المفاجئ في مجريات القضية قبل النطق بالحكم بلحظاتٍ، تعجَّب من عدم قدوم خالد للشهادة ضدي كما ادَّعى ناجي، استفسر عن محتوى الورقة التي ناولتْها تهاني لنرجس؛ والتي كانت سببًا في قلب موازين الأمور من داخل مُعسكر الطحاوية.. أخبرته أنني أرسلتُ لنرجس جملةً واحدةً بخط يدي الذي تعرفُه جيدًا منذ أن كنتُ أمحو أميتها: "ما فيش مصراوي بيتجوِّز فلاحة"، وأن خالد طلب مني الفراق النهائي بعد أن صار يخشاني بحق. أخبرني ببهجةٍ طفوليةٍ أن هذه أغرب قضية مرَّت عليه في تاريخه.. جعلته يُقسم على ألا ينشر أي تفصيلة منها للصحافة كما طلبتُ من تهاني، فاستجاب بصدقٍ دون تفكيرٍ، وصف منظر ناجي وعطوة بعد الحُكم بالمثل الشعبي: "اتلم المتعوس على خايب الرجا"...

- هاتفضل عامل نفسك مش شايفني وعامي عينك عن الحقيقة؟!

نظرتُ إلى رفعت، مُترجيًا أن يختفي من أمامي؛ فلترتحْ روحُه في مسكنها عند ربِّها، ويكفّ عن زيارتي قاطعًا علاقته بعقلي الباطن المتوقف عند وفاته التي أنكرتها صغيرًا كما يُقر ناجي وعطوة وتؤكد جميع الدلائل كلامهما. صرخ فيَّ أنه حقيقي وليس محض وهم، نظر إلى السماء في حيرةٍ، ثم سألني بعصبيةٍ بعد برهةٍ من التفكير:

ـ أنا عُمري ضربتك أو مديت إيدي عليك؟

هـزتُ رأسي نافيًـا دون أن أنظـر إليـه، فقـال بنفـسٍ لهجتـه الغاضبـة بعـد أن صفعنـي صفعـةً مؤلمـةً سرت بهـا الرجفـةُ في أعصـاب وجهـي كلهـا:

- طب أديني ضربتك!

أتى بصنـدوق فرحـة الـذي لم ألحـظ مـن البدايـة أنـه كان يحملـه، جلـس بجـواري ليواجـه الترعـة، ثـم وضـع الصنـدوق بيننـا مائـلًا بجسـده في الاتجـاه المقابـل لي، لم يبـالِ بدهشـتي، لكـزني في كتفـي مُكمـلًا حديثـه في غضـبٍ:

ـ أنـا رحـت البيـت خدتـه يـوم مـا منصـور الزفـت ده قـال لـك إني ميـت؛ كان يـوم جمعـة سـاعة صلاة وإنـت كنـت سـايب بـاب المطبخ مفتـوح.. كنـت حاسـس إنهـم هيقولوا لـك قريّـب إني ميـت وإنـك هتبطَّـل تـزورني، خوفـت أنـسى ملامحـك أنـت والغاليـن.

أخـرج الصـورة التـي تجمعـه بزوجتـه وأولاده، تدحرجـت دمعـةٌ مـن عينـي رغـمًا عـن إرادتي حـين رأيـت فرحـة وأبي.. أسـتطيع منـذ صغـري أن أميِّـز صـورة الحـي مـن الميـت؛ أدرك أن تغـيرًا ملحوظًـا يطـرأ عـلى ملامـح البـشر بعـد وفاتهـم، لا أسـتطيع أن أذكـره تحديـدًا، فالملامـحُ كـما هـي.. لكـن التغـيُّر موجـود. أشـار رفعـت إلى أبي الملاصـق لعمتـي حـين كانـا

صغيريْـن، ونبَّهنـي إلى الطفـل ابـن العـاشرة الـذي كان يحملـه عـلى كتفـه قائـلًا بحـزمٍ:

- مـش ملاحـظ في الصـورة دي إن أبـوك وعمتـك واقفـين عـلى رجليهـم برغـم إنهـم أصغـر مـن العيـل الـلي أنـا شـايله ده؟!

لم أسـتطع تجـاوز شـكي في وجـود رفعـت بجـواري مـن الأسـاس، ولكـن أجبتـه:

- أكيـد ده عطـوة؛ هـو طـول عمـره مُتعِـب.. أكيـد كان طفـل متدلـع يعني!

هزَّ رأسه نافيًا:

- عمـك عطـوة مكانـش في الصـورة دي؛ هـو الـلي كان بيجرّب الكامـيرا وبيصوَّرنـا؛ كانـت جديـدة وغاليـة وكنـت شـاريها بتمـن إيـراد الأرض كلـه..

سـألته باهتـمامٍ عـن هويـة الطفـل الـذي يحملـه فأجـاب وهـو ينظـر إلى الميـاه:

- ده عمك سرور الطحاوي الله يرحمه؛ ابني البكري!

كانـت هـذه أول مـرةٍ أرى دمـوع رفعـت مترقرقـةً داخـل عينيْـه؛ قـصَّ عـليَّ حكايـة سرور مـع المـرض الـذي وُلِـد بـه؛ كان ضحيـة زواج أقـارب، خـرج إلى العـالم بنصـف سـفلي مشـلول.. كـما كان مُعتـلا بإعاقـةٍ في مخـارج الحـروف، ولكنـه كان طيبًـا

مُتسـامحًا يُحـاول الاجتهـاد في تعلُّـم القـراءة والكتابـة برغـم عجـزه.. لم تكـن فرحـة قبـل وجـوده كجـدتي التـي أعرفهـا وأعشـقها؛ كانـت عـلى قـدرٍ مـن الكبريـاء والشـعور بقيمـة الـذات.. لم تكـن حريصـةً عـلى مسـاعدة الفقـراء والسـعي إليهم.

غـيَّر سرور في أبيـه كـما بـدَّل حـال أمـه؛ فأدخـل قبسًـا مـن رحمـةٍ عـلى قلبـه؛ جعـل منـه عمـدة أفضـل وحاكـمًا أكـثر عـدلًا، أصرَّ فيـما بعـد عـلى تغيـير اسـمه مـن "رضـا" إلى "سرور" لأنـه أدخـل الـسرور عليهـم.. نمـا سرور وكـبرت مشـاكله معـه؛ فأصبحـت تأتيـه نوبـاتُ صرع فَسَّرهـا البعـضُ عـلى أنهـا مَـسّ شـيطاني، لدرجـة أن رفعـت أخفـاه عـن الحيـاة وعزلـه في غرفتـه، لم يُخـبر أيًّـا مـن أحفـاده أن لهـم عـمًّا بهـذا الاسـم.. ظـل سرُّه مكتومًـا عـن الجميـع حتـى خرجـت إحـدى نوباتـه عـن المألـوف وكاد أن يقتـل أختـه الصغـيرة حـين تشـبث في رقبتهـا قاطعًـا النَّفـس عنهـا دون إفـلات.. لم يـدرِ رفعـت مـاذا يفعـل، ولم يشـعر بنفسـه إلا حـين تدخـل بتهـورٍ ضاربًـا سرور عـلى رأسـه الضعيـف بعنـفٍ لم يُـدرك مـداه إلا حـين قُطِـع النفـس عـن أكـبر أبنائـه.

أدرك رفعـت أن لا مفـر لـه مـن فعلتـه، واسـتغل عطـوة ذلـك ليُحقـق طمعـه في منصـب العمـدة الـذي طالمـا حلـم بـه.. فاقـترح عـلى رفعـت أن يتـم إعـلان وفـاة كليْهـما في حـادث سـيارة؛ حتـى تبـدو ميتـة سرور طبيعيـةً، ولا يتسـاءل أحـدٌ عـن سـبب خروجـه وحيـدًا، فـلا تضيـع سـمعة الطحاويـة

حين يعرف الناس أن كبيرهم قتل ولده!.. وافق رفعت بعد تفكيرٍ وبعد وعدٍ كاذبٍ من عطوة بأن يرعى العائلة من بعده وخاصة أمه وأخته وأخيه الذي رفض إخبار أبنائه بوفاة رفعت، مكتفيًا بقطع زياراتهم عن بيت العائلة حتى مات بعدها بفترةٍ..

ومن يومها ورفعت يقطن بعيدًا عن الحياة في طحا داخل مسجد الشيخ صالح، لا يخرج إلا ليلًا كي لا يراه أحدٌ، استمرَّ الوضعُ هكذا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن وقلَّ خوفُه من الظهور بعد أن نسي الجميعُ شكل العُمدة رفعت في هيئته المهيبة السابقة.. فحتى وإن شوهد مُصادفة أثناء صلاة من الصلوات ظنه أهل البلد فرَّاش المسجد أو معاون الشيخ صالح الذي يرى بعينيْه. أخبرني أن ناجي عرف كل شيء بعد مدةٍ قصيرةٍ من حادثة وفاة أبويْه دون أن يُبدي الكثير من الحزن أو يُضمره.. خمَّن رفعت أن أخي لم يُخبرني لأنه ظن أنني أتعمد تجنُّب الحديث عن كل ما يتعلق بالوفيات.

كانت قصته غريبةً لم أستوعب معظم أحداثها، ولكن طريقة حكيه وبكائه جعلتني أرغب في التصديق، حاولت وضعه في فخٍّ بسيطٍ كي أعرف إن كان مسخًا من صنعي أم أنه موجودٌ حقًّا، فسألته عن رأيه فيما حدث بقضية الحَجْر فهزَّ رأسه ببساطةٍ أنه لا يعرف أن هناك قضيةً من الأساس.. طلبتُ منه طلبي المُعتاد بأن يظهر ويعود ليوقف فساد عطوة وناجي.. رفض مستخدمًا نفس أسبابه

المعتـادة.. أخبرتـه بغضبـي الشـديد مـن هـذا الـردِّ المحفـوظ، وأننـي أحتاجـه ليقـفَ معـي ضدهـم.. ابتسـم حـين أدرك أننـي عـدتُ للاعـتراف بوجـوده.. ربَّـت عـلى كتفـي قائـلًا:

- طبعًـا لازم تاخـد حقـك، بـس أخـد الحـق محتـاج صنايعي.. وأنـت لا مؤاخـذة غشـيم. التـار عامـل زي طاجـن الباميـة؛ لازم يسـتوي براحتـه ويبـات ويتسـخن كـذا مـرة عشـان تحـس بطعمـه. وموضـوع الحجْـر ده...

قاطعته بشرودٍ:

- أنـا فعـلًا عايـز آخـد حقـي بـس مـش مـن موضـوع الحجـر ده؛ أنـا سـهل أعمـل فلـوس قـد الـلي هـما عايزيـن ياخدوهـا دي ميـت مـرة.. وكفايـة منظرهـم المُهـزق في المحكمـة، بـس أنـا شـاكك في حاجـة أكـبر..

بدت الحيرةُ عليه فأردفتُ قائلًا:

- أمجـد مـات بطريقـة مـش مفهومـة، وأنـا اتدفنـت غلـط برغـم كل الاحتياطـات، وطلعـت بعدهـا بشـكل مـش فاهمـه، ولـولا سـتر ربنـا أكـتر مـن مـرة كان زمـاني ميـت، وتقديـس النـاس ليّـا.. مـش معقـول كل الـلي بيحصـل لي ده نحـس أو صُـدف بتجـرّ بعضهـا!.. حاسـس إن فيـه حـدّ راسـم وبيخطـط لـكل حاجـة مـن سـاعة الـوأد لحـدّ دلوقتـي.

لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com

عصير الكتب
fb.com/groups/Book.juice

ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

١٧

الحَلَقَةُ الأَخِيرَةُ

«فأسُ إبراهيم»

الجمعة 10 نوفمبر 2006

"استعدوا.. عشر دقائق ونبدأ بث الحلقة".. هكذا أعلنها مخرجُ البرنامج الذي كان دوره كالموظف الذي يُنفِّذ ما يُملَى عليه سواء مني أو من سامح أبو خاطر. أثار حضوري في السويعات القليلة قبل التصوير جدلًا واسعًا؛ فأنا مُختفٍ عن الجميع منذ أربعة أيام دون تحضيرٍ لكل تفاصيل الحلقة كالمعتاد، كما ساعد خلافي مع خالد- الذي استقال من عمله معي- على تثبيت دعائم الشائعات التي تنبَّأت بعدم وجود حلقة أخيرة للبرنامج.. لدرجة أن سامح أوقف الإعلانات الترويجية للحلقة ومهَّد للكثير من الحجج التي سيتلوها على الرعاة بعد أن يئس من ردِّي على مكالماته الهاتفية.

استرجعتُ ما حدث بعد جلستي مع رفعت التي أسررتُ إليه فيها بشكوكي؛ فهناك يدٌ كبرى تعبثُ بحياتي لتُحيلها جحيمًا، لم يُصدق مخاوفي وذكر أن هذه وساوس تُطارد أي شخصٍ يبلغُ قمة النجاح، حتى وإن كان نجاحًا زائفًا قائمًا على "تلبيس العِمم". شعرتُ فجأة بوجعٍ شديدٍ يعتصرُ قلبي، تركت رفعت وسط الكثير من التساؤلات والقلق، تذكرت النسناس الذي تناول نفس تركيبتي ولاقى حتفه منذ مدةٍ، استرجعتُ في كلام إيف عن مقاومة جسدي لآثار التركيبة التي ستطول عن مقاومة النسناس لفترةٍ قد تسمح لها بالبحث عن علاجٍ مناسبٍ. يبدو أن الآثار قد بدأت مداهمة قلبي مثلما أنبأتني إيف متوجسةً من مصير من سيصبح زوجها المستقبلي.

توجَّهت إلى الحسين، ترجَّلت من سيارتي دون أن أركنها تاركًا لشرطة المرور مهمة إماطة أذاها عن الطريق. جلستُ في محيطِ جامع الحسين الواسع وسط الدراويش والمجاذيب الذين يُطلِق عليهم عامةُ الناس "المبروكين"، شعرتُ بنسمة هواء خريفيةٍ وأزكمت أنفي رائحةُ البخور فبعثتا في نفسي طمأنينةً مؤقتةً.. افترشتُ الأرض تمامًا مثلهم لأنام دون أن أطلب المدد من الحُسين؛ فبعيدًا عن الاختلاف الفقهي على حرمانية طلب المدد من غير الله وتأويله إلى الشرك.. فأنا أعلمُ أن الحُسين لم يُدفن في مصر من الأساس، وأن المَقام المُقام له هنا مدفنٌ شرفي ليس أكثر.

لأول مـرةٍ في حيـاتي أشـعرُ بالخـوف مـن الحيـاة؛ حيـاة مـن ينتظـر المـوتَ، يتجسـدُ أمامـه عـدٌّ تنـازليٌّ لعُمـره؛ فيشـعر بقيمة كل ثانيـة تتناقـصُ مـن هـذا العـدَّاد، يتمنـى أن يعـود بـه الزمـنُ إلى المهـد. هـل سـتُقبَل توبتـي أم أنهـا تأخـرت كتوبـة فرعـون لحظــة الغــرق؟!.. لا يهــم كــم مــن المــاء ســأشرب؛ فحلقــي سـيظلُّ جافًّـا تُسـيطر عليـه الغُصَّـة، أشـعرُ أننـي أتـآكلُ مـن الداخـل، لا شـك أن هـذا التـآكُل سـيظهر عـليَّ سريعًـا. ترحمـتُ عـلى السـابقين وأطلالهـم مُتذكـرًا كل تفاصيـل معيشـتهم التـي لم يُدركـوا زوالهـا، الآن فقـط أسـتوعب عبـارة "لـو دامـت لغـيرك مـا وصلـت إليـك" تمامًـا.. اسـترجعتُ كل لحظـات الاقـتراب مـن المــوت التــي تعرضــتُ لهــا؛ تجسَّــدت أمامــي حادثــة فقــدان والـديَّ، ومنظـر جثـة حسـن المنتفخـة، وسـكون فرحـة ووجههـا المُسـفِر المُسـتبشر، وتجربـة الـوأد كاملـة، كـما تخيلـت جسـد أمجـد الـذي لم أشـهده إلا حيًّـا يُـرزق؛ فتخيلتـه مسـخًا اختلـط دمــه بعظامــهِ بحديــد ســيارته.. لا يهــم بــأي صــورةٍ مــات، فجميعهـم الآن عظـامٌ ممتزجـةٌ بالـتراب بعـد أن تحلـل لحمهـم، كلهــم أرواحٌ هائمــةٌ في ملكــوتٍ لا يعلــم منتهــاه إلا خالقــه. أدركـت أن كل يـوم بـاقٍ في عمـري سـيأتيني عـلى هيئـة البـلاء؛ فهـذا يـومٌ ينتقـص مـن عمـري، وتلـك خطـوةٌ أخطوهـا بعيـدًا عـن الدنيـا مُقتربًـا مـن المحطـة الأخـيرة.

اتخـذتُ قـرارًا بعـدم إكـمال البرنامـج والاعتـكاف في محيـط الجامـع حتـى يأتينـي أجـلي الـذي اقـترب أكـثر مـن أي وقـتٍ

مضى، حاولت النوم متجاهلًا وجعي النفسي وألمي المحسوس الذي ينقرُ قلبي مُعلنًا اقتراب قطار الموت من محطته الأخيرة.

لم أدرك كم من الوقت مرَّ عليَّ في هذه الحالة الساكنة، أراقبُ جميع مَن حولي؛ يتطوحون ذاكرين الله.. يهيجهم البخور فيجعلهم سكارى تحت تأثير نشواهم. فقدتُ شهيتي تمامًا وازداد طولُ لحيتي، ولكن الجانب المُشرق أن أوجاع قلبي بدأت تقل عكس ما توقعت.. كما أنني اكتشفتُ نقطة ضعفي تجاه الأطفال الذين حُرِمت من إنجابهم؛ حين رأيتهم يلعبون من حولي.. اصطدم بي مرةً أحدُ الصبية الذي أتى للصلاة في الحُسين مع والده؛ اعتذر لي الطفل فدعوتُ له الله، سألته عن اسمه ليُجيبني أن اسمه "جابر صلاح".. كرَّرت له دعوتي بالبركة في عمره وصحته.

تصادقتُ- دون حديثٍ كثيرٍ- مع شخصٍ يُدعى"عَلْي مَبخْرة"؛ الذي يدورُ على محلات الحسين بمبخرته ذاكرًا الله متوسلًا، ومتسولًا المال من عباده.. أعرفُ وجهه منذ زمنٍ وأُدرك أن أصحاب المحلات يتباركون به ويتجنبون دعواته على من ينهره منهم. لاحظ أنني لا آكلُ ولا أتسول للحصول على طعامي فراح يُحضر لي معه قدرًا من الطعام يُساعدني على البقاء حيًّا.

لم أدرك أن شروق شـمس الخميـس قـد حـان إلا حـين شـعرتُ باهتـزاز هاتفـي الـذي كان يـئنُّ مـن عـدم شـحنه.. لمحتُ الوقت والتاريـخ أعـلى شاشـة الهاتـف، كـدتُ ألا أرد كـما كنـت أفعـل خـلال الثلاثـة أيـام الماضيـة ولكـن المتصـل كان إيـف، اتصَلَـت بعـد أن أرسـلت عـدة رسـائل مُلخصهـا وجـوب ظهـوري سريعًـا.. أجبـتُ عليهـا لتُخـبرني أنهـا كانـت معتكفـةً في معملهـا ولم تنـم منـذ يومـين لتجـد حـلًّا لمشـكلتي الآخـذة في التفاقـم، وتظـن أنهـا قـد وجـدت العـلاج المنشـود!

اقتحمـت عقـلي خاطـرةٌ غريبـةٌ حـين أدركـتُ أن خطـر المـوت سـيبتعد عنـي قليـلًا، اتسـعت عينـاي بفهـمٍ، بعـد أن أنـار حديثهـا جـزءًا مـن عقـلي جعلنـي أرغـب في العـودة السريعـة إلى الحيـاة التـي هربـتُ منهـا.

انقطـع الاتصـالُ لخلـو بطاريـة الهاتـف مـن آخـر شـحناتها الكهربيـة؛ كأنهـا جنـدي اسـتراح مـن المعركـة بعـد أن أدَّى واجبـه الوطنـي. تحسَّسـت جيبـي لأتذكـر أننـي قـد نسـيت حافظـة أمـوالي الجلديـة داخـل السـيارة التـي تقبـع الآن في إدارة المـرور بعـد أن أزالهـا الونـش. حاولـتُ أن أتذكـر عنـوان جـبران؛ أخـبرني ذات مـرةٍ أنـه يقطـن في إحـدى الحـارات المتفرعـة مـن شـارع المُعِـز لديـن اللـه الفاطمـي الـذي لا يبعـدُ كثـيرًا عـن جامـع الحُسـين.. وبعـد الكثـير مـن الجهـد والقليـل مـن الأسـئلة وصلـت إلى بيتـه.. طرقـتُ البـابَ كثـيرًا؛ فجـبران كان عاطـلًا

عـن عملـه لاختفـائي، فـلا شيء يُـبرر اسـتيقاظه في هـذا الوقـت المبكـر. فتـح أخـيرًا بجفـونٍ مُنتفخـةٍ، ومـا لبـث أن رآني حتـى أصابـه الفـزعُ الشـديدُ، أدركـت أن مظهـري الـرثَّ أفزعـه، أزحتـهُ مـن أمامـي دون اسـتئذانٍ مُقتحـمًا شـقته، أمرتـه بسرعـةٍ ارتـداء ملابسـه، وطفـتُ في شـقته بحثًـا عـن شـاحنٍ يُلائـم هاتفـي، طلبـتُ مـن جـبران قـدرًا مـن المـال الـذي كنـتُ أغدقـه عليـه، ينبغـي أن أتصـل بمعـاذ عصفـور ليسـاعدني عـلى التأكُّـد مـن بعـض شـكوكي، كـما يجـب أن أسرع بالذهـاب إلى إيفلـين.. تجاهلـتُ مُحـاولات جـبران لتهدئتـي، طلـب منـي أن أجلـس لالتقـاطِ أنفـاسي حتـى يُحـضر لي مـا أشربـه.. لم أعبـأ بحديثـه، أكملـتُ عمليـة بحثـي عـن الشـاحن التـي تمَّـت مقاطعتهـا حـين لمحـت مـا هـو أهـم منـه بكثـير.

***

أصرَّ سـائقُ السـيارة الأجـرة أنـه يعـرفُ وجهـي جيـدًا.. لم أخـبره هويتـي، وصفـتُ لـه مَسْـكَن إيفلـين، وطلبـت منـه بحـزمٍ التـزام الصمـت حتـى نصـلَ إلى وجهتنـا المنشـودة، كـما أخرجـت هاتفـي الـذي لم ينـل القـدر الكبـير مـن الشـحن لتعجـلي الوقـت.. اتصلـت بمعـاذ عصفـور الـذي ردَّ مـن ثـاني محاولـة اتصـالٍ بصـوتٍ ناعـسٍ، بـادرني بالشـكر عـلى التزامـي الزمنـي بدفـع أتعابـه في قضيـة الحجْـر، أخبرتـه أن مبلغًـا مماثـلًا سـيدخلُ في حسـابه البنـكي إذا أتـاني ببعـض المعلومـات قبـل

حلـول الظهـر.. لمحـتُ الدهشـة الباديـة عـلى السـائق حين سـمع مـا طلبـت مـن مُعـاذ الإتيـان بـه، حـاول إخفاءهـا كي لا أنهـره ثانيـة. وعـدني معـاذ بتسـخير فريـق عمـل مكتبـه الـذي يأتمـر بأمـره مـن أجـل الحصـول عـلى إجابـاتٍ دقيقـةٍ ومُفصلـةٍ لـكلِّ أسـئلتي.

***

"اسـتعدوا.. خمـس دقائـق ونبـدأ بـث الحلقـة".. أعلنهـا هـذه المـرة مُسـاعد المخـرج بعـد أن تركـه رئيسُـه ليتأكـد بنفسـه مـن الإضـاءة المُسـلطة عـلى وجهـي، في بدايـة عمـلي بالبرنامـج كانـت تُزعجنـي هـذه الإضـاءة حتـى تعلَّمـت تجاهلهـا تمامًـا كـما اعتـدتُ التعامـل مـع صـوت المخـرج المزعـج الـذي ينتقـلُ عـبر سـماعة الأذن مُقاطعًـا اندماجـي عـلى الهـواء.. اقترحـتُ على سـامح أن تكـون الحلقـاتُ مُسـجلةً ولكنـه رفـض ذلـك حتـى لا يظـن النـاس أن المكالمـات مُفبركـة وأن الحلقـة تـم التحضـيرُ وعمـل "مونتـاج" لهـا. أصـاب فريـق العمـل كلـه القلـق مـن عـدم التحضـير لموضـوع هـذه الحلقـة، أوجسـوا خيفـةً مـن صمتـي وعـدم تبريـر اختفـائي حتـى اللحظـات الأخـيرة مـن الإعـداد للبـثِّ المبـاشر؛ خاصـةً لسـامح الـذي تجاهلـتُ مكالماته، لم يكـن أمامـه حـلٌّ آخـر سـوى الانتظـار حتـى تنتهـي الحلقـة كي لا يضطـر إلى إعـادة مـال الرعايـة للمُعلِنـين.. مـال عـليَّ سـاعي الأسـتوديو ليُخـبرني أن أسـتاذ لطفـي صاحـب دار النـشر أرسـل

مساعده ليسلِّمني نسخةً من الكتاب الذي "ألَّفته" والذي يحمل اسم "العودة من الموتِ إلى الموت" فور صدوره من المطبعة.. طلبتُ منه أن يستلم النسخة بدلًا مني ويضعها في غرفتي بالأستوديو.

تركتُ متخصص التجميل "الماكيير" يعبثُ في وجهي كيفما شاء، كان حريصًا على عدم مُضايقتي خوفًا من غضبي عليه وافتعال شجار معه؛ مثلما فعلتُ مع الحلَّاق الذي شذَّب ذقني، ومتخصص الأزياء "الستايلست" منذ قليلٍ حين أصرَّ على تنفيذ تعليمات المُخرج بإلباسي بدلةً رسميةً كي أظهر بنفس الشكلِ الذي كنتُ عليه طوال الموسم.. الأمرُ الذي انتهى بتنفيذي لرغبتي في الظهور بالملابس التي أتيتُ بها من بيتي؛ كانت عبارةً عن معطفٍ كُحلي تحته قميصٌ لبني اللون أسفلهما بنطلون من الجينز أسود وحذاء رياضي. تركتُ فرشاته تُداعب وجنتيَّ مُحاولة تجنب شَعر لحيتي.

استرجعتُ ما حدث بعد أن تناولتُ العلاج الذي زعمت إيفلين أنه سيشفيني، جلستُ معها مُعربًا عن افتقادي لها ولصُحبتها، سألتني عن الحلقة الأخيرة؛ فأجبتها أنني سأقلبُ فيها الطاولة على الجميع.. سألتني عن أحوال ناجي بعد القضية.. أجبتُها أنني لا أعرف عنه شيئًا. قاطع حديثنا الحميمي اتصالٌ من مُعاذ الذي أخبرني بنجاح فريق عمله

في تنفيـذ كل طلبـاتي، فتوجَّهـت عـلى إثـر مكالمتـه إلى أكـثر مـن مـكانٍ..

***

اعتـذر سـائقُ سيارتي الاحتياطيـة عـن تأخـره للقيـام ببعـض أعـمال الصيانـة.. نهرتـه عـن الكـذب وأخبرتـه أننـي لـن أغضبَ إذا اعـترفَ أنــه يسـتخدمها في مشــاوير خاصــة بــه لتحســين دخلـه.. شـكرني داعيًـا اللـه أن يُسـدد خطـاي. سـألني عـن جبران فأجبتـه أنـه يُنهـي مهمـةً خاصـةً لصالحـي، وصفـتُ لـه وجهتنـا القادمـة وقـد أدركَ مـن لهجتـي أننـي لا أرغـبُ في المزيـد مـن النقـاش.. قابلـتُ مسـاعد معـاذ عصفـور الـذي عرَّفنـي بنفسـه ذاكـرًا بصـوتٍ خفيـضٍ وبلهجـةٍ فخـرٍ أنـه مـن حـضر قضيـة الحجْـر مـع مُعـاذ.. أعطـاني ظرفًـا ورقيًّـا سـميكًا، وأخـبرني أن كل مـا طلبتـه تـم إنجـازُه عـلى أكمـل مـا يكـون.

انتقيــتُ ورقــةً مــن داخــل الظــرف والتــي كُتِــب فيهــا العنــوانُ الجديــدُ لعائلــة أمجــد.. كان قريبًــا ســهل الوصــول إليـه؛ فيـلا صغـيرة في إحـدى المُجمعـات السـكنية الحديثـة عـلى الطريـق الصحـراوي، رحَّـب الأسـتاذ عـمّار بي لأننـي "مـن ريحـة الغـالي" وكذلـك فعلـت زوجتـه وابنتـه التـي أخبرتنـي أنهـا لم تفـوِّت حلقـةً مــن الموسـم كلـه، بعـد تنـاول الشـاي وبعـض المخبـوزات التـي أتـت معـه.. سـألني أبـو أمجـد في بعـض الأمـور المتعلقـة بمحتـوى البرنامـج، كـما طلبـت أخـت أمجـد رأيـي في

عريس تقدَّم إليها منذ أسبوعٍ؛ قلتُ لها أنْ تتبعَ قلبَها وتُصلي لاستخارة مولاها.. اعتذرتُ على قدومي دون ميعادٍ سابقٍ وعلى تأخر عزائي لهم في فقيدِهم لشهورٍ، لخَّصت لهم ما مرَّ بي بعد الحادثة من تجنُّب الأقربين وطمَّعهم فيما أملك، تجنَّبت ذكر أن أمجد كان سببًا رئيسيًّا لكلِّ ما واجهته فيما بعد، تكلمت عن إيف ولمحت لوجود بيننا ما هو أكثر من صداقةٍ.. حذَّروني منها وأخبرتني أم أمجد أنها كانت بمثابة البومة التي نحست العائلة، وأن أمجد كان يشتكي منها في أواخر أيامه كونها فاترةً معه تُعامله بخبثٍ شديدٍ، وتصميمها على تأجيل حَملها بتناول الحبوب المانعة لحدوثه.. كما تعجَّبت أم أمجد من موضوع بوليصة التأمين التي لم يعرف عنها أحدٌ سوى جبران.. دافعتُ عن إيف قائلًا إنها أخبرتني بنيَّتها في إعطاء أبي أمجد نسبةً من البوليصة تعويضًا لأسرتهِ عمن فقدوه، وأسفًا على عدم إنجابِها صغيرًا يحمل لقبَ العائلة.

لم يُعلق أحدُهم وأشاحت الأم بوجهِها بعيدًا كي لا أرى دموعَها، اقتربتُ منها وربتت على يدها مُواسيًا، ثم أخبرتُها أن وفاة أمجد لم تكن مجرد صدفةٍ، اتسعت أعينُهم وأكَّد الأب على كلامي قائلًا إنه أدلى في التحقيقات بنفس القول دون اهتمامٍ أو تصديقٍ من الشرطة، وتلا عليَّ مواصفات السيارة التي أخبر عنها المُتصل المجهول، والتي قُيدت في التحقيقات أنها كانت تُراقب سيارة ابنه حين خرج من

بيتـه قبـل الحادثـة بدقائـق؛ كانـت المواصفـاتُ مألوفـةً بالنسـبةِ لي، ولكننــي لم أعبــأ كثــيرًا باســتنتاجهِ الــذي تعــارضَ مــع مــا أعلمــه. تجاهلــتُ دهشــتَهم وهواجسَــهم، وقصصــتُ عليهــم بعضًــا مــما يجــولُ في خاطــري.. اتســعت أعينُهــم فزعًــا وتكذيبًــا حــين انتهيــتُ مــن سرد اســتنتاجي بخصــوصِ القاتــل المســئول عــن تدبــير الحادثــة!

***

اتصلــتُ بإيــف أثنــاء توجُّهــي إلى الجامعــة، أخبرتهــا أننــي ســأنفذ فكــرة الهجــرة بعيــدًا عــن مــصر والمشــاكل التــي تُطــاردني فيهــا.. تــرددتُ في الموافقــة عــلى مرافقتــي ثــم وافقــتُ بعــد إلحــاحٍ ووعــدٍ بــأن نــزورَ أهلهــا ونقيــمَ زفافنــا في بيــت عائلتهــا، قالــت بقلــقٍ إن الضابــط المســئول عــن التحقيــق في قضيــة أمجــد يتصــل بهــا مــن وقــتٍ للآخــر ليتأكــد مــن وجودِهــا في القاهــرة لأن التحقيــق لم يُغلــق بعــد؛ فتخــاف أن تثــيرَ الشــكوك بســفرها، كــما أخبرتنــي أن إقامتهــا داخــل مــصر ســتنتهي قريبًــا، طمأنتهــا أننــي ســأجد حــلًّا، وأن كل المطلــوب منهــا أن تبحــثَ عــن صــورةٍ شــخصيةٍ لهــا تُعطيهــا لســائقي الخــاص الــذي ســأرســله إليهــا بعــد أن أبلــغ وجهتــي.

أوقــف الســيارة الحــارسُ الواقــفُ عــلى بوابــة كليــة الطــب، حــين أنزلــت زجــاج ســيارتي رحَّــب بي وأخــبرني أنــه مــن أشــد المعجبــين ببرنامجــي.. طلبــتُ منــه الإسراع في إدخــالي لأن اليــوم

الخميـس وموعـد خـروج الموظفـين قـد اقـترب.. سـألني عـن سـبب الزيـارةِ فأجبتـه أننـي أتيـت لرؤيـة صديـق، وحـين تأكَّـد مـن الاسـم سـمح لنـا بالمـرور.. أمـرتُ السـائقَ أن يتركنـي ليذهـبَ إلى عنـوان إيفلـين ليأتينـي بصورتهـا الورقيـة.

لمحـتُ الطلبـة يخرجـون مـن مـدرج المحـاضرات، سـألت أحدهـم عـن المحـاضر فأجابـوني بالاسـم الـذي أتيـتُ لأجلـه، سـمعتهم يشـكرون في أسـلوبه المُتميـز أثنـاء إلقـاء المحـاضرة لدرجـة أنهـم يُحصِّلـون معظـم المعلومـات أثنـاء جلوسـهم أمامـه.. وأن أسـئلته في الاختبـارات تعتمـدُ عـلى الفهـم أكـثر مـن التلقـين؛ عكـس دكاتـرة كـثر لا يهتمـون بربـط الدراسـة بالواقـع..

لمحتـه مـن خـارج المُـدرج يُغلـق مكـبر الصـوت مُجيبًـا أسـئلة الطلبـة بابتسـامةٍ ودودةٍ، جمـع أوراقـه داخـل حقيبتـه الجلديـة متوجهًـا إلى مكتبـه الـذي يقـع في نفـس الطابـق بنهايـة الـرواق كـما أخـبرني مُعـاذ عصفـور نقـلًا عـن أحـد مسـاعديه. طرقـتُ المكتـب بهـدوء؛ لم يبـدُ أنـه تعـرَّف عـليَّ مـن الأسـاس، سـألته إن كان يتابـع التلفزيـون فاعتـذر لانشـغاله أغلـب الوقـت في عملـه كمـدرسٍ جامعـي وكطبيـبٍ في عيادتـه الخاصـة، لدرجة أنـه يغفـل أهـل بيتـه في الكثـير مـن الأحيـان. قلـتُ ضاحـكًا:

ـ ده طبعًا غير الشغلانة التالتة معاليك..

بـدا الاندهـاشُ عـلى وجهـه فقلـتُ وأنـا أنظـرُ إلى الشـهادة الجامعيـةِ المُعلقـة خلـف مكتبـه والمكتوبـة بالإنجليزيـة:

- مـين كان يصـدّق إن دكتـور أنـس صالـح عـز الديـن.. الطبيـب والأكاديمـي المرمـوق.. يطلـع زعيـم أكـبر عصابـة نَبْـش قبـور في البلـد؟!

بـدا الفـزعُ عليـه ونـادى عـلى سـاعي مكتبـه ليقـوم بطـردي، اقتربـت منـه بحركـةٍ سريعـةٍ، قلـتُ لـه محـذرًا:

- أنـا مـش عايـز أئذيـك في شـغلك ولا في بيتـك يـا أبـو داليـا.. هاسـألك سـؤالين وأمشي!

***

شـارعٌ يقـودُ إلى حـارةٍ، وحـارةٌ تقـودُ إلى زقـاقٍ، وزقـاقٌ يقـودُ إلى زنقـةٍ، وزنقـةٌ تقـود إلى أخـرى، حتـى انتهـى بي المطـاف أمـام بيـتٍ مُتهالـكٍ مـن دوريـن.. كان العنـوان كـما وصـف لي معـاذ عصفـور بالضبـط، تأكـدت مـن صحتـه حـين دخلـت البيـت لينقـض عـليَّ في الحـال رجـلان ضخـما الجثـة، سـألني أحدهـما:

- مين جاي معاك؟!

- أنـا لوحـدي، معـاذ عصفـور المحامـي هـو الـلي وصـف لي العنـوان وقـال لي إنـه سـايب للبهلـوان خـبر.

أفسـحا لي الطريـق، شـعرتُ باشـمئزازٍ مـن منظـر مُحـدثي الـذي كان مُشـعرًا كغوريـلا، ورائحتـه كالخِـراف. كان المـكانُ مـن الداخـل مُختلفًـا تمامًـا عـن ظاهـره؛ فقـد كان أنيقًـا واسـعًا

خاليًا مـن الأثـاث، تراصـت أجهـزة الكمبيوتـر بداخلـه بعضهـا إلى جـوار بعـض في نفـس نظـام شركات الاتصـالات، شـعرت بـبرودة الجـو ملاحظًـا كـثرة مكيفـات الهـواء. لم أحتـج إلى الكثـير مـن الـذكاء لأدركَ أن ذلـك "البهلـوان" هـو صاحـب هـذا المـكان الـذي يُطيعـه الجميـع مُخلصـين.. صافحتـه وأخبرتـه أن المبلـغ الـذي طلبـه تـم تحويلُـه إلى حسـابه البنـكي، وأن مبلغًـا مماثـلًا سـوف يصلـه بعـد أن ينهـى عملـه، تعجَّـب مـن قـدوم شـخصية عامـة مثـلي منفـردًا دون أن أصطحـب أحـدًا مـن "رجالتـي"، سـأل عـن المطلـوب منـه بالتفصيـل فأجبتـه بصـوتٍ خفيـضٍ:

- أنـا نـاوي أسـافر مـع حـدّ عزيـز عليَّـا بعـد بكـرة، مُعـاذ حجـز لي تذكرتـين الطـيران، وباسـبوري سـليم.. المشـكلة في الشـخص الـلي هايسـافر معايـا، فعايزيـن نعمـل لـه باسـبور زي مـا يكـون أصـلي بالظبـط.

غمز لي، وقال بنفس لهجة الخبث:

- حدّ عزيز عليك برضه؟ يا سيدي يا سيدي..

نظـرت لـه لائمًـا دون أن أرد عليـه، أخرجـت مـن جيبـي صـورةً ورقيـةً.. اعتـذر عـن تلميحاتـه، أومـأ برأسـهِ علامـةً عـلى الفهـم قائـلًا إن الصـورة تبـدو قديمـةً، طلبـت منـه أن يتلاعـب بهـا عـلى برنامجphoto shop ليجعلهـا تبـدو أحـدث مـن زمـن التقاطهـا.. وعـدني بإتمـام مـا أريـد بمنتهـى الإتقـان في أقـل مـن يـوم، سـألني باهتـمامٍ:

ـ تحب نعمل للشخصية دي باسبور باسم معين؟!

أجبته بعد تفكيرٍ لم يدم طويلًا:

ـ اعمله باسم نور.. نور يوسف.

***

"نص دقيقة على البث المباشر".. لم أتعلم بعد تجنُّب الإضاءة الحمراء المنبعثة من الكاميرا؛ أرتبك حين ينتقل الضوء من كاميرا إلى أخرى مُعلنًا وجوب تحرُّكي لأوجِّه بصري مقابلًا له. لحسن حظي أن المكتب الذي أستند على حافته يُداري اهتزاز قدميَّ اللتيْن لم أستطع التحكم فيهما.. فوجئتُ باقتحام خالد الأستوديو مشيرًا لي بقلق، لم أفهم من إشاراته سوى أن هناك أمرًا جللًا، ضم يده في شكل قبضةٍ فاردًا خنصره وإبهامه كأن يده هاتفٌ محمولٌ.. بدأ العد التنازلي من رقم خمسة، أخرجت هاتفي مسرعًا ونظرتُ إليه لأتفاجأ بأكثر من عشر مكالماتٍ فائتةٍ من رقم عَطوة ونصفها من رقم خالد.. لم أفهم ماذا يحدثُ وأشرتُ إلى خالد بهدوءٍ أن يصبر حتى أول فاصل...

ـ ستاند باي يا أساتذة.. هوا.

بدأ المصورون والمساعدون يتحركون في صمتٍ، تحركت الكاميرا العالية المسلطة على وجهي من السقف نزولًا ببطء حتى واجَهَتني، أثناء نزولها تذكرتُ جيدًا نصائح

مُعاذ التي تلاها عليَّ هاتفيًّا حين أخبرته بما أنوي أن أفعل؛ حذرني من العبث مع من هم مثل سامح أبي خاطر، وحين يئس من عدولي عن قراري طلب مني ألا أخبر أحدًا بما سيقول، أوصاني بالرمزية وفي حديثي الذي يجب أن يكون عامًّا مُبهمًا قدر الإمكان؛ تجنبًا لأية مساءلةٍ قانونية:

- إنهاردة الحلقة العشرين والأخيرة من برنامج الموءود.. بصراحة أول ما بدأت ما كنتش متوقع إن الموسم يكمِّل لحدّ الرقم ده.. وبصراحة أكتر ما كنتش حابب فكرة البرنامج في البداية. بس الموضوع طلع مش وحش أوي كده؛ كفاية إن الغشاوة راحت من عنيًّا بعد ما كنت فاكر إن كل اللي حصل لي الفترة اللي فاتت مجرد سوء حظ..

انتقل البثُّ من كاميرا إلى أخرى فاضطررتُ إلى التحرك قليلًا بمقعدي الدوار قائلًا:

- أنا عارف إني باين قدّامكوا عايش، بس أنا ميّت من زمان، مش من يوم ما اتدفنت بالغلط زيّ ما حكيت لكوا قبل كده، ولا حتى من يوم ما أبويا وأمي ماتوا قدّام عينيّا في حادثة مشئومة.. أنا ميّت من يوم ما فقدت الإيمان، فقدت إيماني في نفسي وفي كل حاجة حواليّا، كفرت بالناس وبالخير وبأي معنى كويس.

انتقــل الضــوء مــن كامــيرا إلى أخــرى فزفــرتُ حانقًــا وأنــا أســتديرُ ببــطءٍ:

- إحنـا مـش محضّريـن حلقـة زيّ كل مـرّة عشـان أنـا تعبـت مـن كـتر مـا باكـدب عليكـوا.. والمشـكلة إنكـوا عارفـين إني باكـدب، بـسّ مسـتحليين الكـدب الـلي مصبّركـوا عـلى العيشـة؛ الكـدب الـلي بيخلـق لكـوا حـلّ لمشـاكلكوا الـلي مـش عايزيـن تحلّوهـا، الـلي بيوعدكـوا إن بكـره جـاي أحسـن، وهـو عمـره مـا هايكـون أحسـن طـول مـا فيـه نـاس زيّـي وزيّكـوا!

أبـدى المخـرج اعتراضـه عـلى حديثـي، وأخـبرني بـضرورة الخـروج لفاصـلٍ إعـلاني، توقعـت أن يتمـرد مُبكـرًا عـن هـذا، صرخ في أذني:

- إيه اللي بتهببه ده يا يحيى.. إنت هاتخرب بيتنا!

لمحـت خالـد ينظـر إليَّ مُحفـزًا لأكمـل خطـابي فقلـتُ مُحدثًـا الكامـيرا الموجهـة نحوي:

- أنا بيتي كده كده مخروب، سيبني بقى أخربه بإيدي.

عدت لأكمل حديثي مع المشاهدين:

- لمّـا بافتكـر معظـم أعـذار غيـابي عـن الدراسـة أو الشـغل بلاقيهـا "حالـة وفـاة".. يـا سـادة أنـا حيـاتي كلهـا بتـدور في فلـك جملـة "أحبـبْ مَـن شـئتَ فإنـك مُفارقـه"! ويـوم

مـا فارقـت وقلـت هرتـاح خـلاص.. رجعـت لقيـت الـلي طمعانـين فيّـا، والـلي مسـتنيين منـي الـلي مـش عنـدي.. بالعـربي كـده: جلعـوني فانجعلـت. اللحظـة الـلي زيّ دي مـا بتحصلـش غـير مـرة في العمـر، عـارف إني ممكـن أنـدم عـلى الـلي هايحصـل قـدّام.. بـس عمـري مـا هانـدم عـلى الـلي قلتـه.

اهتـز هاتـفُ المخـرج، نظـر إلى المُتصـل فلـم يجـد رقـمًا، وجـد عبـارة: Private number ، أدرك أن المتصـل شـخصٌ ذو حيثيـةٍ يطلـب قطـع البـث، أجـاب بصـوتٍ مرتعـشٍ ليجـد صوت سـامح أبي خاطـر الـذي عرَّفـه بنفسـه قبـل أن يقـول آمـرًا:

- اقطع البث يا بني!

ردَّ المخرج بحزمٍ:

- حضرتـك الراجـل مـا قالـش حاجـة غلـط، سياسـة البرنامـج إنـه يتكلـم عـن تجربتـه مـع الدفـن.. وأظـن مافيـش نهايـة أحسـن مـن كـده، ده غـير...

- لو عايز تفضل عايش اقطع الهوا عنه.

- حاضر يا سامح باشا.. أنا آسف.

أغلـق سـامح الخـط في وجـه المخـرج قبـل أن يكمـل جملتـه، تحـدَّث إليَّ آسـفًا في مكـبر الصـوت أمامـه:

- عشر ثواني وهاقطع عليك يا يحيى.

ألقيت السماعة من أذني، وأكملت حديثي قائلًا:

- وزيـر الإعـلام النـازي قـال: "أعطنـي إعلامًـا بـلا ضمـير، أعطيـك شـعبًا بـلا وعـي".. مـا تصدقـوش أي إعلامـي لمجـرد إن كلامـه عـلى مزاجكـوا، حللـوا كل كلمـة بتتقـال لكـوا بالعقـل والمنطـق.. حتـى لـو عليهـا مليـون دليـل!.. أشـوفكوا عـلى خـير.

نزعـتُ مُكـبر الصـوت المُثبـت في قميـصي، نهضـت وسـط تصفيـق نصـف الحاضريـن، النصـف الآخـر كان يحمـل هـمّ لقمـة عيشـه التـي انقطعـت بسـبب فعلتـي، شـقَّ خالـد صفـوف المُلتفـين حـولي بـين مؤيـدٍ ومهاجـمٍ، ومـال عـلى أذني قائـلًا:

- عايزك ضروري..

قاطعته مُبتسمًا بهدوءٍ:

- فيـه مبلـغ محـترم عشـانك اتحـول لحسـاب دكتـور نجيـب السـعدني، واشـترطت عليـه ماتصرفـش منـه مليـم غـير لمّـا يتأكـد بنفسـه إنـك خفيـت مـن الإدمـان.. حجـزت لـك في المصحـة جنـب حبيبـك شـكري، سـلِّم لي عليـه وقـول لـه إن فيـه مبلـغ تـاني باسـمه، شـدّ حيلـك يـا بطـل.

هــزَّ رأسـه شـاكرًا ووعـدني همسًـا بالعـلاج. تذكـر سـبب قدومـه وقـال بلهجـةٍ جـادةٍ:

- أنا خليت الساعي يلم كل حاجة تخصك في أوضة الأستوديو وينزِّلها عربيتك.. رجالة سامح جايين الأستوديو دلوقتي عايزينك.

خرج المخرج من غرفة التحكم وطلب مني الرحيل من الباب الخلفي للأستوديو؛ حيث حرَّك الساعي سيارتي بعد أن وضع بداخلها كافة متعلقاتي، وأنه سيتصدى لرجال سامح مع باقي العاملين في الأستوديو ليعطلوهم عن اللحاق بي.. أيَّد الجميع اقتراحه حتى المختلفين منهم معي بخصوص ما قلته في البرنامج، اعتذرت لهم شاكرًا شجاعتهم وطلبت منهم أن يتركوني أحل مشاكلي بنفسي، قاطعني خالد قائلًا بحزم:

- مش وقته.. لازم نروح طحا بسرعة!

هززتُ رأسي مُستفسرًا، فقال بأسفٍ:

- أخوك ناجي.. تعيش إنت.

١٨

العَوْدَةُ مِنَ المَوْتِ إِلَى المَوْتِ

السَّبت 11 نوفمبر 2006

نظـر عطـوةُ إلى سـاعة الجيـب العتيقـة خاصتـه؛ فعـرف أن يـوم الجُمعـة قـد انقـضى وأن السـاعات الأولى مـن يـوم السـبت قـد جـاءت مُحَملـة بالكثـير مـن الشـؤم، قطـع غرفتـه جيئـة وذهابًـا، خـاف أن يظهـر أمـام أهلـه بهـذه الحالـة فيفقـد هيبتـه، تحـدَّث إلى نفسـه بصـوتٍ عـالٍ لاعنًـا حـظ الطحاويـة الذيـن اقـترب اسـمهم مـن الفنـاء، كان الـصراخُ داخلـه أعـلى كثـيرًا مـن صراخ الحريـم بالأسـفل.. ظـلَّ مُنتظـرًا يحيـى آمـلًا في أن يفعـل شـيئًا حيـال وفـاة ناجـي المُفاجئـة؛ أليـس هـو الطبيـب المداوي الـذي يتبـارك بـه الجميع؟.. وأليـس الأقربـون أولى بكراماتـه التـي يجـود بهـا عـلى الآخريـن!.. فليُنقـذ نسـل العائلـة الـذي أوشـك عـلى الانقـراض. علـم عطـوة بوصـول ابـن أخيـه يحيـى حـين سـمع صـوت سـيارته المُسرعـة التـي أوقفهـا

بصوت فرامل مزعجٍ وخرج منها راكضًا نحو بيت العائلة. نزل عطوة فوق سلالم بيته متوجهًا نحو غرفةٍ أرضيةٍ وُضِع بداخلها جُثمان ناجي المُسجَّي، استقرَّ حوله الكثير من أهله وأصحابه، استشعر يحيى نحيب النسوة صادقًا صارخًا بمحبة أخيه.. قارنها بالصرخات المُفتعلة التي سمعها يوم مماته المزعوم؛ فأدرك أن فكرة المقارنة ظالمة له.

تبادل نظراتٍ صامتةً مع عطوة، ركع بجوار جسد ناجي دافنًا وجهه بين كتف أخيه ورقبته وراح يهتزُّ باكيًا.. نظر خالد إلى الأرض بأسى وسأل عطوة عن سبب الوفاة.. بدا على يحيى الانتباه لما سيقول عمه.. لم يجد عطوة ما يقول؛ غمغم بعباراتٍ غير ملتحمةٍ، كالحديث عن إرهاق العمل، وعن حالة الحزن التي انتابته بعد آخر قضية التي تبعتها قطيعةٌ تامةٌ مع أخيه، وعن تأنيبِ الضمير الذي التهمه التهامًا بعد الخروج خاسرًا من قاعة المحكمة.. لم يفهم خالد معظم كلام عطوة ولكنه استنتج أن يحيى خاصمه قبل الوفاة.

ذكر عطوة الكثيرَ من الكلام المُعترِض على القدر والقضاء؛ فتحدث عن شباب ابن أخيه الذي خُطِف مبكرًا، وعن عدم وجود سببٍ واضحٍ للوفاة المفاجِئة التي حدثت في مكتب ناجي الخاص.. فجأةً لمعت عينا خالد وقد التقط

الخيط الذي كان يُحاولُ عطوة الإلقاء به ليحيى مُحرَجًا من ردة فعله؛ فقال ليحيى:

- مش ممكن ناجي يكون حصل له نفس اللي حصل لك، وحصل لي في مكتب الصحفية.

لم يبدُ الفهمُ على يحيى.. فقال عطوة بسرعةٍ مُستعيدًا كلمات يحيى من برنامج "الموءود":

- الغشاوة يا يحيى؛ الغشاوة اللي الجنّ وضعها على عيون البشر عشان يدفنوا أقرب الناس ليهم، وهو عايش وبيصرخ من جوّاه عشان يلحقوه.. مش ده كلامك؟!

أمَّن جميع الواقفين على كلام عطوة، حتى النسوة توقفن عن النحيب اللائي ترقَّبن رد يحيى على عمه، ترجَّاه الجميع أن يفعل شيئًا.. أشار عطوة لهم كي يصمتوا ثم ربَّت على كتف يحيى مُشجعًا:

- إلحق أخوك يا ابن الطحاوية.. إحييه!

حضن يحيى جسد أخيه مُستعيذًا بالله حين أذاقه عطوة نفس كلماته التي كان يُلقنها لأتباعه، بكى كما لم يفعل من قبل.. التهمته الحسراتُ من الداخل. طلب منه خالد الهدوء وأن يُحاول أن يتلو على أخيه ما تلاه من قبل

عليـه، اقـترح عليـه تكـرار نفـس التجربـة.. وجَّـه يحيـى حديثـه لعمـه قائـلًا:

- مش جبتوا دكتور كشف عليه؟!

طأطـأ عطـوة رأسـه مُجيبًـا بالإثبـات، وكاد يُقبِّـل يـديْ يحيـى كي يحـاولَ ممارسـة قدراتـه غـير العاديـة لإعـادة أخيـه إلى الحيـاة.. أعلنهـا يحيـى بهـدوءٍ مخاطبًـا جميـع الموجوديـن بالغرفـة:

- البقاء لله يا جماعة.

رفـض النـاس قـوْل يحيـى عـلى أخيـه، لعنـه بعضُهـم وصمت البعـضُ الآخـر خائفـين مـن غضبـه، اعـترف أنـه لا يملـك مـن أمره شـيئًا وأن مـا حـدث معـه لم يكـن إلا صدفـة.. كذَّبـه خالـد وقـال إنـه رأى بعينيـه مـا يمكنـه أن يفعـل.. صرخ فيهـم أن الرسـول مـات ولـده أمامـه ولم يملـك لـه إلا الدعـاء والشـفاعة، فمـن هـو ليُؤخـر أجـل أخيـه إذا جـاء؟!.. وصـل نفـس المُغسِـل الـذي تعهَّـد بجثـمان يحيـى مـن قبـل.. صافـح يحيـى باحـترامٍ شـديدٍ وخـوفٍ جللٍ. شـعر المُغسِّـل برفـض بعـض الحاضريـن لوجـوده نكرانًـا منهـم لفكـرة مـوت ناجـي، ورفضًـا لتكـرار نفـس الخطأ الـذي اقترفـوه مـن قبـل مـع أخيـه باعتبـاره ميتًـا. نظـر المغسـل إلى يحيـى وكاد أن يطلـب منـه نفـس طلبهـم؛ ولكـن نظـرة ناهيـة مـن يحيـى وأدت الحديـث في مهـده.. أمرهـم يحيـى بلهجـةٍ حاسـمةٍ:

- ذيعـوا عـلى ناجـي في الجامـع وقولـوا إن دفنتـه وعـزاه بكـرة.. كفايـة تعذيـب لروحـه، إكـرام الميـت دفنـه.

لمـح في أقـصى الغرفـة سـكرتير مكتـب أخيـه، فجذبـه مـن ذراعـه خارجَـيْن مـن الغرفـة حتـى وصـلا إلى بهـو دوَّار عطـوة، ربَّـت عـلى كتفـه وقـال لـه بلهجـةٍ منكـسرةٍ:

- ناجي قال لك حاجة قبل ما يموت؟!

بدا على السكرتير الذُّعر، وقال ليحيى بصوتٍ متهدجٍ:

- طلـب منـي أكلِّـم حضرتـك وهـو بيطلَّـع في الـروح، بـس تليفونـك كان مقفـول.. أكيـد كان عايـز منـك تسـامحه.

بـدت الحـسرةُ عـلى يحيـى، حـاول أن يُـداري دمعـةً فلتـت مـن عينيْـه، سـأله بقلـقٍ:

- أكَل أو شرِب حاجة قبل ما يموت.. ولا وقع فجأة؟!

ردَّ السكرتير متذكرًا:

- المكتـب كان فـاضي وهـو كان بيشـتغل عـلى قضايـا قديمـة زيّ كل جمعـة.. دَخَلـت لـه المكتـب بكوبايـة شـاي، لمّـا طلعـت لقيـت زبونـة طالبـة تقابـل أسـتاذ ناجـي اللـه يرحمـه.. أول مـا سـمع اسـمها اتنفـض وقـال لي أدخَّلهـا بسرعـة.

سأله يحيى بلهفةٍ:

- شكلها إيه الست دي؟

- كانت بتتكلم عربي مكسّر وشكلها غريب؛ زي ما تكون خواجاية كده.. وبعد ما مشيت بدقايق الراجل وقع من طوله!

- كان اسمها دكتورة إيفلين؟!

أجاب السكرتير بعد ثوانٍ من التفكير:

- بالظبط كده يا مولانا.

***

تركتُ العزاء حين سمعت أذان المغرب، توجَّهت إلى مدخل طحا حيث كانت تنتظرني إيفلين التي أضاف لها اللون الأسود جمالًا فوق جمالها، لم يُعكِّره إلا حالة الاضطراب التي بدت عليها، حاسبتُ سائق الأجرة الذي أتى بها وساعدني على نقلِ حقائبِها داخل سيارتي، فتحتُ لها باب السيارة الأمامي، ربَّتُّ على يدها وذكَّرتها أنها من طلبت المجيء..

كم أكره القيادة ليلًا.. خاصةً حين يكون الطريقُ وعرًا ومُتربًا كمعظم الطرق التي تؤدي إلى المقابر، وحين تجلسُ إلى جوارك أنثى لا تكف عن النحيب، وحين لا يتوانى هاتفك

المحمـول عـن إصـدار ذلـك الصـوت المزعـج.. تفتـح ″تابلـوه″ السيارة بحثًا عنـه لتُخرسـه فـلا تجـد إلا كتابًـا يحمـل اسـمك...

مهـلًا.. أشـعر أننـي قـد رويـت هـذا الجـزء مـن قبـل؛ حـين بـدأتُ الحـكي أثنـاء محاولتـي لفتـح بـاب حـوش المقابرالـذي اسـتجاب بعـد عنـاء. كان خاليًـا كـما اتفقـت مـع سـلامة اللحـاد الـذي لم يُحـاول أن يفهـم؛ تـرك لي فأسًـا صغـيرةً خفيفـة الـوزن. توجَّهـت نحـو شـاهد القـبر القابـع في ركـنٍ قـصيٍّ مـن الحـوش، والـذي يحمـل اسـم رفعـت الطحـاوي.. ركعـت عـلى ركبتـي واسـتخدمت حَـدّ الفـأس لأكشـط طبقـة الأسـمنت المُحيطـة بالرخامـة الحاملـة لاسـمه والتـي نحتهـا منصـور منـذ زمـنٍ، ثبـتُّ طـرف الفـأس كأنـه عتلـة خلـف الرخامـة المُلتصقـة وبـدأت أنتزعهـا بحـرصٍ كي لا تتحطـم، كانـت مُثبتـة جيـدًا فتطلبـت منـي الكثـيرَ مـن الجُهـد لإخراجهـا سـليمةً. قالـت لي إيفلـين وسـط دمـوعٍ جافـةٍ إننـا يجـب أن نرحـل الآن، لم أعبـأ بقولهـا.. وحـين كـرَّرت طلبهـا بلهجـةٍ أكـثر قلقًـا أشرتُ لهـا ضامًـا أصابعـي حـول بعضهـا وأنـا أحـرِّك يـدي بشـكلٍ رأسي كي تصـبر؛ معلـلًا أن مـا خططنـا لـه يجـب أن يتـم عـلى أكمـل وجـه.

نهضـتُ مـن أمـام القـبر متوجِّهًـا نحـو آخـر، لمحـتُ شـيكارة الأسـمنت التـي حـرص رزق دومًـا عـلى عـدم نفـاد مـا بداخلهـا لتنغلـق تُـرب العائلـة كـما يجـب.. أخـبرني اليـوم بعـد دفنـة ناجـي أن الشـكارة أصبحـت خاويـةً، وقـال مُبتسـمًا لـن نحتـاج

لـشراء أخـرى لفـترةٍ طويلـةٍ!.. لم أفهـم معظـم حديثـهِ كعـادتي. يبـدو أنـه نـسي أن يتخلـص منهـا وتركهـا مُلقـاة بجـوار قـبر أخـي، نظـرتُ إلى شـاهد قـبره الخـالي مـن أي دليـلٍ عـلى وجـود ناجـي بداخلـه، أخـبرني عطـوة صباحًـا أنـه طلـب مـن منصـور قطعـة رخـامٍ منحـوتٍ عليهـا اسـمه، لم أخـبره أننـي لـن أراهـا لأننـي سـأكونُ قـد سـافرت...

أطلقـت إيـف صرخـةً مدويـةً بعـد أن التصقـت بي في فـزعٍ، أقسـمت أنهـا سـمعت صوتًـا غريبًـا، سـألتني إن كنـتُ قـد سـمعته مثلهـا.. أخبرتهـا أن مـا تسـمعه هـو محـض هواجـس لأن هــذه أولى زياراتهــا للمقابــر، قبَّلــتُ رأسَــها مُربتًــا عــلى كتفهـا.. أخبرتهـا أن رحيلنـا قـد اقـترب؛ وأن لحظـة الحسـاب قـد بـدأت. ضربـتُ الأسـمنت المحيـط بمدخـل مقـبرة أخـي، ضربتـين بالفـأس كانتـا كفيلتـيْن لتحطيـم القفـل، دخلـت إلى المدفـن حتـى بلغـت كتـف ناجـي، حملتـه برفـقٍ خارجًـا لإيفلـين التـي فزعـت مـن المنظـر، أرحـت ظهـرَه عـلى شـاهد القـبر، وقفـتُ لألتقـط أنفـاسي بعـد هـذا المجهـود الكبـير، نزعـت الكفـن عـن نصفـه العلـوي، وصفعتـه عـلى وجهـه!

فتـح عينيْـه بصعوبـةٍ، لم يُحـرك سـاكنًا كـما كان حـالي حـين أخـذتُ نفـس التركيبـة منـذ شـهور.. لم أُرِد منـه سـوى وعيـه، نظـرتُ لـه بحنـقٍ وقلـتُ لـه غاضبًـا بلهجـةٍ أشـبه بالفحيـح:

- ينفع اللي عملته فيَّا ده يا ابن والدي؟!

لم أجـد إجابـةً عـن سـؤالي سـوى الصمـت، طلبـتْ منـي إيـف الإسراع، لم أعبـأ بهـا، نظـرتُ إلى وجهـه السـاكن وعينيْـه المُتسـعتين عـن آخرهـما، وضحكـتُ بهسـتيريا قائـلًا:

- مـش هاتـرد طبعًـا.. طـول عمـرك بتعـرف تدافـع عـن الباطـل وتحـوِّل الغلـط صـح، المـرة دي أنـا سـلبتك الحـق ده؛ عشـان أنـا متأكـد إنـك هتعـرف تـبرَّأ نفسـك قدَّامـي!

أكملتُ حديثي مُبتسمًا بخبثٍ:

- بس إيه رأيك في تمثيلي؟.. مُحترف مش كده؟!

قلَّـدتُ مـا فعلتـه منـذ سـاعاتٍ، وقلـتُ بلهجـةٍ مفتعلـةٍ سـاخرًا:

- البقـاء للـه يـا جماعـة.. إكـرام الميـت دفنـه.. مـش هاقـدر أعمـل لـه حاجـة.. مـا يعرفـوش إنـك لازم تتحاسـب هنـا الأول، قبـل مـا تتحاسـب فـوق.

لم أعبـأ بعينيْـه اللتـين لم تكفـا عـن التحـرُّك مـن محجريْهـما، ولا مـن منظـر إيفلـين التـي أوشـكت عـلى أن تفقـد وعيهَـا وقلـتُ بجديـةٍ:

- بـس بصراحـة خطتـك كانـت حلـوة، واتلعبـت صـح جـدًّا.. لـولا شـوية غلطـات صغـيرة؛ أولهـم موافقتـك السريعـة عـلى فكـرة التجربـة، واللـي كان أي أخ ممكـن يقلـق فيهـا عـلى أخـوه أو حتـى يتشـاءم مـن إنـه يتوصـم بالمـوت،

تانيهـم جـار أمجـد الـلي شـاف عربيتـك ووصفهـا في مكالمـة مجهولــة للبوليــس.. وطبعًــا أنــا ماكنتــش مهتــم أعــرف مواصفــات العربيــة، ولا حتــى أهــل أمجــد عمرهــم مــا كانــوا هايخمّنــوا إن إنــت الــلي عطَّلــت الفرامــل وقتلــت ابنهــم.

ثـم أشرت إلى إيـف التـي كانـت مشـدوهةً لا تُصـدق منظـر ناجــي المُلقــى أمامهــا ملفوفًــا في كفنــه لا يــبرز منــه إلا رأســه الســاكن:

- وتالتهــم الســت دي؛ الوحيــدة الــلي وقفــت جنبــي في الوقــت الــلي أهــلي باعــوني فيــه، وفي عــزّ مــا كل النــاس كانــت خايفــة منــي؛ هــي الــلي لاحظــت عربيتــك وربطتهــا بالمواصفــات الــلي اتقالــت لهــا في المحــضر. كل دي كانــت أجــزاء صغــيرة مــن صــورة أكــبر بكتــير، كل تصرفاتــك فيهــا مــا لهــاش مُــبرر واحــد؛ صحيــح لــولا ســتر ربنــا الــلي نجَّــاني لمّــا بعــت لي نبّــاش كان زمانــك وارث أرضي ومتجــوّز مــراتي، بــس أكيــد ده مكانــش غرضــك الرئيــسي مــن إني أتدفــن.

أشرت لإيــف التــي أخرجــتْ مــن حقيبــة يدهــا ملفًّــا ورقيًّــا ملفوفًــا، ركعــتُ عــلى ركبتــي حتــى تقابــل وجهينــا.. فتحــتُ الملــف مُمســكًا بــرأس ناجــي لأوجــه عينيــه نحــوه بعنــفٍ:

- بــص كــده يــا ابــن أمــي وأبويــا، ده ملــف عليــه اســمك لقيتــه بالصدفــة وســط ملفــات المــرضى لمــا رُحــت أنضــف

عيـادة أمجـد مـع إيـف، وسـبحان اللـه اتشـخّصت بنفـس المـرض الـلي كان عنـدي: النيكروفوبيـا!

مكتـوب في الملـف إن أمجـد عـرض عليـك التجربـة قبـل مـا يعرضهـا عـليَّ.. بـسّ إنـت كعادتـك كنـت جبـان؛ زيّ يـوم الحادثـة بالظبـط: فضلـت مرمـي في حضنـي وسـبتني أعيـش مـع الكارثـة لوحـدي. وطبعًـا إنـت اعتمـدت عـلى إن أمجـد مُلـزم يحافـظ عـلى أسرار الحـالات الـلي عنـده، وقـرَّرت تجـرَّب فيَّـا العـلاج؛ يعنـي لمَّـا فتحـت عـليَّ الكفـن في المُسـتوصف عشـان تخلِّينـي عـارف أتنفـس.. مـا كانـش حبًّـا فيَّـا.. إنـت بـس كنـت عايـزني أكمِّـل التجربـة للآخـر وتشـوف إيـه ممكـن يحصـل لي لحـدّ مـا أتدفـن، وأكيـد كنـت هاتفتـح التربـة بـأيّ حجّـة بعدهـا بـكام يـوم تشـوف جثتـي اتحَرَّكِـت جـوَّه النعـش ولا لأ.. لـو اتحرَّكِـت يبقـى أنـا فضلـت عايـش بعـد الدفـن والتجربـة نجحـت وتقـدر تجـرَّب التركيبـة براحتـك، ولـو كنـت فضلـت سـاكن تحـت الأرض تبقـى روحـي طلعـت قبـل خضّـة القـبر والتركيبـة فيهـا حاجـة غلـط مـن الأسـاس.

ظـلَّ يفتـح ويُغلـق جفنيْـه بنظـرةٍ غـير مُصدقـةٍ، لأول مـرةٍ في حيـاتي أشـعرُ أننـي أفهـم لغـة العيـون، فهمـتُ أنـه يُحـاول أن يُـبرئ نفسـه، أن يقـول الكثـيرَ مـما يدفـعُ عنـه أذاي، قلـتُ لـه مُبتسـمًا:

- نفس النظرة اللي شوفتها في عينك يوم ما دخلت عليكوا بيت العيلة وإنتوا بتقسّموا تركتي، بسّ المرة دي مش هاتقدر تجري تجيب لي دكتور عشان تشوف التركيبة هاتفضل معيّشاني لحدّ إمتى.. وأكيد هيّ دي نفس النظرة اللي كانت على وشك لمّا خسرت قضية الحَجْر. أنا بقى قرَّرت لأول مرة في حياتي أكون أنا الفِعل؛ فبعتّ لك إيف المكتب تحطّ لك التركيبة من غير ما تاخد بالك؛ قلت أخليك تجرَّبها بنفسك وتشوف كل آثارها، مش بسّ عليك وكمان على اللي حواليك.

أخبرتني إيف بلهجةٍ جامدةٍ أن موعد الطيارة سيفوتنا، فقلتُ خاتمًا حديثي:

- حاول تتعود يا ريِّس مع وضعك الجديد؛ مع ناس خايفين منك، ومع أهل طمعانين فيك ماعندهمش مانع يحجروا على كل اللي حيلتك لمّا يكتشفوا إنهم مش هيورثوا منك مليم. أنا طلعت أجدع منك وقرّرت أسيبك تورث كل حاجة كانت ليّا؛ عشان بسّ تشوف الحياة بعنيّا، وتعيش نفس القرف اللي أنا عيشته، ولو سامح اتصل بيك عشان تعمل إنت الموسم التاني وافق عشان فلوسه كتير.. أنا خلاص شبعت فلوس وقررت أسافر أبدأ من جديد.

لمحتُ الفزع في عينيْه أثناء مُغادرتي من بوابة الحوش، فقلتُ له مُستدركًا:

- ما تقلقش أنا مش وسخ زيّك ومش هاسيبك مرمي تحت الأرض وسط عضم الأموات.. رزق هيجيلك كمان شوية معاه التركيبة التانية اللي هاتفُكّ جسمك، والعلاج اللي بيعالج آثار التركيبتين؛ وآهه بالمرة تلحق تاخد العزا بتاعك بنفسك.. عيش بقى يا ابن الطحاوي.

***

توجَّهتُ مُسرعًا إلى بيت العائلة لأغتسلَ وأغيّر ملابسي التي تكوَّم الترابُ عليها، وصل سائقُ سيارتي البديلة بسيارة أجرة كما طلبتُ منه، استفسرعن سبب غيابي عن عزاء أخي.. أخبرته أن سفريةً طارئةً منعتني، وعدني بالتوجُّه إلى المطار في أقل من نصف ساعة من طريقٍ مُختصرٍ. لم أصدقه إلا حين نفَّذ ما وعد به، ساعدته الشوارع الخالية والمقاهي الممتلئة، أوقف السيارة حين وصلنا إلى بوابة المطار، ساعدني على إنزال الحقائب، تركتُ له السيارة يعمل عليها حتى أعودَ من سفري وأستردها، سألني عن ميعاد عودتي، فهززتُ كتفيَّ وأشرتُ إلى السماء حيث العليم الوحيد بأوان رجوعي.. سألني عن السيارة الفارهة التي كان يقودها جبران.. قلتُ له إنني بعتها، لم أخبره أنني أعطيت أموالها لفرحات الطحاوي؛ حتى يحوِّل بيت العائلة القديم

إلى مدرسةٍ مجانيةٍ لأطفال طحا. عرفتُ بعدها بفترةٍ طويلةٍ أن فرحات سمَّى المدرسة: "فرحة".

عند مدخل المطار طلبتْ مني إيف الإسراع للانتهاء من إجراءات السفر التي قد تستغرقُ وقتًا.. أخبرتُها أنني أريدُ التقاط أنفاسي قليلًا بما أننا قد وصلنا باكرًا عن ميعاد الطائرة.. ابتعدتُ عنها مُستئذنًا لأقوم بمكالمةٍ هاتفيةٍ لصديقي الذي يعمل هنا ليُنجز لنا كافة الأوراق أثناء انتظارنا في استراحة المطار.. نظرتُ إلى ساعة يدي أثناء الجلوس: كانت الساعة الثامنة والربع مساءً، لم يكن حولنا الكثير من الصحبة.. كانت الحركةُ في المطار غريبةً؛ فمعظم الحراس واقفون أمام جهاز تلفزيون في إحدى الغرف الجانبية، لمحتُ بطرفِ عيني مُسافرًا يجلسُ قريبًا منا ويُحاول التقاط إشارات راديو محمول، لم أفهم ما الحدث الجلل الذي يُحاول الجميع متابعته، كما لم أحاول أن أفعل.. نثرَت إيف شَعرها على كتفي حين أراحت رأسَها فوقه محتضنةً ذراعي، هَمَسَت بعبارة حُب لم أعتد سماعها منها، تحدَّثت عن إعدادها لكافة تفاصيل زواجنا في ألمانيا، أخبرتني الكثيرَ عن طقوس الزواج لديهم.. هززتُ رأسي سارحًا فيما هو أهم؛ كم أرغبُ أن ينتهي هذا اليوم وأغادر مصر.

مـدَّت يدَهـا في حقيبـة يدهـا.. اندهشـتُ حـين اكتشـفتُ أنهـا أحـضرت كتـابي- الـذي لم أكتبـه- مـن السـيارة معهـا، نظرتُ إلى غِلافـه السَّـميك وعبـارة "العـودة مـن المـوتِ إلى المـوت" التـي تتوسـطه، طالعـتُ اسـمي المكتـوبَ بخـطٍّ أصغـر مُسـتنكرًا هزليـة الموقـف؛ لم أعلـم مـا الـذي أثـار إعجـاب إيـف في كتـابٍ لم أكتبـه ولا أعـرف محتـواه مـن الأسـاس. أشـادت إيـف بجـودةِ الـورق الداخـلي للكتـاب، فتحتـه وحاوَلـت جاهـدةً القـراءة، طلبـتْ منـي أن أقـرأ لهـا منـه حتـى يـأتي صديقـي الذي سـيُنهي الإجـراءات؛ فتحـتُ أول صفحـةٍ في الكتـاب التـي كُتِـب فيهـا إهـداء لـكل أمـوات عائلتـي بالاسـم؛ يبـدو أن لطفـي يعـرف مـا يفعلـه جيـدًا.. فقـد أحـضر مـن اجتهـد وبحـث ليعـرفَ عنـي ويكتـبَ بلسـاني بشـكلٍ مقبـولٍ، بـدأتُ بالمقدمـةِ القصـيرةِ المُدونـة في الصفحـات الأولى، وقـرأتُ ببـطءٍ عـلى إيـف قائـلًا:

"مـؤلمٌ هـو ذاك المـوت؛ أن ترحـل بغتـةً، يتوقـف جسـدك كماكينـةٍ انقطعـت عنهـا الكهربـاء إلى الأبـد، تسـمع أحبابـك يصيحـون فيـك لتبقـى.. وكأن عودتـك خيـارٌ تتخـذه بكامـل إرادتـك. أن تذهـبَ في رحلـةٍ لا تأجيـل لهـا ولا عـودة منهـا، لا تعلـم مُنتهاهـا ولا تملـك لهـا زادًا كافيًـا مـن العمل الصالـح، يتردد في ذهنـك سـؤالٌ مفـزعٌ لا مفـرَّ منـه: "فيـمَ أفنيـت عمـرك؟".. ولكـن الأكـثر فزعًـا أنـك لا تملـك إجابـةً شـافيةً عليـه!"

تعجَّبـتُ مـن اللهجـة الدينيـة التـي اكتسـت بهـا المقدمـة، فأسرعـتُ القـراءة بعينـي أبحـثُ عـن نهايتهـا، طلبـتْ منـي إيـف التمهُّـل في غمغـماتي فقلـتُ لهـا إن المكتـوب لا يتسـق مـع محتـوى الكتـاب المزعـوم، قلبـت صفحاتِـه سريعًـا بنظـرةٍ عابـرةٍ استشـففتُ منهـا أن المحتـوى لا يختلـف كثـيرًا عـما كنـا نقدمـه في البرنامـج، حتـى وصلـتُ إلى الخاتمـة التـي سُـطِرَ فيهـا: "لا يسـتغرق الأمـرُ طويـلًا.. فخـلال بضـع ثـوانٍ تحـدث النهايـة؛ كمُحـارب عظيـم يُجهِـز عـلى منافسـه بـأسرع الطـرق الممكنـة.. فيـزداد نشـاطُ المـخ بشـكلٍ مفاجـئٍ ليتوقـفَ بعدهـا بلحظـاتٍ، وتنخفـض حـرارة جسـدك تدريجيًّـا، تبـدأ خلايـا جسـدك بالمـوت بسـبب انقطـاع النَّفَـس وبعدهـا يبـدأ التـآكلُ مـن الداخـل، وبعـد سـويعاتٍ تتيبَّـس عضلاتـك ويتخشَّـب جسـدك، و..."

لم أسـتطع إكـمال تلـك الخاتمـة المُفزعـة التـي لمحـتُ نهايتهـا التـي تتحـدث عـن كافـة الحـالات التـي يمـرُّ بهـا الجسـد بعـد المـوت. حاولـتُ تغيـير الموضـوع؛ فأخـبرت إيفلـين أننـي بحثـتُ عـن معنـى اسـمها فوجدتـه: "الحيـاة".. ردَّت بابتسـامةٍ أن أمهـا أخبرتهـا ذات مـرة أنـه يعنـي "الطائـر الصغـير"، قلـتُ مازحًـا إن جـزءًا مـن اسـمها "إيفِـل" أي الشـيطان، لتجيـبَ ضاحكـةً أننـي اقتطعـت الجـزء الخاطـئ مـن الاسـم؛ فـإن تدليلهـا "إيـف" يعنـي حـواء.. ضايقتُهـا حـين قلـت إن لهـا حظًّـا مـن جميـع هـذه المعـاني!

لمحـــتُ ضابطـــين يدلفـــان إلى صالـــة الانتظـــار مُسرعـــيْن.. ســألتُ إيفلــين إن كانــوا قــد علَّموهــا في بلادهــا أننــا سُــذَّج.. لم تفهـم سـؤالي وأعربـت عـن قلقهـا حـين توجَّـه الضابطـان نحونـا. ســألني أحدُهــما عــن هويتــي فأجبتــه مُبتســمًا بهــدوءٍ؛ بعــد أن أخرجــتُ كافــة أوراقــي.. طلــب الضابــط الآخــر مــن إيــف جــواز سـفرها فنظـرت لي خائفــةً حتــى أخــرج الجــواز المــزوَّر، تجاهلتُهـا ونظـرتُ للضابـط سـائلًا عـن السـبب فأجابنـي بحـزمٍ:

ـ فيــه بــلاغ إن دكتــورة إيفلــين حرَّضــت عــلى قتــل جوزهــا دكتــور أمجــد عــمَّار، وإنهــا بتحــاول دلوقتــي تهــرب بــرّه مــصر.

لم ترُد إيفلين، فأجبتُ الضابط بنفسٍ هدوئي:

ـ الدكتــورة إيفلــين جايــه تودَّعنــي لأني مســافر، مــش هاتهرب ولا حاجة.

نظر الضابطُ إلى إيفلين قائلًا بلهجةٍ جادةٍ:

ـ بعــد إذن حضرتــك اتفضّــلي معانــا مــش عايزيــن نعمــل قلــق في المــكان.

ســألتْ إن كان جديــد قــد جــدَّ في قضيــة أمجــد فقــال الضابــط بهــدوء:

ـ أســتاذ جــبران ســمير مســاعد جــوزك اللــه يرحمــه اعــترف خــلاص إنــك حرَّضتيــه عــلى جريمــة القتــل.

طلبت مني إيفلين أن أردَّ على الضابط وأخبره بالحقيقة التي أدركها كالشمس، فأجبته صادقًا:

- كلامك صحّ يا أفندم..

نظرتْ لي إيفلين مصدومةً.. تجاهلتُ همساتِها، وأكملتُ حديثي مُبتسمًا:

- أنا أصلًا اللي بعت لكم جبران يبلَّغ عن الهانم.

تجاهلتُ صدمة إيفلين طالبًا من الضابط أن يسمح لي كي أنفردَ بها لدقائق قبل أن يصطحبها معه، وافق على مضضٍ.. قبل أن تثور في وجهي قلتُ لها مُبتسمًا:

- مش ملاحظة إن الصُّدَف اللي وقَّعت ناجي كانت كتير زيادة عن الواقع؛ يعني بالصدفة ألاقي ملف باسمه في عيادة أمجد؛ اللي كان دايمًا بيشكرني على حمايتي لأخويا، وبالصدفة برضه تيجي مكالمة "مجهولة" توصف عربيته بالمللي مع إن الحادثة حصلت في عِزّ الليل.. وأول ما أقول لك إني شاكك في ناجي وإني عايزك تروحي له مكتبه ما حاولتيش تدافعي عنه، وما اترددتيش لحظة في إنك تحاولي تسِمّيه بالتركيبة الشؤم بتاعتك.. واضح إنك خبرة في الموضوع ده؛ من أول ما حطّيتي لي حاجة في الأكل تخلّيني أحسّ بوجع في قلبي عشان أقتنع إن نهايتي قرّبت.. وشوفي حكمة ربنا: أول

مـا بعـدت عنـك الوجـع راح وبعدهـا بـكام يـوم تقوليـلي إنـك اكتشـفتي العـلاج!.. كنتـي عايـزاني ماشـوفش غـيرك لمّـا لقيتــي إني تذكرتــك الوحيــدة للهــروب؟

حاولَـت أن تـردّ فلـم يخـرج منهـا سـوى كلمـة "ناجـي".. ألزمتهـا الصمـت مُقاطعًـا حديثهـا بإشـارةٍ حازمـةٍ مـن يـدي، وأردفـتُ قائـلًا:

- ناجـي طـمَّاع وكلـب فلـوس وفيـه كل العِبَر.. بـس مـش قاتـل؛ هـو بغبائـه سـهِّل لـك مهمتـك ولبِّـس نفسـه في دم أمجـد لمّـا رفـع قضيـة الحَجْـر. وبصراحـة أنـا كنـت قرَّبـت أصدّق إنـه عملهـا، وأنـسى إنـه أنقـذ حيـاتي كـذا مـرة وسـط التجربـة.. لحـدّ يـوم مـا رُحـت لجـبران شـقته ولقيــت النســناس لسّــه عايــش.. الــواد مــا كدِّبــش خــبر وحـكى لي كل حاجـة: مـن أول مـا طمَّعتيـه في صاحبـه الـلي وثـق فيـه عشـان يعمـل لـك بوليصـة تأمـين باسـمك، ولحـدّ مـا طلبتـي منـي أشـغَّله معايـا عشـان يسـهِّل عليـكي تعـرفي كل أخبـاري، وتوقّعينـي في ناجـي أخويـا.

نظـر لي الضابـط بقلـقٍ مُشـيرًا إلى سـاعته، أومـأتُ لـه طالبًـا لحظـاتٍ إضافيـةً معهـا.. نظـرتُ إليهـا مُكمـلًا حديثـي:

- بـس للأمانـة الـواد كان جـدع معـاكي لآخـر لحظـة؛ أنكـر في الأول إنـه قتـل أمجـد.. وعشـان أبـرَّأ ناجـي قـدّام نفـسي رُحـت بعدهـا لدكتـور أنـس بتـاع مافيـا الجثـث؛ والـلي

أكِّد لي إن أخوه كريم كان مراقب أمجد لحظة بلحظة، وإن ما حدش ظهر ليلتها غير جبران اللي وقف جنب العربية دقايق قبل أمجد ما ينزل على طول. رجعت تاني للكلب بتاعك وعملت عليه شويتين السّحر اللي اتعلّمتهم من البرنامج.. عيَّط واعترف إنه هو اللي عطَّل الفرامل، وإنه كان عارف منك موضوع التجربة، وإنكوا ما لقيتوش معاد أنسب من ده عشان تقتلوا أمجد؛ لأن موتي هيغطّي على شكوك الناس في قتل أمجد.

أمسكتُ ساعدها بقسوةٍ قائلًا:

- يعني طول الوقت ده ما كنتش أنا المقصود.. كانت حادثتي مجرد غطا ليكوا، وناجي مجرد مُتهم مناسب الجريمة متفصلة على مقاسه.

أخبرتُها أن خدعتها كانت ستُغلق كلعبة الدومينو، ولكن القدر أبى إلا أن يكتمل الدور، وأكملتُ ضاحكًا:

- بس ملحوقة؛ أنا خيَّرت جبران بين إنه يسلِّم نفسه ويعترف عليكي، وبين إني أبلَّغ عنه كشريك أساسي في الجريمة، وزي أي كلب مطيع قرّر يعترف عليكي. وحتى لو حصلت معجزة وخدتي براءة؛ فشركة التأمين ما هتصدّق تمسك في اعترافه وما تدفعش ليكي مليم.

ومـش هاتعـرفي تماطـلي معاهـم في الإجـراءات لأن إقامتـك غالبًـا هتكـون خلصـت.

قالت إيفلين وسط دموعِها:

- كل الـلي كنـت عايـزاه إني أرجـع بلـدي، أمجـد كان رافـض؛ قبـل مـا يمـوت كان بيعاملنـي كأني خدَّامـة كل المطلـوب منـي إني أخدمـه وأخلِّـف لـه ولـد، وفلـوسي كانـت بتتحـطّ في حسـاباته.. بـس أنـا حبّيتـك بجـدّ.

أمسـكتُ سـاعدها بحـزمٍ، وقلـتُ بصـوتٍ حاولـتُ أن أجعلـه خفيضًا :

- وأنـا كنـت فاهـم إني حبّيتك، ومـا كنتش هاصـدّق أيّ حاجة مـن دي ولا هاشـك فيـكي أصـلًا لـولا غلطتـك الكبـيرة: لمّـا زوّرتي ملـف لناجـي عنـد أمجـد وكتبتـي فيـه إن مرضنـا ده مـوروث.. لمّـا رُحـت المصحـة أطمّـن عـلى شـكري وأحجـز مـكان لخالـد قابلـت دكتـور نجيـب السـعدني وسـألته في الموضـوع ده؛ أكّـد لي إن مسـتحيل أمجـد ولا البروفيسـور الأجنبـي بتاعـه يفكـروا في علاجـي بطريقـة الصدمـة لـو كانـوا شـايفين مـرضي مـوروث جينيًّـا.. لأن العـلاج بالصدمـة بينجـح بـسّ لمّـا الشـخص بيكـون مريـض نتيجـة صدمـة نفسـية قديمـة؛ زي حالتـي كـده بالظبـط.

ضحكـتُ بصـوتٍ عـالٍ لافتًـا بعـض الأنظـار نحـوي، شـكرتُها عـلى كل مـا علَّمتـه لي، وطلبـتُ مـن الضابـط أن يصطحبهـا..

امـتنَّ لتعـاوني معـه وسـألني عـن موعـد بدايـة الموسـم الثـاني من برنامجـي فقدَّمـت المشـيئة وأخبرتـه كذبًـا أننـي سـأُنهي عطلتـي وأعـود لأعمـل في إعـداده، صرخـتْ إيفلـين لاعنـةً بالألمانيـة؛ لم أعلـم هـل لعنتنـي أم لعنـتْ حظهـا العـثر الـذي أوقعهـا في أخطـاء سـاذجة.. كانـت هـذه مـن المـراتِ القليلـة التـي أشـعرُ فيهـا بالثقـةِ في ذكائي؛ عـلى الرغـم مـن بسـاطة اكتشـافي إلا أنـه أنقـذني مـن مكـر ناجـي وعطـوة وهـذه الشـيطانة.

عــاد أحــدُ الضابطــين مُقاطعًــا لحظــات نشــوتي، قــال بهـدوء إن إيفلـين ادَّعـت أننـي زوَّرت جـواز سـفر لهـا باسـم نـور يوسـف.. ضحكـتُ مُخرِجًـا لـه جـواز السـفر الـذي يحمـلُ هـذا الاسـم، وأخبرتـه أن نـور هـذا رجـل وليـس امـرأة، وأنـه صديقــي يعمــل في التجــارة؛ وقــد اســتأذن منــي قبــل دقائــق لدخـول دورة الميـاه، حثَّنـي عـلى الانتهـاء سريعًـا مـن إجـراءات التفتيـش وخَتْـم جـوازيْ السـفر، فشـكرته قائـلًا إن نـور سـيأتي الآن لنسـتكملَ الإجـراءات وننضـم للرحلـةِ الجويـةِ المُتوجهـة إلى الإمـارات.. قاطـع حديثنـا صيـاحُ العاملـين بالمطـار الذيـن كانـوا يُتابعـون التلفزيـون، فزعنـا مـن الجلبـة التـي أحدثوهـا والـصراخ الـذي صرخـوه، سـألت أحدَهـم عـما حـدث فقـال فرحًـا:

- أبـو تريكـة جـاب جـول في الصفاقـسي.. عملهـا في آخـر دقيقــة!

البِدَايِة

" لَا تَخَفْ كَثِيرًا مِنَ المَوْتِ، بَلْ مِنَ الْحَيَاةِ النَّاقِصَةِ"
بِرْتولت بِرِيشت

خرجــتُ مــن مطــار دبي الــدولي، لمحــتُ ســائق السـيارة الأجـرة التابعـة للفنـدق الـذي حجـزتُ إقامتـي فيـه يلـوحُ لي مـن بعيـدٍ. أبطـأتُ حركتـي وتعمَّـدت تضييـق خطـواتي لأسـايرَ الشـخص المُرافـق لي، توقفـتُ لأتنشـقَ هـواءً جديـدٌ مذاقـه عـلى رئتــيَّ؛ لم أفهــم سرَّ اســتمتاعي بــه؛ أعطيــتُ نفــسي لحظــاتٍ لأســتمتعَ أكــثر برائحــة الهــواء الخــالي مــن التلــوث الجــوي والفكـري.. قـررتُ أن أبـدأ حيـاةً جديـدةً بعيـدًا عـن كل مـا مـررتُ بـه. ضربنـي مرافقـي عـلى كتفـي بشـدةٍ قائـلًا:

- بس ما لقيتش غير اسم نور ده تسمّيني بيه؟!

ضحكتُ قائلًا:

- ما له نور بس؟

- اسم مايع كده، بذمتك العُمدة رفعت الطحاوي يبقى عايش باسم نور يوسف؟!

- كان لازم أسمّيك اسم ينفع رجالي وحريمي؛ عشان الستّ إيفلين تصدّق إن الباسبور بتاعها ومتاخدش بالها إني لازق صورتها فوق صورتك يا حاج.

- بس ما سفّرتنيش باسمي الحقيقي ليه؟

- لأنك كنت عايش بهوية تانية ومزيِّف موتك.. أنا ما أعرفش موقفنا القانوني بالظبط بس قلت نلعب في المضمون، المهم إيه رأيك في الشغل؟

ردَّ رفعت وهو يتكئ في مشيته على قدمه اليسرى، مشيرًا إلى البدلة التي يرتديها لأول مرةٍ في حياته:

- بس مش كنت صوّرتني بالبدلة الجديدة دي.. بدل الصورة القديمة اللي خلّيت المزوِّر بتاعك يلعب فيها عشان تبان متصورة قريب؟!

- معلش بقى ما كانش فيه وقت نستنَّى صورة جديدة، أوعدك بكره أعمل لكPhoto session بالبدلة.

- فوتو إيه؟!.. الله يرحمها؛ ما عرفتش العربية غير لمّا داستها.

اقتربنا من السيارة التي وقف سائقها في انتظاري جامد الوجه فاتحًا بابها الخلفي بعد أن رصَّ الأمتعة في الحقيبة

الخلفيـة للسـيارة.. سرتُ مُحاذيًـا لرفعـت صامتًـا أفكّـر في حيـاتي القادمـة، قاطـع أفـكاري ثـلاث فتيـاتٍ ممشـوقات القـوام مـا لبـث أن صحـن بإعجـابٍ فـور أن تعرَّفـن عـلى ملامحـي، قالـت إحداهـن بلهجـةٍ شـامية إنهـن مـن متابعـات برنامجـي واحترمـن صراحتــي في نهايتــه.. طلبــتْ أخــرى التقــاط صــورةٍ تذكاريــةٍ معــي فوافقــتُ مُرحبًــا؛ أخرجَــت هاتفهــا المحمــول المــزوَّد بكامـيرا، تلفَّتـت حولهـا باحثـةً عمَّـن يحمـل هاتفهـا ذا النـوع الحديـث، طلبـتُ مـن السـائق أن يلتقـط لنـا أكـثر مـن صـورة.. ابتعـد رفعـت مـن الـكادر قائـلًا وهـو يضحـكُ للفتيـات:

- مـش عايزيـن تتصـوروا معايـا أنـا كـمان؟!.. تؤبـروني يـا حبايــب قلبــي.

عـاد السـائقُ ليُمسـك ببـاب السـيارة الخلفـي، أشـار لي كي أركـب؛ فتنحيـتُ لأفسـح الطريـق أمـام رفعـت ليركـب قبـلي، طلـب منـي السـائق بصـوتٍ خفيـضٍ مهـذبٍ الركـوب كي نبلـغ الفنـدق قبـل الغـروب.. خـرج رفعـت مـن نافـذة السـيارة مُلوحًا للفتيـات، راح يُغازلهـن بعبـارات الغـزل القديـم.. ضحكـت مـن قلبـي كـما لم أفعـل منـذ دهـرٍ. طلبـتُ مـن السـائق أن يُغلـق الحاجـز الفاصـل بـين المقعديْـن الأماميـيْن والأريكـة الخلفيـة للسـيارة كي لا يسـمع حديثـي مـع رفعـت، قلـت لـه وأنـا أنظـر إلى سـاعة يـدي:

- زمـان دلوقتـي البلـد كلهـا عرفـت موضـوع سـفري.. وزمـان ناجـي بقـى شـيخ هـو كـمان.

قال بهدوءٍ:

- يسـتاهل.. خليـه يشـوف الـلي إنـت شـوفته ولـو مـرَّة في حياتـه.

- كان عنـدك حـق يـا أبـو الرفـاع؛ التـار لازم يتسـوّى عـلى الهـادي ومكانـش ينفـع يتّاخـد غـير بالعقـل.. بـسّ الـلي مضايقنـي إن عطـوة مـا خـدش نصيبـه مـن الطاجـن.

ابتسم رفعت وقال:

- عطـوة طـمَّاع، والطـمَّاع عقابـه إنـك تسـيبه لدماغـه.. هـي مودّيـاه في داهيـة لوحدهـا.

أمّنـت عـلى كلامـه مُضيفًـا أن القـدر قـد أخـذ منـه مـا أخـذ، حـاول الاطمئنـان مـن ردة فعـل سـامح أبي خاطـر.. أجبتـه أننـي اتصلـت عليـه مُعتـذرًا وشرحـت لـه الظـروف ووعدتـه بـأن أجـد لـه التعويـض المناسـب حـين أعـود.. لم يغضـبْ كثـيرًا بسـبب الجـدل الـذي حـدث بعـد الحلقـة التـي حققـت نسـبة مشـاهداتٍ خرافيـة، اسـتفسر رفعـت عـن سـبب اختيـاري دبي بالتحديـد وجهـةً للسـفر، فقلـتُ لـه مُبتسـمًا:

- إنـت مـش كان نفسـك تبقـى "حـاج" بجـدّ بـدل مـا إحنـا بنقولهـا لـك مجاملـة كـده؟

أطلق سبةً بذيئةً قائلًا:

- هاحج في الإمارات يا ابن الـ.. طحاوي؟!

ضحكتُ قائلًا:

- يعني خدت بالك من دي، وما ختّش بالك إننا في شهر شَوال؟!

حكَّ رأسَه بعدم فهمٍ، فأخبرته أننا سنقضي عطلةً في دبي لكي نتمتع ونتناسى كل ما قاسيناه خاصةً في الفترة الماضية، عاتبني ضاحكًا:

- إنت جاي تفسد أخلاقي يا ابن أحمد الطحاوي؟.. طب كنت راعي إني رِجل برّه ورِجل برّه برضه.

أردف مازحًا وهو يُشير إلى السائق من خلف الحاجز:

- بعدين مش أنت قلَّعتني الجلابية وضيّعت هيبتي، خليه يودّينا كازينو مُحترم.

سعل طويلًا واهتزَّ صدرُه بألم، دعوتُ له بالسلامة.. فعقَّب قائلًا:

- أنا شكلي تعبت من الهوا النضيف.. كده أنا وأنت بقينا "عيَّان وميت".

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، قلتُ لرفعت بحسرةٍ بعد برهةٍ من الصمت:

- تفتكر ربنا هيسامحني على اللي فات؟

- إنـت صحيـح أذيـت نـاس كتـير؛ بـسّ مـا كانـش بدافـع شرّ جـوّاك.. كنـت بتحمـي نفسـك مـن بطشـهم بيـك وبسـيرتك.

عـدّل رفعـت مـن وضعـه حتـى جلـس مواجهًـا لي وقـال بلهجـةٍ جـادةٍ وهـو ينظـرُ إليَّ مبـاشرةً:

- نسيت أقـول لـك مـا تعملـش حسـابك عـلى هجـرة.. لازم ترجـع بجنتـي لمّـا أمـوت عشـان أتدفـن في أرضي ووسـط ولاد دمّـي.

تجـاوز عـن عبـاراتي العائمـة التـي لا تعـترفُ بشـكلٍ مبـاشرٍ بـأن يومـه سـيجيء حتـمًا كسـائر الخلـق، وردَّ عـلى تمنيـاتي ببعـد الـشرّ عنـه قائـلًا إن المـوت ليـس بـشرّ، وإن راحتـه في أن يلحـق بفرحـة وباقـي نسـلِها ممـن سـبقوه. أضـاف مُحـذرًا:

- وكمان لازم ترجع عشان أرضك اللي في طحا.

عقـدتُ يـديَّ خلـف رأسي بارتيـاح مَـن يبحـث عـن السَّـكينة؛ طمأنينـة مـا بعـد الانتقـام، يقولـون إن لذتـه تنتهـي فـور حدوثـه.. ولكننـي مـا زلـت أشـعرُ بلذتـه وأتـذوق كل ذرةٍ فيهـا. كـم أصبـو إلى فـترةٍ مـن السـلام الـذاتي؛ أن أحـزن عـلى الراحلـين مـن أهـلي، أن أذكـر صبـاي مـع صديـق عمـري قبـل أن يمـوت غـدرًا. قلـتُ بلامبـالاة:

- مـش عايـز أرجـع لهـم تـاني؛ النـاس دي اختـارت المـوت، وأنـا اخـترت الحيـاة.. بعديـن أنـا في غنـى عـن شـوية الطـين دول...

لطمني على وجهي بعنفٍ مُقاطعًا حديثي بلهجةٍ ناهرةٍ:

- شـوية الطـين دول شرف جـدودك، وتمنهـم هايفضـل رخيص مهـما غِـلي.. إوعـى تفـرّط فيهـم لألعنـك في تُربتـي ليـوم الديـن!

اعتـذرتُ لـه مُعلـلًا أننـي قـد جنيـتُ مـن برنامجـي الملايـين التـي سـتكفل لي حيـاة كريمـة.. اعـترض قائـلًا إن الحيـاة الكريمـة في الحفـاظ عـلى العِـرْض وليـس التفريـط فيـه.. حاولـتُ إقناعـه بوجهـةِ نظـري، لكنـه أشـار لي بيـده كي أصمـت. لم نتحـدث ثانيـةً لفـترةٍ طويلـةٍ.. أطـول مـما توقعـت.

بعـد فـترةٍ توقَّـف السـائق أمـام مدخـل الفنـدق، فتـح لي بـاب السـيارة فترجَّلـت منهـا لأخطـو بثبـاتٍ نحـو بدايـةٍ جديدةٍ.

تمَّت بحمدِ اللهِ

٤ سبتمبر ٢٠١٦

شُكر خاص..

- د. محمـد طـه استشـاري ومُـدرس الطـب النفـسى بكليـة الطـب- جامعـة المنيـا، وعضـو الجمعيـة الأمريكيـة للعـلاج النفـسي الجمعـي، ومؤلـف كتـاب (الخـروج عـن النـص) وكتـاب (علاقـات خطـرة).
- جزيـل العرفـان للأعـزاء: أ. محمـد عصمـت، أ. منتـصر أمـين، أ. أحمـد عبـد المجيـد، أ. محمـد الصفتـي، أ. إيهـاب مصطفـى، م. أحمـد القرمـلاوي، د. أحمـد خالـد توفيـق، دار تويـا ممثلـةً في كلٍّ مـن: أ. هالـة البشـبيشي و أ. شريـف الليثـي.. فلـولا جهودُكـم المُبـاشرة وغـير المبـاشرة، لمَـا خـرج العمـلُ بهـذه الصـورةِ.
- - الصديـق الدكتـور مصطفـى عـزت، والعزيـز أحمـد جاويـش عـلى مـا قدَّمـاه مـن مجهـوداتٍ بحثيـةٍ.. والصديق محمـود شـعبان وأسـماء عامـر.

ماريا

الطواف

يحيى

عرايا الروح

الورقة

حواديت السعادة

الراحلون

السيدة العجوز

الحياة على
سطح البطيخ